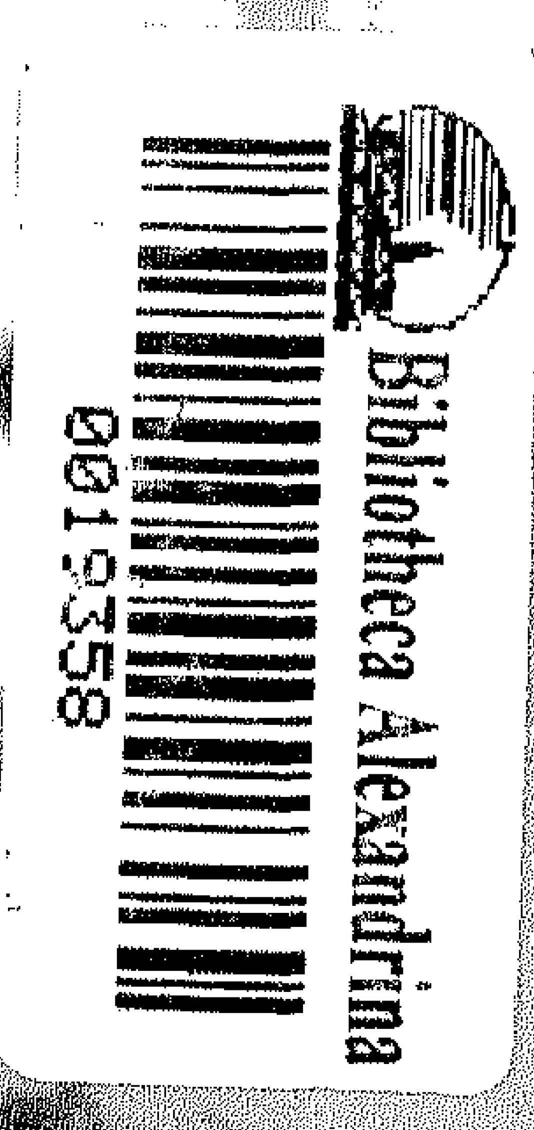
قدري قلعجي

أشهر المحاكمات في التاريخ

١٨ محاكمة تفوق الخيال

محاكمة سقراط
محاكمة جان كالاس
لاندرو السفّاح
محاكمة نورمبورغ
جاك السفّاح
لمن هذه المدية ذات الحرفين فـ و نـ ؟
ماتا هاري.. الجاسوسة ذات الرمز هـ ٢١
محاكمة بودلير
طلبوا محاكمته لأنه قال أن الأرض تدور
من يدلّ عليها له خمسون ألف فرنك
قَتَلَ جوريس لأنه رفض دخول الحرب
من اغتصب بنت الريف سيسيل؟
المارشال الساحر في قفص الاتهام
الكاهن أوربان غرانديه أُحرِقَ حيّاً
صوتٌ من السماء أمر راعية
الغنم بقيادة جيش فرنسا



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

أشهر المحاكمات في التاريخ

قدري قلعجي



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد.

ص.ب ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان.

برقياً: انكلسامس

تلفون٢ / ٣٥٠٧٢١.

تلفون + فاكس: ٦٠٢٠٢٩ - ٣٥٣٠٠٠ (٩٦١١)

الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦

تصميم الغلاف : عباس مكي

جومانا ابو شقرا

محاكمة سقراط

أخذ كأس السم وشربها بكل شجاعة ..

القضاة الخمسمئة اتخذوا أماكنهم على المقاعد الخشبية المغطاة بحصير الخيزران. واستوى الرئيس على منصة عالية يحيط به كاتب المحكمة ومباشرها ورماة السهام الذين يقومون بوظيفة الشرطة. وثمة صندوق على المنصة سوف يضع فيه القضاة الأوراق التي تحمل إدانتهم للمتهم أو تبرئتهم له.

الجلسة عامة، والجمهور المؤلف بكامله من الرجال كبير العدد. وكان الوقت مبكراً والصباح جميلاً، وقد ارتفع غناء الصراصير، فاطمأن القضاة لأن الطقس السيء ما كان ليسمح باستمرار المحاكمة التي تعقد في الهواء الطلق.

إنه لأمر غريب في الواقع، ولكن المكان والزمان يفسران هذه الغرابة بالنسبة لمحاكمنا الحديثة، فنحن في أثينا وفي صبيحة ربيعية من سنة ٣٩٩ قبل الميلاد.

ومن الصعب أن يتصور المرء كيف كانت أثينا قبل أربعة وعشرين قرناً. يقول أحد المعاصرين: «إنها مدينة مؤلفة من عشرة آلاف منزل». وهو رقم محترم يعني أن المدينة كانت تضم بين ثلاثمائة ألف وأربعمائة ألف نسمة. ويمكننا أن نتصورها مكومة بعضها فوق بعض، بشوارعها الضيقة وبيوتها المتلاصقة المبنية من الخشب أو القرميد المطلي بالكلس الأبيض. ومن فوقها تسطع ببهاء شمس البحر الأبيض المتوسط.

وكانت أثينا قد أبدعت نظاماً سياسياً فريداً هو الديمقراطية. فإن جميع الأثينيين الذكور الذين أتموا الخدمة العسكرية، هم مواطنون ويشاركون مباشرة في إدارة المدينة ـ الدولة. ولا يستثنى من ذلك سوى النساء والغرباء والعبيد.

ومع ذلك فإن أثينا وهي أكبر «المدن ـ الدول» اليونانية، كانت تمر في تلك السنة بمرحلة مأساوية من تاريخها. فبعد حرب رهيبة مع منافستها القديمة اسبارطة استمرت سبعة وعشرين عاماً، خرجت أثينا من الحرب منهزمة، وعانت وصمة الاحتلال، وفرض عليها العدو نظاماً ديكتاتورياً هو نظام «الطغاة الثلاثين» الذي أقيم برئاسة «الأثيني كريتياس» والذي تحررت منه منذ فترة قصيرة.

وصحيح أن ذلك الكابوس قد انقشع وتلك المعاناة قد انتهت، ولكن الأزمنة المضطربة لا بد من أن تخلف كثيراً من الأحقاد، إنه وقت تصفية الحسابات. ولكن الذي يطمئن هو عودة المؤسسات الديمقراطية إلى العمل، وبينها القضاء. أما القضاة فهم متطوعون يتم اختيارهم بطريقة القرعة. وبهذه الطريقة يجري اختيار ستة آلاف قاض كل سنة يوزعون على اثنتي عشرة محكمة، لكل منها خمسمائة قاض.

وفي ذلك الصباح أخذ القضاة الخمسمئة أماكنهم، لمحاكمة شيخ جليل جلس على عتبة المنصة، وكان المتهم المسن ذا لحية بيضاء، حافي القدمين، يغطي جسمه بوشاح من الصوف الرخيص. إنه ابن النحات سوفرونيسك والقابلة فيلاريت، ويدعى سقراط.

أما التهمة التي سيحاكم بشأنها فقد وجهها إليه المواطن «ميليتوس» الذي يتهمه بأنه لا يؤمن بآلهة المدينة، وبأنه قد أفسد شبابها! أما العقوبة التي طلبها له فهي الإعدام.

كان سقراط حينذاك في السبعين من عمره، وهو لا يتمتع بشيء من الوسامة أو الأناقة، وبينما كان الأثينيون يرتدون الثياب البيضاء المفصلة من الجوخ الثمين، كان يكتفي بوشاح من الصوف الرخيص ويسير حافي القدمين في الصيف والشتاء.

كان هذا الشيخ الذي يمثل صورة المتشرد والحكيم في آن واحد، قد ولد في أثينا سنة ٤٦٩ ق. م. وكان أبوه نحاتاً يصنع التماثيل، إلا أن ابنه لم يرث عنه حرفته، خلافاً للتقاليد السائدة، كما أنه لم يمارس حرفة أخرى، مكتفياً بالتجوال في أنحاء المدينة ومحاورة المواطنين، سائلاً إياهم عن مفاهيمهم الأخلاقية والسياسية، ومناقشاً إياهم في هذه المفاهيم.

خمسون سنة قضاها سقراط وهو يعترض الناس ولا سيما الشبان منهم، ويجادلهم، في الأسواق أو الحمامات العامة أو في ظلال أشجار الزيتون. وكانت أثينا في تلك الأيام تحفل بالفلاسفة والخطباء والسياسيين الذين لا يفتأون يبحثون عن الطلاب والمريدين، وكان يطلق على أساتذة الفلسفة اسم «السفسطائيين»، وكانوا يتقاضون أجراً مرتفعاً من الطلاب، في حين كان سقراط يرفض أي أجر على الدروس التي يلقيها على الشبان. وكانت الفلسفة بالنسبة إليه ممارسة عملية وعفوية وطريقة حياة.

وعلى الرغم من أنه كان زوجاً لامرأة شرسة ومشاكسة تدعى «كزانتيب»، وأباً لثلاثة أولاد، فإن صلته بأفراد مجتمعه كانت أوثق من صلته بأفراد أسرته، فهو منصرف بكليته إلى المهمة التي نذر لها نفسه، وهي مناقشة الشبان في شؤون العدالة والأخلاق. وكان بعض هؤلاء لا يفهمون آراءه، وعندما لا يفهم المرء شيئاً يتحداه أو يسخر منه. وهذا ما جعل أريستوفان يتخذ من سقراط موضوعاً لمسرحية ساخرة بعنوان «السحاب» يبدو فيها الفيلسوف في سلة معلقة في الهواء وهو يخاطب الغيوم ويستوحيها في إيجاد حلول صالحة لقضايا بلاده.

وقد اعترف سقراط بأنه إنما يعمل مدفوعاً من قبل شيطانه، ولكنه لم يعن ما نفهمه نحن من هذه الكلمة، بل كان يعني نوعاً من الإلهام الداخلي يمكن تسميته بالضمير. وكان ضميره يملي عليه أن يختار بنفسه آراءه الدينية والأخلاقية، لا أن يأخذها تلقائياً عن قومه. وذلك هو الأمر الذي لم يغفر له، ومن أجله يتهم بإفساد الشبيبة وعدم الإيمان بآلهة أثينا.

ولم يكن في أثينا نيابة عامة توجه الاتهام، بل كان في وسع أي مواطن أن يوجه

التهمة التي يريد إلى أي مواطن آخر، وعلى المحكمة أن تصغي إليه وإلى المتهم ثم تصدر حكمها بطريقة الاقتراع السري. وكان الذين وجهوا الاتهام إلى سقراط ثلاثة مواطنين هم ليكون وأنيتوس وميليتوس، الأول منهم ديمقراطي متصلب وأحد ممثلي النظام الجديد، والثاني تاجر جلود تخلى عن ابنه ليلتحق بالفيلسوف، والثالث شاعر ناشىء اتخذ من الشعر والخطابة حرفة له. وعلى الرغم من أن سقراط لم يكن سياسياً بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة، فإن الديمقراطيين كانوا يكرهونه وكان بين تلاميذه عدد من الأرستقراطيين بينهم كريتياس زعيم النظام الديكتاتوري الاسبارطي الذي أطيح به إثر ثورة شعبية. ولم يكن الفيلسوف ليجد غضاضة في مصادقة هؤلاء الإرستقراطيين وتبادل الرأي معهم حول العدالة والفضيلة والمعرفة، فهو لا يؤمن بالأحزاب وإنما يؤمن بالأفراد. وتلك جريمة لا تغتفر في عهود الاضطراب السياسي.

إن هذا الساخر الأشعث المهلهل الثياب، الذي لا عمل له سوى الانتقال من مكان إلى آخر لاعتراض الشبان والطعن في معتقداتهم الأخلاقية والدينية، والنيل من مواقفهم الفكرية والسياسية، قد أثار عليه الكثيرين من رجال المدينة، ومنهم الآباء الذين أنكرهم أبناؤهم، والسياسيون الذين سفّه آراءهم ومواقفهم، والسفسطائيون الذين طالما هزأ بهم وسخر من تعاليمهم، فجاؤوا جميعاً للانتقام منه في هذه المحاكمة الفريدة.

وبعدما وجه المتهمون إلى الشيخ الجليل كل ما لديهم من تهم تدور حول إفساد الشبيبة وتلقينها أفكاراً جديدة تتناقض مع تراث أثينا الديني والأخلاقي، جاء دور المتهم ليدافع عن نفسه. وكان على كل متهم أن يقوم بهذه المهمة بنفسه ولا يحق له أن ينيب عنه محامياً أكثر خبرة منه بشؤون الدفاع، وإذا كان المتهم عاجزاً عن التعبير عما يريد فمن حقه أن يكلف أحد المحامين بأن يعد له دفاعاً مناسباً ثم يعمد إلى حفظه غيباً وترديده أمام المحكمة.

وقد تطوع ليزياس وهو أشهر المحامين في أثينا، لكتابة دفاع عن سقراط باعتباره أكثر معرفة منه بالقوانين والأسلوب الذي يؤثر في القضاة، ولكن الفيلسوف الشيخ رفض قبوله وأعاده إليه قائلاً: «إن خطابك جميل جداً يا ليزياس، ولكنه لا

يشبهني. هل تعتقد بأن معطفاً أنيقاً وحذاء جميلاً يليقان بي؟!».

وبدأ سقراط دفاعه، وقلب كاتب المحكمة الساعة المائية التي تقيس الوقت الذي يجب أن يستغرقه هذا الدفاع، إذ إن من حق المتهم أن يستغرق دفاعه من الوقت بقدر ما استغرقته خطابات الاتهام.

سقراط وسلاح.. الهجوم

وخلافاً لما يتخيل المرء لم يكن سقراط خطيباً بل كان رجل حوار وجدل ونقاش. وهذا أمر لا يفيد في المحكمة وإثارة عاطفة القضاة، ولهذا دهش هؤلاء عندما سمعوه يقول:

ـ إنه لحظ سعيد للشباب، إذا كنت المفسد الوحيد لهم وكان جميع الأثنيين مصلحين لهم.

ولم يدافع سقراط عن نفسه بل عمد إلى الهجوم، فذكر القضاة بأن عرافة معبد دلفس كان قد أعلن أن سقراط هو أعلم الناس، وتساءل عما عناه العرّاف بذلك، وقال:

ـ لقد قمت بتحقيق. فاستجوبت جميع الأشخاص الذين يسمونهم علماء، وتأكدت من أنهم لا يعلمون شيئاً.

وأوضح الفيلسوف ما استخلصه من ذلك. فقال:
ـ لا شك في أني أعلم الناس، لأن الآخرين يعتقدون بأنهم يعلمون بعض الأشياء في حين أنهم لا يعلمون شيئاً. أما أنا فإني أعلم بأني لا أعلم أي شيء.

ويضحك القضاة ويحتج الرئيس على هذه الضجة، ويتابع سقراط حديثه فيتكلم عن «شيطانه» أو بالأحرى عن عبقريته، ويعلن حقه في إطاعة ذلك الصوت الداخلي، واتباع نصائحه، ويصرّح بصوت عالٍ أنه إذا برئت ساحته، فسيتابع كما فعل في الماضي تدريس فلسفته. ويحذر القضاة من الحكم عليه بالموت قائلاً:

ـ إذا قتلتموني أيها الأثينيون، فلن تجدوا رجلاً مثلي. إن أبولون قد وضعني هنا

لأبقي على هذه المدينة، في حالة اليقظة، فإذا ما أعدمت فإن الله سيغرقكم في نوم أبدي.

وأنهى سقراط دفاعه دون أن يسترحم القضاة كما جرت العادة لدى المتهمين الآخرين الذين يحيطون أنفسهم أثناء المحاكمة بأولادهم لإثارة العطف واستدرار الشفقة، ولم يخف القضاة دهشتهم من موقف التحدي الذي اتخذه وعدم المبالاة الذي بدا عليه، واتجهوا شطر صندوقة الاقتراع ليضعوا أصواتهم فيها، وكان عليهم هذه المرة أن يحددوا موقفهم من الاتهام الموجه إليه، فيعلنوا هل هو مذنب أم غير مذنب، وكان كل منهم مزوداً بحلقتين من المعدن واحدة ملأى تعني الإدانة والثانية مجوفة تعني البراءة. وعليه أن يحملها معاً ثم يضع في الصندوقة واحدة منها بطريقة معينة تصون سرية الاقتراع.

وبعدما عاد القضاة إلى أماكنهم، أحصى كاتب المحكمة عدد المقترعين بالإدانة فتبين أن عددهم مائتان وثلاثون في حين أن عدد المقترعين بالبراءة كان مئتين وعشرين، أي أن الإدانة قد تمت بأكثرية ضئيلة، ولكنها أكثرية على كل حال. وعاد سقراط إلى الكلام، ولم يصدق القضاة ما سمعوه. لقد كان من حقه أن يناشدهم تخفيف الحكم عليه في الاقتراع الثاني الذي سيحدد نوع العقاب ويقترح العقاب الذي يتصوره. ولكنه قال إنه يستحق المكافأة لأنه بدلاً من أن يبذل نشاطه في الحصول على منصب رفيع، قضى حياته وهو يقدم الخدمة للناس بإقناع كل فرد منهم بألا يفكر ويهتم بالفوائد العملية أشد من تفكيره واهتمامه بفوائده العقلية وسعادته الأخلاقية. ثم تساءل عن المكافأة اللائقة بإنسان فقير ومحسن للناس. ورأى أنه لا يقل عن المكافأة التي تقدمها الدولة للفائزين في السباقات الرياضية، بإعالتهم على حساب الدولة، فهؤلاء يقدمون للناس ما هو شبيه بالنجاح، أما هو فيقدم لهم حقيقته الواقعية.

وفسر سقراط لماذا اقترح هذا العقاب ـ المكافأة، في حين أن متهمه ميليتوس اقترح إنزال عقوبة الموت به. فقال إنه لم يكن من المعقول طبعاً أن يطلب إنزال الموت به، أما السجن فلا يريده لأنه سيمضي أيامه فيه خاضعاً لأوامر رجال الضابطة العدلية، ولو اقترح الغرامة النقدية لما أمكنه دفعها لأنه لا يملك المال

ـلازم لذلـك (أعلن أصدقـاؤه وتلاميـذه وفي مقدمتهم أفـلاطون أثنـاء الجلسـة ستعدادهم لدفع الغرامة في حال تقريرها).يبقى أن يقترح النفي ومن المرجح جداً أن يوافق القضاة على ذلك، ولكنه يعرف حق المعرفة أنه أينما حل فسيلتف الشباب من حوله وسيصغون إلى أحاديثه كما يفعلون في أثينا، فيُنفى من جديد ويمضي ما تبقى له من أجل مطروداً من كل مدينة يدخلها، ولو قيل له لماذا لا تقضي بقيـة حياتك في المنفى منصرفاً إلى شؤونك الخاصة، لأجاب أنـه لا يستطيـع ذلك لأن الصوت الذي يهتف في داخله يدفعه إلى مسلكه ذلك دفعاً.

وتعالت أصوات السخط والاستنكار لهذا التحـدي والاستهزاء، فقـد كان في وسع الفيلسوف، كسب الأقلية الضئيلة التي صدرت الإدانة بموجبها إلى جانبه، لو تصرف بشيء من اللباقة والدهـاء، ولكنه أبى إلا الاستمـرار في مواجهـة قضاتـه بطريقته الصريحة والصارمة؛ فاتجه هؤلاء إلى صندوقة الاقتـراع بثيابهم البيضـاء، وكانت نتيجة الاقتراع هذه المرة الحكم عليه بالموت: بأكثرية بلغت ثلاثمئة وستين صوتاً.

وحينئذ وقف سقراط وخاطب القضاة بقوله:

ـ لا شك في أنكم تعتقدون بأنكم قد أدنتموني لأني لم أقدم الأدلة والبراهين التي كان في وسعي تقديمهـا لإثبات بـراءتي. ولكن هذا الاعتقـاد بعيد عن الحقيقـة، فليس الافتقار إلى البراهين هو الذي أدى الى إدانتي. وإنما الافتقـار إلى السفاهـة والوقاحة والسلاطة. بالإضافة إلى رفضي مخاطبتكم بالأسلوب الـذي يرضيكم، ويشيع في نفوسكم الغبطة. لقد كنتم تريدون لي أن أبكي وأعول وأفعل كـل ما اعتدتم سماعه من الناس، وما أراه غير جدير بي. إني لم أعتقد البتة بأنه يجب عليّ أن أخضع للحقارة والمذلة، لا لشيء إلا لأن المـوت محدق بي، وأنـا أفضل المـوت نتيجة للنهج الذي سلكته في دفاعي، على الحياة نتيجة لنوع آخر من الدفاع، ففي قاعة المحكمة كما في الحرب، لا ينبغي للمرء أن يستعمل حصافته لينجو من الموت بأي وسيلة كانت. ومن الواضح أن في وسع المرء أن ينجـو في المعركـة من الموت بإلقاء سلاحه والارتماء على أقدام مطارديـه. كما أن هنـاك في كل نـوع من أنواع الخطر، العديد من الحيل للنجاة من الموت، إذا كان المرء من ضآلة الضمير بحيث

يتمسك بأي شيء، لكني أعتقد بأن المعضلة لا تكمن في النجاة من الموت، وإنما المعضلة الحقيقية هي النجاة من فعل الشر والشر سريع الخطى رشيقها. وقد تغلبت عليّ أنا الشيخ الطاعن في السن والبطيء الخطى، المعضلة الأولى والأبطأ خطى من الثانية، وتغلبت على المدعوين وعليّ المعضلة الثانية الأكثر سرعة ورشاقة وأعني بها الظلم والشر. وعندما أغادر هذه القاعة فسأذهب وقد أدانني الموت. أما هؤلاء فسيغادرونها وقد أدانتهم الحقيقة، حقيقة الشر والضلال، وهم سيتقبلون ما أدينوا به. كما أتقبل أنا ما ادنتموني به، وأعتقد بأن النتيجة جاءت عادلة بما فيه الكفاية.

سأقول لكم أيها الجلادون، يا جلادي، إنه حالما يطويني الردى، فإن عقوبة أشد ستنزل بكم، لقد تسببتم في قتلي اعتقاداً منكم بأنكم ستنجون من تعرض سلوككم للنقد، ولكنني أقول لكم إن النتيجة ستكون عكس ما تريدون وتشتهون. فناقدوكم سيزدادون عدداً، هؤلاء الناقدون الذين كنت لا أفتأ أكبح من جماحهم دون أن تعرفوا أنتم بذلك. ونظراً لأن هؤلاء هم دوني سناً، فسيكونون أشد عنفاً بالنسبة لكم. أما إذا كنتم تتوقعون أن تضعوا حداً للتعريض بسلوككم الخاطىء، بإعدام الناس، فلا شك في أن ثمة شيئاً مغلوطاً في تفكيركم. لأن الطريق الأصح لبلوغ غايتكم، ليست في إقفال أفواه الناس وإخراس ألسنتهم، بل في سعيكم إلى بلوغ درجة أسمى من الخير والصلاح، هذه رسالتي إليكم يا من اقترعتم بإدانتي.

وكانت الطريقة التي اختيرت لموته هي الأرحم بين طرق الإعدام المطبقة في أثينا، وهي تقضي بأن يقدم له كأس من السم فيشربه، كأنه انتحار إجباري. ولكن انقضى شهر قبل أن ينفذ الحكم، وذلك لأسباب دينية، ففي هذا الشهر من شهور الربيع تذهب بعثة دينية إلى جزيرة دلبوس، ومن المحرم تنفيذ أي حكم بالإعدام قبل عودتها.

وفي فترة الانتظار هذه زاره كريتون أخلص تلامذته له، واقترح عليه أن يعمل على تهريبه، وقد أعد الخطة ووسائل تنفيذها. ولكن سقراط أجاب بالرفض لأن عليه احترام القوانين، حتى وإن بدت ظالمة، ولو قام بذلك لطاردته أثينا وسألته

بأي حق يدمر قوانينها، ولقالت له القوانين: «نحن إذا حاولنا إعدامك لاعتقادنا بأن من العدل أن نقوم بذلك، فهل ستقوم أنت ببذل أقصى ما لديك من جهد لتدمير بلادك وقوانينها رداً على فعلنا ذلك؟ وهل ستزعم وأنت المتعبد الصادق للصلاح، بأن لك ما يبرر فعلتك تلك؟ وهل من الحكمة ما يجعلك تنسى أن بلادك، إذا ما قورنت بأبيك وأمك وبقية أسلافك، لهي أثمن منهم بكثير وأعمق منهم احتراماً وأسمى منهم قداسة؟ ألا تدرك أن واجبك يقضي عليك باحترام وتهدئة غضب بلادك، أكثر من احترامك لغضب أبيك وتهدئته. إن العنف إثم إزاء والديك، غير أنه يكون إثماً أبلغ وأفدح إذا اقترفته ضد بلادك!».

اخرجوا... زوجتي

وعادت البعثة المقدسة من دلبوس، وفي صبيحة اليوم التالي توافد تلامذة سقراط إلى السجن، وبينهم فيدون وإيبيجين وأبولودور وكريتون وكريتوبول وهيرموجين وكتيبس ومينيكسين وسيمياس وإقليدس. وتخلف أفلاطون عن المجيء لمرضه وقيل إنه غادر أثينا لئلا يتعرض لمصير مماثل. ولما أحاطوا به فك السجان قيود الفيلسوف، وجاءت زوجته كزانتيب وهي تنتحب، فرجاهم إخراجها من الزنزانة لأنه لا يستطيع تحمل صراخها، ثم اتجه إليهم يحاورهم عن الفن والموسيقى والموت والنفس، وحين لاحظ الجلاد أن انفعاله يتعاظم أثناء المناقشة، دنا منه قائلاً:

- لا تتحرك كثيراً وإلا فإن السم لن يؤثر فيك سريعاً..

فبدا عليه الامتعاض وقال له:

- ما عليك إذن إلا أن تضاعف الكمية!

وعاد إلى مناقشته الحارة. وكان الحاضرون يحدقون به في دهش وإعجاب. وقد بدا التناقض صارخاً بين القلق واليأس المسيطرين عليهم والهدوء التام الذي بدا عليه. ولما انتهى الجدل بين المعلم وتلامذته دخل إلى الحمام ليغتسل وهو يقول:

- أريد أن أجنب النساء غسل جثة!

وحين خرج من الحمام قدم إليه الجلاد كأس السم قائلاً:

ـ إني أعلم أن الأمر معك لن يكون كما هو مع الآخرين. فهؤلاء يغضبون عليّ ويلعنونني حين أقدم السم لهم، أما أنت، وأنت الأكثر حكمة بيننا، فسوف تعرف كيف تتقبل ما لا بد منه!

فأجاب سقراط:

ـ حييت يا هذا.. ماذا يجب أن أفعل؟

ـ لا شيء سوى أن تقوم ببضع خطوات بعد شرب السم، حتى تشعر بثقل في ساقيك، وعليك حينئذ أن تستلقي حتى يفعل السم فعله.

وأخذ سقراط الكأس وشرب كل ما فيها. فارتفع صراخ الحاضرين ونحيبهم، فغضب ورجاهم أن يكفوا عن ذلك، وذكرهم بأنه إنما أبعد زوجته كي لا يسمع نحيبها، ولما شعر بثقل في ساقيه استلقى على ظهره. فدنا منه الجلاد وضغط على قدميه وسأله:

ـ هل تحس شيئاً؟

ـ كلا...

ففحص الجلاد ساقيه ثم قال:

ـ لقد بدأت أعضاؤه تبترد، ومتى وصل البرد إلى قلبه مات.

ونادى سقراط صديقه كريتون وهمس في أذنه:

ـ نحن مدينون بديك لاسكولاب، فقدمه له بلا نقاش!

فقال كريتون:

ـ سأفعل ذلك، هل تريد شيئاً آخر؟

فلم يجب سقراط، واختلج اختلاجة، لفظ معها نفسه الأخير، فأغلق له كريتون عينيه وفمه. وأخذ يفكر في كلماته الأخيرة، فما معنى تقديم هذه الذبيحة لإله الطب، هل كان معناها أن الموت هو الشفاء من هذا المرض الذي يسمونه الحياة؟!

محاكمة جان كالاس

أعدموه على الدولاب بتهمة قتل ولده

في فجر الرابع عشر من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٧٦١، كان يسير في شوارع تولوز الضيقة التي لا تزال غارقة في نومها، أربعون من الحرس المسلح بقيادة دافيد بودريك، وهم يسوقون إلى السجن خمسة متهمين ألقوا القبض عليهم: جان كالاس البالغ من العمر ثلاثة وسبعين عاماً، وزوجته آن روز، وابنه بيير، بالإضافة إلى جانيت فيفيه خادمة الأسرة وفرنسوا ألكسندر لافايس وهو شاب في العشرين من عمره. وقبل إلقاء القبض على هؤلاء المتهمين بعدة ساعات، وجد مارك أنطوان الابن البكر لأسرة كالاس الذي يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً مقتولاً خنقاً في حانوت والده بائع الجوخ في شارع فيليتيه.

في الساعة السابعة من ذلك المساء (١٣ تشرين الأول/اكتوبر) أقفل جان كالاس حانوته كما يفعل كل يوم منذ أربعين عاماً واتجه إلى منزله لتناول طعام العشاء، وكانت المائدة تضم بالإضافة إلى رب الأسرة وزوجته وولديه صديقهما فرنسوا لافايس. وبعد انتهاء العشاء انتقل الجميع إلى الصالون ودخلت الخادمة جانيت إلى المطبخ، بينما غادر مارك أنطوان المنزل، وحين مر بالخادمة لاحظت شحوب وجهه واضطرابه، فسألته:

ـ هل تشعر بالبرد يا سيدي؟

فأجابها بصوت غريب اللهجة:

ـ على العكس. . . إني أحترق!

وفي الساعة التاسعة والنصف غادر الضيف فرنسوا المنزل، ورافقه بيير وهو يحمل مشعلاً، فهبطا السلم واجتاز الرواق الذي يحاذي الحانوت ويفضي إلى الشارع، فلاحظا أن باب المتجر مفتوح، فدخل بيير كالاس إليه ليتحرى الأمر، ثم عاد صارخاً:

ـ النجدة. . إن مارك أنطوان ميت!

فهرع جان كالاس إلى الحانوت بثياب النوم، وسمع سكان الحي لغطاً هناك، وبعد قليل فتحت الخادمة النافذة وهي تصرخ:

ـ يا إلهي. . لقد قتلوه!

وحين وصل بعض سكان الحي إلى المكان، شاهدوا مارك أنطوان ممدداً ورأسه مستنداً على رزمة من الجوخ، وأباه متهالكاً على منضدة هناك، وكان بينهم طالب في معهد الطب فحص الشاب وتبين له أنه فاقد الحياة، ولكنه لاحظ بقعاً سوداء حول رقبته، مما يؤكد أنه مات شنقاً أو خنقاً.

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف، جاء دافيد بودريك وهو قاض مكلف بالشؤون الإدارية والقضائية في تولوز، إلى شارع فيلوتيه مصحوباً بأربعين جندياً لتفرقة الجمهور المحتشد حول الحانوت وهو يهتف: «لقد قتلوه. . . الموت للهوغنوت!»

والواقع أن أسرة كالاس كانت بروتستانتية من شيعة الهوغنوت. وكان جان كالاس المولود سنة ١٦٩٨، يملك معملاً للنسيج، ويتمتع بسمعة جيدة وعلاقات طيبة يدين بمعظمها لزوجته آن روز التي تتحدر من أسرة أرفع شأناً من أسرته، وعلى الرغم من أنه بروتستانتي فقد كان شديد التسامح مع الكاثوليك، وليس أدل على ذلك من أن خادمته جانيت فيفيه التي تعمل عنده منذ خمسة وعشرين عاماً كاثوليكية و«متشددة» كما قالت هي عن نفسها.

وكانت لمارك أنطوان ابن الأسرة البكر، ميول أدبية وخطابية، فلما أحرز شهادة

البكالوريا سنة ١٧٥٩، أراد الالتحاق بالجامعة لدراسةالحقوق، ولكن عمدة الجامعة رفضت طلبه لكونه بروتستانتياً، واكتأب الشاب أو ازدادت كآبته، لأنه كان دائماً سوداوياً ميالاً إلى الحزن. وكان الجميع يعلمون أنه حرم من متابعة دراسته لأنه لا يدين بالكاثوليكية. ومن هنا كانت تلك الصرخات العدائية التي وجهت إلى أسرته، فقد قام في الأذهان أن الشاب أراد اعتناق المذهب الكاثوليكي، فعمدت أسرته إلى قتله، وآثر جان كالاس خنق ولده على رؤيته كاثوليكياً.

وقد تأثر دافيد بودريك بهذه الشائعة، وعمد إلى اعتقال أفراد الأسرة جميعاً، ولم يكن هذا الاعتقال قانونياً، إذ لم يكن القانون ليسمح بتوقيف أحد دون مذكرة من النيابة العامة، إلا في حالات استثنائية ليست قضية كالاس في عدادها.

ولم تكن تبدو على جثة مارك أنطوان آثار مقاومة أو اشتباكه في معركة، كما أن ثيابه كانت في حالة طبيعية، فهل يعقل أن يخنق شاب في الثامنة والعشرين من عمره دون أي مقاومة؟!

ولكن دافيد بودريك شعر منذ اللحظة الأولى بأن هذه القضية قد ترفع من مكانته، فأمر جنوده بتفتيش الحانوت والمنزل، وقال:
- إني أتحمل مسؤولية كل شيء... إن القضية دينية..

العودة عن الإفادة

وقد أعادت هذه الكلمات الى الأذهان ذكرى مآس ومذابح كاد المواطنون أن ينسوها.

وفي الاستجواب الأول الذي قام به طرح هذا السؤال على المتهمين الخمسة في آن واحد: «هل كانت لدى مارك أنطوان رغبة في اعتناق الكاثوليكية؟»، وأجابوا جميعاً بالنفي بمن فيهم الخادمة جانيت فيفيه.

وروى جان كالاس أن ابنه بيير نزل لمرافقة ضيف الأسرة، وبعد قليل تعالى صوته مستنجداً، فنزل الى الحانوت وشاهد مارك أنطوان صريعاً على الأرض.

وقال فرنسوا ألكسندر لافايس أن بيير كالاس دخل إلى الحانوت حين رأى بابه مفتوحاً، ثم غادره حالاً وهو يصرخ: «إن أخي ميت على الأرض».

وأيد كل من بيير وآن روز وجانيت فيفيه هاتين الإفادتين، وذهب جميع أعضاء الأسرة إلى أن الشاب قضى على يد غريب أو غرباء من المتسكعين في جوف الليل. وسجل دافيد بودريك أقوالهم كلها بكثير من الشك، فقد كان باب الحانوت ونوافذه مغلقة، وشارع فيليتيه لا يخلو من المارة حتى أثناء الليل، فكيف دخل القتلة إلى حانوت كالاس؟ إن ذلك يستحيل إلا عن طريق العنف، وفي هذه الحالة لا بد من أن يشاهد المارة المعتدين. كلا... هذا مستحيل... إنهم يكذبون جميعاً... إن الجريمة ارتكبت من داخل المنزل!

وفي اليوم التالي عاد جان كالاس عن إفادته السابقة، قائلاً إن ابنه قد انتحر، وروى أن بيير ناداه باكياً وقال له: «إن أخي مخنوق ومعلق بالحبل».ولما دخل إلى الحانوت رأى مارك أنطوان مشنوقاً بحبل معلق بعصا موضوعة فوق مصراعي الباب المفتوح، فاحتضن ولده من وسطه بينما كان بيير يقطع الحبل، ولكنه كان قد مات، وبرر عدم تصريحه بأمر الانتحار من قبل بأنه أراد إنقاذ سمعة الأسرة.

وأكد بيير كالاس الرواية الجديدة قائلاً:

ـ شاهدت أخي معلقاً بالحبل المربوط بعصا موضوعة فوق مصراعي الباب، ولما أمسكت بيده وجدتها باردة فركضت في الرواق وأنا أصرخ بأعلى صوتي.

وأيّد هذه الرواية كل من مدام كالاس أم القتيل، وصديقه فرنسوا الكسندر لافايس وجانيت فيفيه، وشعر القائد بودريك بالرضى، فقد كان مقتنعاً منذ البدء بمسؤولية عائلة كالاس عن الجريمة، أما الآن فقد غدا يملك البرهان، وهذا البرهان هو كذبهم، وهل يكذب الأبرياء؟ لقد تبين له أن روايتهم الأولى التي زعمت أن الشاب تعرض للاغتيال، هي رواية متهافتة يصعب تصديقها، فعمدوا إلى ابتكار الرواية الثانية، رواية الانتحار.

إن التحول في موقف أسرة كالاس سيكون له ثقله الضاغط على مجمل هذه القضية. ومع ذلك فإن له ما يفسره. ففي تلك السنة (١٧٦١) كان الانتحار يعتبر

لاعتبارات دينية قتلاً للذات، أي جريمة ضد إنسان، وإن كان القتيل هو نفسه القاتل. وكان إذا عثر على جثة مشتبه بأنها جثة منتحر، أحيلت الى القضاء لمحاكمتها، فإذا صدر الحكم ضدها، وضعت على لوح من الخشب ووجهها إلى الأرض، وسحلت في شوارع المدينة، والناس من ورائها يرجمونها ويبصقون عليها، ثم تعلق على المشنقة، وتصادر أرزاق صاحبها.

وفي هذه الظروف يمكن أن نفهم لماذا حاولت عائلة كالاس في بادىء الأمر إخفاء أمر انتحار مارك أنطوان، ثم رجعت عن موقفها، ولكن كذبتها الأولى ستكلفها كثيراً.

في ١٦ تشرين الأول ١٧٦١ ذهب دافيد إلى حانوت كالاس الذي ترك دون مراقبة منذ يوم الحادث، فاكتشف خلف منصة المخزن حبلاً فيه عقدتان، وعصا غليظة طولها خمسة وسبعون سنتيمتراً مسطحة من أحد جوانبها كان يستعان بها لشد الحبال حول رزم الجوخ، واستنتج لو أن العصا وضعت على مصراعي الباب لانزلقت فيما إذا تحرك المنتحر، وقرر أن مارك أنطوان إذا كان قد انتحر فلا بد له من كرسي يصعد عليه، ولم يجد القائد كرسياً في الحانوت، ولم يتساءل عما إذا كان هناك من عبث بالمحل واستولى على الكرسي خلال اليومين السابقين. وانتهى دافيد بودريك إلى استبعاد قصة الانتحار نهائياً.

وكان بعض الشهود مندفعين بالتعصب الديني أو بالأمل في الحصول على مكافأة، مثل جان بيريس خادم في محل لصنع الشعر المستعار، الذي أكد بأنه شاهد من خلال شقوق درفات النوافذ جان كالاس وهو يخنق ابنه مارك أنطوان بيديه، في حين شهد فرنسوا شاليه وهو جار عائلة كالاس، بأن مارك أنطوان كان بروتستانتياً متمسكاً بمذهبه وكان يفكر أحياناً بالذهاب إلى جنيف ليغدو أسقفاً، وكان هو الذي يتلو على أفراد العائلة صلاتي الصباح والمساء.

وعمد بودريك إلى طريقة قضائية موروثة من القرون الوسطى وكان لا يزال معمولاً بها في القرن الثامن عشر في فرنسا، فوزع على جميع الكنائس بياناً لتلاوته

على المصلين طوال ثلاثة أسابيع، وقد جاء في هذا البيان أن مارك أنطوان كالاس كان يود التخلي عن مذهبه البروتستانتي واعتناق الكاثوليكية، فعلى كل من لديه معلومات بهذا الصدد أن يبلغ السلطة بها. ولما لم يسفر ذلك عن أي نتيجة، طلب إذاعة البيان نفسه مع التهديد بالحرم من الكنيسة، فتدفق إثر ذلك على بودريك عشرات الأشخاص الذين شهدوا بأن مارك أنطوان كان يرغب في اعتناق المذهب الكاثوليكي، مما أثار عليه حقد أفراد عائلته، بينما كانت الخادمة جانيت فيفيه الكاثوليكية المتشددة تؤكد باستمرار أن الشاب لم يفكر إطلاقاً في التخلي عن مذهبه ليتخذ الكاثوليكية مذهباً له.

ولجأ بودريك أخيراً إلى ضربة صاعقة، يسبق فيها القضاء ويضعه أمام أمر واقع، فأمر بأن يقام لمارك أنطوان كالاس مأتم كاثوليكي، وكان معنى ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية قد اتضح لها بأن الحادث لم يكن انتحاراً، وبأن الضحية كانت تعتنق مذهبها. وفي السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) اشترك أربعون كاهناً في نقل الجثمان من الكابيتول إلى كنيسة سان جاك، وقد اشتركت في هذا الاحتفال جميع سلطات البلدة وجماهيرها الغفيرة.

في العاشر من تشرين الثاني طلب النائب العام «ريكه دو بونربو» من محكمة الجنايات في تولوز، محاكمة المتهمين والحكم بإعدامهم شنقاً ثم بحرق جثثهم باستثناء فرنسوا ألكسندر لافايس الذي طلب الحكم عليه بالسجن المؤبد، وجانيت فيفيه التي طلب الحكم عليها بالسجن مدة خمس سنوات.

وبدأت المحاكمة في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٦١ وانتهت في ٩ آذار (مارس) سنة ١٧٥٢ بأن قررت المحكمة إعدام جان كالاس على الدولاب ثم إحراق جثته في ساحة المدينة، على أن يعاني قبل ذلك التعذيب العادي وغير العادي. وفي ١٠ آذار (مارس) ذهب دافيد بودريك الى قاعة التعذيب وطلب من جان أن يعترف بجريمته ليتجنب التعذيب الذي سيتعرض له، فقال إنه بريء ولم يرتكب أي جريمة، فأحيل إلى التعذيب العادي ولكنه أصر على براءته، فجاء حينئذ دور التعذيب غير العادي ولكنه لم يؤد الى أي نتيجة لأن الأب المعذب أصرّ على براءته من قتل ولده، ولم يتخل لحظة واحدة عن هدوئه وكرامته.

وحينئذ نقل المحكوم إلى كنيسة سان ايتان ليركع أمام عتبتها ويستغفر الله عن ذنبه، ثم سيق إلى ساحة سان جورج يحيط به جمهور من الكاثوليك المتعصبين يشتمونه ويبصقون عليه، بينما غيرهم يرجمونه من الأرصفة والنوافذ، وفي الساحة العامة التي احتشد فيها جمهور كبير جاء للاستمتاع بانتصار العدالة. سأله بودريك للمرة الأخيرة إن كان يصر على إفادته السابقة، فأكد براءته وبراءة عائلته من التهمة التي ألصقت بهم، فدفعه باحتقار إلى الجلاد الذي علقه على صليب وحطم أطرافه بإحدى عشرة ضربة بقضيب من الحديد، فأرسل إثر الضربة الأولى صرخة مروعة، ثم لم يصدر عنه سوى أنين مخنوق.

وحمل الجلاد الجسد الذي تحول الى كومة من الأشلاء الدامية المعذبة، ووضعه على الدولاب، ثم دنا منه الأب بورج، وطلب منه الاعتراف بجرمه والتخلي عن الهرطقة وإعلان إيمانه بالكاثوليكية إنقاذاً لروحه، فتمتم بصوت ضعيف:

ـ لقد قلت الحقيقة، هل تعتقد بأن امرءاً يستطيع قتل ابنه. إني أموت بريئاً. ولست آسف على شيء في حياتي التي أعتقد بأن نهايتها ستقودني إلى السعادة الأبدية. وأنا أرثي لزوجتي وولدي ولهذا الغريب السيد لافايس الذي أقحم في كل هذا، انه يضاعف ألمي وحزني.

قضى جان كالاس ساعتين على دولاب العذاب دون أن يموت، فدنا منه دافيد بودريك وقال له للمرة الأخيرة:

ـ هل قتلت ابنك؟

فلم يجب وأدار وجهه إلى الجهة الأخرى، فأشار بودريك إلى الجلاد، فدنا منه وخنقه بقبضتيه، ثم حمله وألقى به في المحرقة. وبدأ الجمهور يغادر الساحة سعيداً منتشياً. .

لقد كسب جان كالاس المعركة الوحيدة التي تهمه، فلم يضعف وينهار وفي أقسى لحظات العذاب كان يؤكد براءته، وقد أنقذ ذلك أفراد عائلته فحكم بعد ثمانية أيام، على ابنه بيير بالسجن المؤبد، وأطلق سراح الأم والخادمة والصديق

لافايس.

ولكن قضية كالاس لم تنته. فثمة تاجر من مرسيليا يدعى أوديبير شهد المحاكمة والتعذيب، واقتنع بأن الأمر ليس مجرد خطأ من أخطاء القضاء، وإنما هو جريمة شيطانية أوحى بها التعصب الشنيع، وكان على أوديبير أن يسافر إلى جنيف، فعرج على قرية فيربي على مقربة من الحدود السويسرية، حيث اجتمع بصديق له وقص عليه ما شاهده وسمعه، وكان هذا الصديق يدعى فولتير.

كان فولتير يصغي إليه باهتمام، ويقاطعه بين حين وآخر لتوضيح إحدى النقاط، ولما غادر التاجر مقر الفيلسوف كان هذا يميل إلى الاعتقاد بأن عائلة كالاس قد تعرضت للظلم، ولكنه لم يكن من ذلك على يقين. وظل أياماً عدة وهو يفكر في هذا الأمر، ثم علم أن لأسرة كالاس ولداً ثالثاً يدعى دونات كان أثناء الحادثة متغيباً عن تولوز، فاستدعاه إلى فيربي وتحدث معه طويلاً عن نشأته وعائلته وذكرياته عن أبويه وأخويه. وخرج من هذا الحديث الطويل وهومؤمن ببراءة العائلة، وبأن ظلماً رهيباً قد حل بها.

وما كاد الفيلسوف الفرنسي يصل إلى هذا الاعتقاد، حتى ألقى في المعركة بكل قواه، فألف مجلساً قضائياً صغيراً للاستعانة بآرائه، واستدعى إليه المحامين الذين تولوا الدفاع عن كالاس، وأخذ يجمع الشهود والوثائق، وعثر بين هذه الوثائق على رسالة كتبها مارك أنطوان قبل موته بأيام قليلة يتحدث فيها عن شقيق رابع يدعى لويس كان قد اعتنق الكاثوليكية، فيلومه ويصفه بالخيانة، مما يؤكد أن الشاب لم يكن في نيته الاقتداء بشقيقه على الإطلاق.

وأثار فولتير القضية على كل صعيد، وطعن في المخالفات القضائية المتعددة، فالاعتقال تم دون مذكرة توقيف، والمحضر نظم في اليوم التالي في قصر العدل وكان يجب أن ينظم في اليوم نفسه وفي مكان الحادث، ونقل الجثة إلى مقابر الكاثوليك وإقامة مأتم لها في كنيسة كاثوليكية حدثا قبل أن يؤكد القضاء أن الشاب لم يمت منتحراً. واستناداً إلى هذه المخالفات لأصول المحاكمات الجنائية تقدم فولتير إلى المجلس الخاص للملك بطلب الأمر بإعادة المحاكمة.

وإلى جانب مساعيه القضائية، قرر فولتير أن يجعل من هذه القضية رمزاً لما عمل له طول حياته، وهو النضال ضد التعصب والدعوى إلى التسامح، فكتب إلى جميع الملوك والأمراء والكتاب والعلماء في أوروبا، يدعوهم إلى مناصرته في رفع الظلم عن عائلة جنى عليها التعصب، ومساعدته على إعادة الاعتبار لذلك البروتستانتي المغمور من جبناء تولوز، الذي هزّ مصيره جميع الضمائر في العالم، ووجه إلى ديدرو وأعضاء الانسكلوبيديا الفرنسية الرسالة الآتية:

«أصدقائي الأعزاء... لقد تأكد لي أن قضاة تولوز قد حكموا بالموت على الدولاب أكثر الناس براءة. إن كل ذي ضمير يرتجف لهول ما حدث. والدول الأجنبية التي تبغضنا وتحاربنا، هي نفسها تولاها السخط. أبداً لم يتعرض النوع البشري إلى مثل هذه الإهانة، منذ مذبحة سان بارتيليمي اصترخوا، وليصرخ الجميع!...»

وقد وجدت صرخة فولتير سبيلها إلى الآذان والضمائر.

في الرابع من حزيران (يونيو) سنة ١٧٦٤ نقض المجلس الخاص للملك حكم محكمة تولوز في قضية كالاس، وبدأ النظر في القضية من جديد.

وفي ٩ آذار (مارس) سنة ١٧٦٥، أي بعد ثلاث سنوات تماماً، أصدرت المحكمة العليا قراراً بتبرئة جميع المتهمين في قضية كالاس، وإعادة الاعتبار لجان كالاس الذي حكم بالموت على الدولاب ظلماً. وأمر الملك بأن يدفع لأرملة كالاس ثلاثون ألف فرنك تعويضاً لها ولأسرتها عن الظلم الذي حل بها.

جريمة قتل عادية أم غضب وطني ؟

قاتل الزعيم الاشتراكي جوريس يقول:
قتلته لأنه رفض أن ندخل الحرب!

في ٢٤ آذار (مارس) سنة ١٩١٩، كان رجال الشرطة المسلحون يحيطون بقصر العدل في باريس، وقد أغلقت الأبواب والنوافذ، واتخذت جميع الاحتياطات لمواجهة كل طارىء، فالاشتراكيون قد توافدوا من جميع الأنحاء الى قلب باريس للإعراب عن تقديرهم لزعيمهم الراحل جان جوريس، ولمشاهدة قاتله راوول فيلان الذي أطلق عليه النار في ٣١ تموز (يوليو) سنة ١٩١٤ في مقهى الهلال (كافيه دو كرواسان) فأرداه قتيلاً.

لقد وقعت تلك الجريمة قبيل الحرب العالمية الأولى وفي سبيل هذه الحرب، ولكن المحاكمة أرجئت منذ ذلك الحين، حرصاً على الوحدة الوطنية أثناء الحرب، ولئلا ينقسم نصف فرنسا ضد نصفها الآخر، بينما الألمان يحاربون النصفين، والأمة في أشد الحاجة إلى وحدتها وتضامنها. أما الآن وقد انتهت الحرب، وسرح الجند المقاتلون، وأضحت البلاد على أبواب انتخابات تشريعية جديدة، فإن حكومة جورج كليمنصو عدو جان جوريس الأشد صرامة، لم يعد في وسعها الاستمرار في تأجيل المحاكمة، فأخرج القاتل من السجن الذي أودع فيه طوال أربع سنوات، وسيق الى قصر العدل لاستجوابه ومحاكمته ومعرفة الجهة التي حرضته على الجريمة النكراء، وهو سؤال محير شاعت حوله أجوبة غامضة يكاد بعضها يكون خيالياً أو

طفولياً، فقيل إن المحرض هو اليمين المتطرف، وقيل إن حركة «العمل الفرنسي» (لاكسيون فرانسيز) التي كانت تشتم جوريس في صحفها كل يوم، وقيل إنه شرطة القيصر الروسي، وقيل إنه ألمانيا نفسها التي اعتقدت بأن مقتل جوريس سيؤدي الى إشعال حرب أهلية في فرنسا تغرقها في الفوضى وتشل مقاومتها في الحرب التي كانت تقرع أبوابها، وهذا ما فعلته في روسيا بعد عامين حيث شجعت لينين على العودة إليها من أوروبا ووضعت تحت تصرفه قطاراً مصفحاً أوصله إليها.

كان كليمنصو الذي حكم البلاد بيد حديدية منذ سنة ١٩١٧ وقادها إلى النصر في الحرب العالمية الضارية، قد أمر بتشديد الحراسة حول قصر العدل والحفاظ على النظام بأي ثمن، ولكن كان يبدو أن الاحتياطات التي اتخذت كان مبالغاً فيها، فإن عيون النساء والرجال الذين أقبلوا لحضور المحاكمة وأحاطوا بقصر العدل لتتسقط أنباءها لم تكن مشتعلة بالحقد والغضب، بعد مرور تلك السنوات الأربع على وقوع الجريمة، بقدر ما كانت تفيض بالحزن والفضول، كانت تريد أن ترى وأن تعرف وتعتقد بأن ذلك حقاً من حقوقها.

ولكن هذا الحق اقتصر في ذلك اليوم الأول من ايام المحاكمة على رجال الصحافة، ولما أدخل راوول فيلان الى قفص المتهمين، لم يتمالك الصحافيون أنفسهم عن الدهشة والاستغراب: أهذا هو قاتل جوريس؟ أهذا الشاب الهزيل الشاحب الوجه ذو الشعر الأشقر والشارب الصغير هو الذي قتل بطلقتين من مسدسه أحد كبار المفكرين في عصره.

قتلته لأنه خائن

ويبدأ الرئيس بوكار باستجواب القاتل، فيتبين أنه نشأ في أسرة قلقة، إذ كان أبوه كاتب المحكمة في نيس أنانياً وزير نساء، وكانت أمه وجدته تعانيان نوبات عصبية وقد أدخلت أمه الى مستشفى الأمراض العقلية وهو صغير السن، وكان أخوه الأكبر منه منصرفاً عنه إلى دروسه وشؤونه الشخصية، فكان يعاني الوحدة والوحشة، كما كان متديناً ولم يقم أي علاقة جنسية مع امرأة، فهو كاثوليكي متمسك بعقيدته يؤمن بالحب الطاهر، ويحمل لجان دارك تقديراً كبيراً، وعندما انتسب إلى الحركة

الاجتماعية المسيحية التي يتزعمها مارك سانغنيه، وجد في مارك الأخ الذي افتقده وفي زوجته الأم التي طالما تشوق إلى حنانها، ولما أدان البابا الحركة الاجتماعية المسيحية انفصل راوول عنها وانضم إلى عصبة أصدقاء الألزاس واللورين التي كان أعضاء الشرف فيها موريس باريس وبول ديروليد وجول سيغفريد.

واعترض الشاب الذي كان أثناء إقدامه على الجريمة لا يزال طالباً في «الإيكول دو لوفر» على ملاحظة لرئيس المحكمة، فقال:

ـ لا يا حضرة الرئيس. لم أكن أقوم على الإطلاق بعمل سياسي. أنا أكره العمل السياسي، كل ما كنا نتمناه أنا وأصدقائي في العصبة أن تقع الحرب في أقرب وقت كي نستطيع استعادة الألزاس واللورين من ألمانيا.

ـ ومع ذلك فقد كنت تقرأ الصحف، وكنت تعلم أن الميل إلى الحرب أو إلى رفضها هو عمل سياسي.

ـ لا ياسيدي، إن الوطن وحده هو الذي كان يهمني. وكنت أعتقد بأن جميع الفرنسيين كان لهم الموقف نفسه. وعندما اكتشفت في إحدى الصحف أن السيد جوريس كان يقاوم الحرب تولاني الغضب. بالنسبة لي لم يكن في وسع أحد أن يتصرف بهذا الشكل إلا إذا كان خائناً فقررت قتله.

هل كانت القضية بسيطة إلى هذا الحد؟ إذن لم يكن في مصرع جوريس أي مؤامرة، وكان قاتله مجرد شاب ساذج تصرف تلقائياً بدافع وطني محض. ولا بد هنا من أن نوضح لماذا كان جوريس يعارض الحرب، فقد كانت الاشتراكية الدولية يومذاك، تعتقد بأن من واجب العمال في كل بلد إعلان الحرب على حكوماتهم الرأسمالية بدلاً من الانخراط في جيوشها لمحاربة الدول المعادية لها، وقد سقطت هذه المقولة أثناء الحرب العالمية الأولى، وتبين أن الشعور الوطني والقومي لدى عمال أوروبا أقوى من الشعور الطبقي والأممي، وأدى سقوطها الى خروج لينين وأنصاره من الأممية الثانية وإنشاء الأممية الثالثة سنة ١٩١٩ لتضم الشيوعيين وحدهم.

ولكن رئيس المحكمة لم يكتف بهذه النتيجة، فاستدعى الشهود لاستعادة ما حدث

في تلك الليلة الرهيبة، في شارع «كرواسان» حيث تطبع جريدة «الاومانيته» وفي المقهى القريب منها حيث كان جوريس يتناول طعام العشاء، وكان الألم بادياً على الزعيم الاشتراكي، بعدما تبين له أن الحرب واقعة حتماً، فكان يروح ويجيء قلقاً حول المائدة، ثم تزاح ستائر النافذة المطلة على الشارع، ويمتد من ورائها مسدس، وتطلق من المسدس رصاصتان، ويرتفع الصراخ: «لقد قتلوا جوريس.. قتلوا جوريس... ويتدافع الناس، ويقبض على راوول فيلان وهو لا يزال واقفاً على الرصيف وحيداً مشدوهاً ويده تقبض على المسدس!

تحول الرئيس إلى القاتل وسأله:

ـ هل تريد أن تضيف شيئاً آخر يا فيلان؟

ـ نعم يا سيدي الرئيس: إني رجل متدين ومع ذلك فإن ضميري كان مرتاحاً تماماً في اللحظة التي أطلقت النار فيها.

ـ إذن فقد فعلت ذلك في لحظة من لحظات الغضب الوطني؟

ـ هذا ما حدث بالضبط يا سيدي الرئيس.

وتتابع على الشهادة في اليوم التالي سبعة عشر شخصاً من أصدقاء جوريس ومؤيديه استدعاهم محامي جوريس، فتحدثوا عن مناقب الزعيم الراحل، وأطروا سياسته وبلاغته الخطابية، وخدماته للطبقة العاملة، ولكن أحداً منهم لم يتعرض لراوول فيلان، فكأنها كانت حفلة تأبين لجان جوريس متأخرة خمسة أعوام.

ولم يكن المحلفون لتؤثر فيهم هذه الأقوال، إذ كانوا يريدون مناقشة الأمر بموضوعية، وكانت الأسئلة التي تدور في رؤوسهم ويريدون الوصول الى أجوبتها من وقائع للمحاكمة، هي هل كان فيلان قاتلاً أم لا. وهل أقدم على عمله عن سابق تصور وتصميم، وهل هو جزء من مؤامرة كبرى، وهل له شركاء أو محرضون؟ أما جوريس والعقيدة التي كان يؤمن بها والمكانة التي كانت له، فلم يعد لذلك كله أي تأثير في مجرى المحاكمة، حزبه الاشتراكي قد تخلى عن الموقف الذي مات من أجله، وأسهم في «الاتحاد المقدس» ضد الألمان، واشترك في الحكومة التي أدارت الحرب، ولعله بات على جوريس نفسه أن

يشبه الحزب الاشتراكي الجديد فيكون أكثر وطنية وقومية مما كان عليه!

لم يذكر أحد قوله قبل ساعات من موته لسكرتير الدولة أبيل فيّري: «إذا دعوتم إلى التعبئة العامة فإننا سنستمر في معارضة الحرب، حتى ولو تعرضنا للإعدام!». فإن ذلك أصبح من كلماته المنسية، وغدا من الأفضل التحدث عما كان سيفعله الزعيم الاشتراكي أثناء الحرب الضارية، لو لم يقتل، والتأكيد على أنه كان سيتخلى عن آرائه القديمة ويثبت ارتباطه الوثيق بالأمة هو الذي عاش حياته مناضلاً من أجل الأممية. ووصل غاستون توماس وهو جمهوري من الوسط اليساري، إلى حد تشبيه جوريس في شهادته بغامبيتا الوطني المتطرف في وطنيته والمتعصب لها، وإلى أنه كان يؤمن بأن الوطن فوق جميع الأحزاب، واختلافات الرأي، والصراع الطبقي، أما النائب أتورنيل دو كونستان فقال: «إن جوريس كان الوطنية مجسدة في رجل، ولكن الناس لم يفهموه». وزاد الجنرال أدلوف مسيمي وزير الحرب السابق على ذلك قوله: «لو عاش جوريس لكان من أشد المتحمسين لحربنا مع الألمان، ولشارك فيها بآرائه الستراتيجية البارعة»!

وارتفع اللغط بين الجمهور الذي سمح له بحضور المحاكمة ابتداء من يومها الثاني، لأن هذا الجمهور كان لديه صورة أخرى عن جوريس تتناقض مع صورة القومي المتحمس، وصرخ جورج بيوش محرر جريدة «رجال اليوم» (ليزوم دو جور) ساخراً: «يبدو أن راوول فيلان لم يقتل جوريس بل قتل جنرالاً من جنرالات الحرب»، أما فالان فقال لمن حوله:

ـ ما هذه المسخرة.. لماذا يصنعون من جوريس «كارت بوستال» وطني.. إنهم يقتلونه أدبياً!

والواقع أن هذه الشهادات كانت تعكس الخلافات التي بدأت تمزق الحزب الاشتراكي منذ شهرين، وقد بدأ الجناح اليميني والجناح اليساري يتنازعان على جثة جوريس، فالفريق الأول يصوره وطنياً مرتبطاً بالأمة والقومية، والفريق الثاني يشبهه بلينين الذي كان قد استولى على الحكم في روسيا ودعا أنصار عقيدته الأممية إلى الانفصال عن الاشتراكية الدولية والانتساب إلى الأممية الثالثة (الكومنترن). وقد انتهى

هذ الخلاف فيما بعد بخروج الاشتراكيين المتطرفين من الحزب وتأليفهم الحزب الشيوعي الفرنسي إثر مؤتمر مدينة تور سنة ١٩٢٠، وأصبحت جريدة «الاومانيتيه» (الإنسانية) التي أسسها جان جوريس سنة ١٩٠٤ الجريدة الرسمية للحزب الشيوعي.

شهادة ليون بلوم

ولما جاء دون ليون بلوم للشهادة، لم يتحدث عن السياسة ولا عن الوطنية، ولم يتحدث حتى عن الجريمة، ولكنه تحدث بصوته النابض وحركته الوقور، عن الأدب، فقال إن جوريس يضارع فيكتور هوغو كشاعر، وميرابو وبوسويه كخطيب، وميشله كمؤرخ وروسو ككاتب سياسي.

وكان النائب بيير رينوديل أكثر وضوحاً في تحديد موقف الحزب الاشتراكي الجديد، إذ قال:

ـ سأتحدث بلا حقد ولا خوف، لأن الرجل الذي هنا (وأشار إلى راوول فيلان) لا يهمنا، وإنما الذي يهمنا هو الدفاع عن ذكرى جوريس ضد الافتراءات التي أدت إلى مصرعه والتي لم تنطفىء بعد.

وانتهت بذلك أقوال شهود الادعاء وبدأ في ٢٦ آذار (مارس) سماع شهود الدفاع. وكانت ترمي إلى تبرير الجريمة. وكان نقيب المحامين هنري روبير قد عهد بالدفاع عن المتهم إلى النائب الاشتراكي السابق ألكسندر زيفاييس قائلاً له: «إن ماضيك الاشتراكي يسمح لك بالدفاع عن موكلك دون أن تشوه ذكرى جوريس». أما عائلة فيلان فقد أوكلت هنري جيرو للدفاع عن ابنها. وكان هذان المحاميان يكمل أحدهما الآخر بصورة أقلقت محاميي الادعاء بول بونكور ودوكو دو لاهاي.

وكان أول أولئك الشهود الرسام أنكوتان وهو صديق لفيلان فوصفه بقوله:

ـ كان وديعاً محباً للفن، ولكنه يوحي بالقلق والاضطراب.

أما بينديت أستاذ فيلان في «مدرسة اللوفر» فقال عنه:

ـ إنه شاب نظامي، خجول، لا يحب الظهور، ولكن يبدو عليه شيء من الاضطراب.

وقال الأب شارل الأستاذ في «كوليج ستانيلاس» حيث كان فيلان يعمل ناظراً:

ـ كان يبدو وكأنه مسكون بسر رهيب.

فهتف بول بونكور من مقاعد الادعاء:

ـ أرجوكم أيها السادة، لا تركزوا على طباع المتهم الغريبة والمضطربة، فإن الأطباء قالوا كلمة الفصل في هذا الموضوع: فيلان ليس بمجنون.

فنهض هنري جيرو من مقاعد الدفاع وقال:

ـ لو كان فيلان مجنوناً لما كان هنا. إني لن أركز دفاعي على «الجنون» بل على «مرض الإرادة»!

ولم يتوقف بونكور عند هذا التعبير الطبي الجديد، ولكنه سأل الأب شارل هل كان المتهم يقرأ الصحف اليمينية، فأجاب بعد تردد بأنه كان يقرأ جريدة «الحرية» بانتظام. فشكر بونكور الشاهد ونبه المحلفين إلى أن هذه الجريدة كانت تحرض على جوريس وتسميه «النهر جوريس».

وقال الشاعر روجيه بولان:

ـ انا لا أفهم كيف يعامل فيلان كمجرم. إذا كان قتل جوريس فقد فعل ذلك بدافع من وطنيته، لقد صنعوا في هذه الأيام صورة لجوريس لا تتفق مع الواقع. في سنة ١٩١٤ كان جوريس يقاوم تسلح فرنسا، وكنا أكثرية المواطنين نرى فيه خطراً على الوطن.

ولاحظ جيرو أن في كلام الشاهد ما قد يوحي بالتآمر، فوجه إليه هذا السؤال:

ـ هل تعتقد يا سيد بولان بأن المتهم كان من أولئك الذين يخضعون لتأثير الآخرين؟

ـ كلا، إن فيلان رجل يتبع رأيه، ولم يكن من السهولة أن يقبل آراء الآخرين.

وجاء دور الملازم شومون كيتري الذي يعلق على صدره عدداً كبيراً من الأوسمة، وكان هذا الشاهد رئيساً لعصبة أصدقاء الألزاس واللورين التي كان المتهم من أعضائها المتحمسين، فقال بصوت جهير:

ـ إن جيلنا كان يتنبأ بوقوع الحرب ويستعد لها، وأستطيع القول بصراحة إننا كنا نكره أولئك الذين كانوا يعارضون مثل جوريس قانون تمديد الخدمة العسكرية إلى ثلاث سنوات، هذا القانون الذي عبأ تحت العلم عدداً كافياً من الرجال استطاع صد الهجوم الألماني، صحيح أن فيلان لم يستطع ضبط نفسه حين قتل جوريس، ولكنه كان يعتقد بأنه كان يخدم وطنه، وإذا أبقيتم فيلان في السجن، فإنكم تحرمون الوطن من أحد المدافعين عنه، ولولا ذلك الحادث لتصرف على ساحة المعركة تصرف الأبطال.

ولاحظ محاميا الادعاء خطأهما في نقل القضية الى الصعيد السياسي، وبدلاً من الهجوم انتقلا إلى الدفاع، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من ذكرى جوريس الذي تكاد تصوره المحاكمة بصورة الرجل الذي لا يهتم بالدفاع عن بلاده ضد الخطر الأجنبي، بل يعمل على حرمانها من أسباب هذا الدفاع، فقال بول بونكور إن جوريس عندما كان يحلم بتجنب الحرب كان يحلم بأن يشمل ذلك جميع البلدان التي تمتد إليها مبادىء الاشتراكية الأممية. ولم يكن يتخيل أن الاشتراكيين الألمان سيخونون هذا الحلم، وقد وفر مسدس فيلان عليه رؤية ذلك الحلم وهو ينهار ويتلاشى. ثم طلب من المحكمة أن تستوحي في حكمها العدالة والوحدة الوطنية.

وأضاف دوكلو دي لاهاي اللمسة الأخيرة إلى الصورة الجديدة التي رسمها الادعاء لجوريس، فذكر المحلفين بأن لويس ابن الزعيم الراحل، قد استشهد في الجبهة كما يستشهد الأبطال، ثم أخذ على المحكمة عدم توسعها في القضية مشيراً بذلك إلى شهادة ستريبر الذي قال لقاضي التحقيق إن فيلان كان ينتسب لمنظمة ملكية اقترعت على قتل جوريس. فكان راوول هو الذي وقعت عليه القرعة، وإلى نقاط أخرى لم تهتم المحكمة في جلاء غوامضها. ولكنه ختم مرافعته بقوله: «ومع ذلك يجب أن أعترف بأنه ليس لدينا دليل على اشتراك شخص آخر غير فيلان بهذه الجريمة». ثم قال: إن مثل هذه الجريمة يعاقب عليها بالموت. فوثب جيرو من مقعده قائلاً:

ـ لا يحق لك أن تطلب عقوبة معينة، فأنت لست النائب العام.

فقال دوكلو دو لاهاي : أرجوك يا أستاذ جيرو، لقد أخطأت بمقاطعتي قبل معرفة ما أريد قوله. . . إني أقول أيها السادة إن جريمة كهذه تستحق عقوبة الموت، ومع ذلك فنحن لا نطالب به، ولا نريده. . . ليس ذلك لأننا نشفق على هذا الرجل الذي لا يتمتع حتى بعذر الجنون، بل أمانة لجوريس الذي كان معارضاً لعقوبة الإعدام، والذي يحمي بظله قاتله من الموت!

لقد كانت محاكمة غريبة، فإن الادعاء لم يكتف بعدم مهاجمة القاتل، بل تعدى ذلك إلى إنقاذه من الجلاد!

وكان يوم ٢٨ آذار (مارس) ١٩١٩ هو اليوم الأخير في محاكمة «قاتل جوريس»، وكانت الأمور قد اختلفت عما كانت عليه في ٣١ تموز (يوليو) ١٩١٤، عندما استنكر الجميع، حتى خصوم جوريس، هذه الجريمة الرهيبة، أما الآن وقد تبدل كل شيء، وانشق الاشتراكيون بعضهم على بعض، وتلاشى «الحلم» الأممي، ووقف العمال في الحرب موقفاً وطنياً، فإن دعوة جوريس إلى السلام قد ماتت في خنادق القتال، وخرجت فرنسا من الحرب مظفرة منتشية، فقد كان هناك من يجرؤ على القول بأن مقتل جوريس قد خدم بلاده

وهكذا تحدث محاميا الدفاع عن عدم مسؤولية راوول فيلان لاندفاعه إلى فعلته بدافع وطني وعاطفة قومية ملتهبة، وجعلا منه بطلاً وطنياً.

ولما جاء دور النائب العام بدا حزيناً حائراً، ولكنه لفت انتباه المحلفين إلى أن راوول فيلان قد قضى في السجن ستة وخمسين شهراً في انتظار محاكمته، ويجب أن تحسم هذه المدة من عقوبته. وأضاف أن هذه الجريمة تحيّر العقل، ولكنه لا يستطيع إلا أن يؤكد مسؤولية فيلان الكاملة عنها، وإن ارتكبها بتصميم ووحي بعدما فكر فيها طوال خمسة عشر شهراً. ثم طلب من المحلفين الحكم على المتهم، على أن يكون حكماً مخففاً بسبب الظروف الدقيقة التي ارتكبت فيها الجريمة، وكان يعني بذلك دوافعها الوطنية.

وعاد الدفاع إلى المرافعة فقال زيفابيس النائب الاشتراكي وصديق جوريس القديم، إنه بسبب علاقته الشخصية «بالمأسوف عليه» يستطيع أن يؤكد أنه كان من

دعاة التقارب مع الألمان، وأن استعادة الألزاس واللورين لم تكن تعني لـه شيئاً، وأضاف أن راوول فيلان قد قام بجريمة وطنية، وأنه يطلب البراءة له باسم «النصر» وباسم جميع الآمال التي تعقد عليه.

وقال جيرو: إن العاطفة التي حركت فيلان «كـات رهيبة في صنيعهـا، نبيلة في دوافعها» إذ كان محمولاً على الموجة الوطنية التي فاضت في تلك الأيام على كل شيء.

وعلى أثر ذلك اختلى المحلفون مدة نصف ساعة ليعلنوا براءة راوول فيلان من التهمة الموجهة إليه، وقد اتخذوا قرارهم هذا بأكثرية أحد عشر صوتاً من أصل اثني عشر. وسرعان ما أمر الرئيس بوكار بإخلاء سبيله، وحكم على أرملة جوريس بدفع نفقات المحاكمة.

لاندرو .. السفاح الآتي من الخدمة العسكرية

زوجان سعيدان، في غرفة من طراز ذلك الزمان، المرأة شابة وجميلة والرجل أنيق ذو لحية كثة طويلة تتناقض مع رأسه الأصلع، وهو يردد كلمات شعرية جميلة تستوقف الزوجة فتقول:

ـ إنها أبيات جميلة . . أهي من نظمك؟

ـ كلا، إنها لفرلين.

ـ ذلك المسخ! . . لقد حضرت والدتي محاكمته. يبدو أنه كان شيطاناً.

ـ إن الناس يصفون العباقرة بالشياطين!

كان هذا الرجل ملاحقاً من جميع مخافر الشرطة في فرنسا بأسماء متعددة: دوبون، ديجاردان، برونيه، بيرره، دوران، دومون، موريز الخ . . . أما اسمه الحقيقي فهو هنري لاندرو وهو من مواليد باريس سنة ١٨٦٩. وكانت التهم الموجهة إليه تشمل كل أنواع الاحتيال واللصوصية وسوء الائتمان، إلا أنها لا تشمل القتل.

وفي شهر نيسان (أبريل) سنة ١٩١٩، على الرغم من أن مانشيتات الصحف كانت مخصصة لاجتماعات الأربعة الكبار: أورلندو وكليمنصو وويلسن ولويد جورج، فإن هذه الصحف فاجأت قراءها ذات صباح بمانشيتات من هذا النوع: الرجل ذو المئة اسم، ذو اللحية الزرقاء يعود إلى الحياة، سفاح يقتل عشر نساء!

وكانت القصة قد بدأت برسالة تلقاها في أيار (مايو) ١٩١٨، رئيس بلدية غامبيه من الآنسة «لاكوست» تقول فيها إنها لم تتلق منذ عام كامل أي نبأ عن شقيقتها مدام بويسون سلستين، «أي منذ ذهبت للإقامة في قريتكم الجميلة مع خطيبها السيد فريميه» .وقد كتبت لها مرات عديدة فلم أتلق أي جواب، وبما أن صلتي بها وثيقة وودية فقد خطر لي أن العنوان الذي أكتب إليه قد يكون خاطئاً، فهل تتكرم وترشدني إلى العنوان الصحيح، ثم وصفت له الفيللا التي تسكنها شقيقتها وكانت قد أوصلتها إليها بنفسها.

وأجاب رئيس البلدية بعد أيام بأنه يجهل تماماً السيد فريميه، وأن الرجل الذي استأجر الفيللا التي أشارت إليها يدعى دوبون، وأضاف أنه كان قد تلقى منذ مدة رسالة مشابهة لرسالتها من أسرة بيلله تسأل فيها عن السيدة كولمب التي لم يعلم أبداً أنها أقامت في غامبيه.

وعلى أثر ذلك اتفقت أسرة لاكوست وأسرة بيلله على تقديم دعوى ضد مجهول محملين إياه المسؤولية عن اختفاء المرأتين، ولدى التحقيق تبين أن صاحب الفيللا قد أجّرها لشخص يدعى دوبون دون أن يراه، وكان الوسيط بينهما بائع الأحذية فاليه، الذي قال بدوره إنه لا يعرف الرجل معرفة جيدة ولكنه زاره واشترى منه حذاء ورجاه أن يستأجر له الفيللا فأدى له هذه الخدمة. وأضاف أن المستأجر زعم له أنه يستأجر الفيللا لقضاء عطلاته فيها، وأن إقامته الدائمة هي في شارع «دارنتال» بمدينة روان. ولدى التحقيق في روان تبين أن لا وجود لهذا الاسم فيها.

وكادت القضية تنتهي عند هذا الحد لولا المصادفة، فإن الشرطة كانت قد اشتبهت بشخص يدعى فريمييت ولكنها لم تجد أثراً له، واتفق أن السيدة بونور صديقة مدام بويسون المختفية كانت تعرف فريمييت هذا وبينما كانت تسير مرة في شارع ريفولي شاهدته وهو يغادر مخزناً لبيع الأواني الخزفية، فلحقت به ولكنه ما لبث أن غاب عن عينيها في الزحام، فذهبت إلى مفوض الشرطة مسيو دوتيل وأنبأته بالأمر، ولما بحث هذا في سجلات المخزن تبين أن مجموعة من الأواني الخزفية اشتريت من قبل المهندس غيلله المقيم في شارع روششوار رقم ٧٦، وذهب المفوض إلى هذا العنوان فقالت خادمة البناية ان ثمة مهندساً يدعى غيلله متزوج ويملك

سيارة يقيم في الطابق الثالث، ولكنه الآن متغيب عن المنزل لأنه ذهب في رحلة.

ولما عاد مسيو دوتيل إلى المخفر راجع مذكرات الشرطة الجنائية التي لديه، فوجد عدة مذكرات باسم هنري ديزيره لاندرو المعروف بغيلّله، والمطلوب بحوادث سرقة واحتيال، وتأكد له أن غيلله ولاندرو وفريمييت ودبون كلها أسماء لرجل واحد، وأخذ ينتظر عودته بصبر نافد إلى منزله في شارع رششوار.

ورجع الرجل بعد سبعة أيام، ولكن دوتيل لم يبلغ بذلك إلا في منتصف الليل، ولم يعد هناك من سبيل لإصدار مذكرة توقيف بحقه. فأرسل شرطته لانتظاره هناك حتى الصباح، ثم طرق هؤلاء باب منزله فإذا برجل جليل ذي لحية تصل حتى صدره يفتح الباب، وفاجأه أحدهم بقوله:

ـ يجب أن ترافقنا إلى المخفر، وإياك أن تقوم بأي مقاومة.

فتظاهر بالدهشة وقال:

ـ ماذا تريدون مني؟ . . لا أشك في أنكم مخطئون. . أنا لوسان غيلله من ابناء روكروا.

ولما ألحوا على طلبهم، رجاهم أن يسمحوا له بارتداء ثيابه، فدخلوا معه الى المنزل، وشاهدوا فيه امرأة شقراء في السادسة والعشرين من عمرها، وكانت شبه عارية وقد دهشت لتوقيف صديقها وقالت:

ـ لماذا توقفونه. . . إنه رجل شريف ووديع، وقد كان لطيفاً معي، وكنا سنتزوج قريباً. .

واعترف المتهم في دائرة الشرطة بأن اسمه الحقيقي هو هنري لاندرو وأنه متهم ببعض حوادث الاحتيال، وحين سئل عن المرأتين المختفيتين أجاب باستنكار:

ـ أما هذا فلا. . . أتريدون اتهامي بالقتل. . أنا هنري لاندرو. . إني لن أتحدث بعد الآن إلا في حضور المحامي.

وقد تبين من التحقيق أن اسمه الحقيقي هو هونوريه ـ ديزيره لاندرو، وقد ولد في باريس سنة ١٨٦٩، وكان أبوه سائق سيارة وأمه خياطة، وقد درس حتى سن

السادسة عشرة في معهد الفرير، وبعدما أدى الخدمة العسكرية تزوج ابنة غسالة في حيه ورزق منها ثلاثة أولاد، وظل حتى سنة ١٩٠٠ وهو يحيا حياة هادئة، وبعد هذا التاريخ تعددت مشكلاته، فحكم عليه سنة ١٩٠٠ بغرامة لقيامه بعملية احتيال، وقضى عامين في السجن ابتداء من سنة ١٩٠٢، ثم بدأ يقوم بضروب من الاحتيال المنظم، وظل على ذلك سنوات طويلة، وفي سنة ١٩٠٩ تخصص في الاحتيال على النساء الراغبات في الزواج وحكم عليه بالسجن لمدة أربع سنوات.

وفي المفكرة التي كانت في جيبه كان لاندرو يسجل بالحبر الأحمر كل ما يصرفه على طعامه وتنقلاته، ولكن المفوض دوتيل توقف أمام صفحة لم يسجل المتهم فيها ثمن الشاي والبسكويت وأجور القطار، وإنما سجل بقلم الرصاص أسماء عشر نساء بينها اسم مدام بويسون، واسم مدام كولومب وهما المرأتان المختفيتان اللتان كان اختفاؤهما منطلق هذا التحقيق، فهل تكون الأخريات أيضاً من ضحاياه!؟

وعثر بين أوراق لاندرو على سند إيجار تبيّن منه أنه مستأجر كاراجاً باسم فريمييت في مدينة كليشي، وكان بين أكداس الأوراق التي وجدت في الكاراج رسائل موجهة إليه من عدد من النساء، وإعلانات طلب زواج، وتذاكر هوية، وبطاقات إعاشة، وثياب نسائية داخلية، وشعر مستعار، وأسنان اصطناعية، فلمن يكون هذا الحطام؟

لقد عرف من بين صاحبات هذا الحطام المرأتان المختفيتان سيليستين بويسون وآنا كولومب وقد وجدت في مستودع الذكريات أوراقهما ورسائلهما مرتبة ومبوبة ومصنفة في إضبارتين، وتبين أنهما لاقتا مصيرهما بسبب إعلان صغير نشره في جريدة «الجريدة» في باب طلبات الزواج، وجاء فيه: «رجل في الخامسة والأربعين من عمره، وحيد، بلا أسرة، مدخوله أربعة آلاف فرنك، يرغب في الزواج من سيدة ناضجة، فأجابتا كلاهما على الإعلان، وقد التقى سيليستين، وهي سيدة فاضلة في الخمسين من عمرها، باسم فريمييت في ١٤ أيار (مايو) سنة ١٩١٥، وأخبرها أنه يملك مصانع في شمال فرنسا وقد هاجر من هناك بسبب الاجتياح الألماني، فوقعت المسكينة في حبه وسحبت رصيدها من البنك، وبعد يومين ذهبت مع «خطيبها» إلى منزل في قرية غامبيه ولم تشاهد بعد ذلك.

أما آنا كولومب فكانت مغامرة رومانتيكية، وقد التقت به في ٧ أيار (مايو) سنة ١٩١٦ في شارع لافاييت، فقدم نفسه لها باسم كوشه وقال لها إنه يملك مصنعاً في موغارتر، وفي ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) كتبت آنا لأمها أنها ستتزوج من السيد كوشه وستنتقل معه إلى منزله الريفي، ثم سحبت ألفي فرنك كانت قد أودعتها في كونتوار ديسكونت، ولم تشاهد بعد ذلك.

واتجه التحقيق إلى بقية الضحايا فتبين أن جان كوشه وهي بائعة ثياب داخلية في التاسعة والثلاثين من عمرها، وكانت أرملة ولها ولد في السابعةعشرة من عمره، قد تعرفت على لاندرو في تموز (يوليو) سنة ١٩١٤ تحت أشجار اللوكسمبورغ، وكان يحمل اسم ريمون ديارد ويدعي أنه يصنع أجهزة للطائرات، وبعد تعرفها به وتوثق علاقتهما العاطفية، اختفت جان وابنها عن الأنظار.

وثمة سيدة لعوب في الثامنة والثلاثين من عمرها، تعرفت عليه إثر إعلان زواج، وذهبت معه الى فيللا غامبيه مع كلابها الثلاثة، ثم اختفت آثارها، ولدى البحث في حديقة الفيللا استطاع رجال الشرطة العثور على جثث الكلاب الثلاثة، أما جثة المرأة فلم يعثر لها على أثر.

وتتابع الموكب الرهيب، إذ استطاعت الشرطة معرفة بقية الضحايا وقد تعرفن على لاندرو في ظروف مماثلة، واختفين في ظروف مشابهة ايضاً.

فهناك آنيت باسكال وهي أرملة في سن السادسة والثلاثين تبدو أصغر من عمرها. ولويز جوزفين جون وهي امرأة في الثامنة والثلاثين هجرها زوجها وتعمل خياطة، وماري انجيليك غيليان وهي مربية متقاعدة في الثانية والخمسين من عمرها قدم نفسه لها على أنه ملحق في السفارة الأوسترالية، وبيرت أنا هيون المولودة في الهافر،ومدام تيريز لابوردلين من الأرجنتين، وأندره بابولاي وهي خادمة في التاسعة عشرة من عمرها وقد عثر في أرشيف لاندرو على دفاترها المدرسية.

ولكن الأمر المذهل هو عدم العثور على أي جثة من جثث هؤلاء الضحايا، وقد قام المحققون ومفتشو الشرطة ورجال الصحافة ومندوبو السينما، بالتنقيب في كل

شبر من الفيللا والحديقة دون أي جدوى، وعثر في القبو على فرن صغير قال أحد الصحافيين ساخراً إنه الفرن الذي كان لاندرو يشوي فيه ضحاياه، ولما فتح لم يكن فيه سوى بعض الرماد.

والواقع أن الصحافة بدأت تشك في القصة كلها. واتهم بعضها المفوض دوتيل بأنه هو الذي نسج خيوطها من مخيلته، للظهور بمظهر البطولة والبراعة، أما الصحف اليسارية فوجهت الاتهام الى جورج مانديل رئيس مكتب كليمنصو متهمة إياه بأنه هو الذي اختلق كل هذه الجرائم لإلهاء الرأي العام عن توقيع معاهدة الصلح.

وتمسك لاندرو بهذ المقولة فصار يزعم أنه ضحية السياسيين الذين يريدون إلهاء الجمهور وصرفهم عن اكتشاف فضائحهم، ثم يطلب المزيد من الشوكولا التي كانت متعته الوحيدة في سجنه.

ووسع رجال الشرطة نطاق تحرياتهم، فنبشوا مقبرة غامبيه وغاصوا في بحيرة بروبير، دون أي نتيجة، ونشطت مخيلات الناس فتصورت نهايات مختلفة للضحايا، وحول الصحافيون هذه القضية الى أداة سخرية من الحكومة والشرطة، وفكر بعضهم بشراء جمجمة من معهد الطب وإرسالها الى كبير المحققين ضمن كيس مرافق ببطاقة كتب عليها: «مساء الخير».

وبعدما فتش رجال الشرطة منزلاً آخر للاندرو في فرنويه، انتهوا الى الاعتقاد بأنه لا بد من أن يكون السفاح قد أحرق ضحاياه في الفرن الصغير الذي وجد في قبو الفيللا، وحين اتخذ التحقيق هذا المنحى، شهد بعض الجيران بأن لاندرو كان يشتري كميات كبيرة من الفحم، وقال غيرهم إن الدخان كان يتصاعد لوقت طويل من مدخنة الفيللا، وأكدت سيدة شابة تدعى مدام ليكوك بأنه كانت تتصاعد في المنطقة أحياناً روائح غريبة مزعجة حتى إنها قالت لأمها مرة: يبدو أن أحداً قد وقع في مدفأته فاحترق فيها.

وخلال ذلك كان لاندرو يأكل جيداً، ويطلب الشوكولا، ويسخر من المحققين، ويتلقى بطاقات إعجاب من سيدات مجهولات كتبت إحداهن على البطاقة: «نحن معك حتى الفرن!». وقد بلغ من شهرته وعطف الناس عليه من جراء تهكمه على

رجال الشرطة، أن إحدى الصحف قالت بين الجدوالمزاح: «كل ما نتمناه الا يرشح السيد لاندرو نفسه في الانتخابات»، والعجيب حقاً أنه عندما جرت الانتخابات في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩ وجدت في صناديق الانتخابات أربعة آلاف بطاقة تحمل اسم لاندرو! وصار الناس كلما شاهدوا في الشارع رجلاً ملتحياً ينادونه باسم لاندرو.

شفرات . . . للمنشار

إلا أن الصحافة والجمهور ما لبثا أن سئما هذا الموضوع الذي طال التحقيق فيه، وبعدما انتهت سنة ١٩١٩ أوشكت سنة ١٩٢٠ على الانتهاء دون إحراز أي تقدم. وعاد أحد المحققين الى دراسة القضية منذ بدايتها، ووقع في مفكرة لاندرو على المفتاح الذي كشف اللغز. فإن حرص القاتل على تسجيل كل ما ينفقه بدقة متناهية، هو الذي أوقع به، وإليك ما كتبه في هذه المفكرة بخطه:

١٦ تموز (يوليو) ١٩١٦: ٤ شفرات للمنشار بسعر فرنكين ونصف.

٩ شباط (فبراير) ١٩١٧: دزينة مناشير لنشر المعادن بسعر ٦ فرنكات و٦٠ سنتيماً.

٢٥ نيسان (أبريل) ١٩١٧: منشار لنشر الحطب بسعر ٤ فرنكات و٢٥ سنتيماً.

٦ حزيران (يونيو) ١٩١٧): منشار مدور بسعر ٣ فرنكات و١٥ سنتيماً.

٩ تشرين الأول (أوكتوبر) ١٩١٧: ٣ شفرات للمنشار بسعر فرنك وعشرين سنتيماً.

٦ آذار (مارس) ١٩١٨: ٦ دزينات مناشير لنشر المعادن بسعر ٢٥ فرنكاً.

وكان واضحاً أن هذه الكمية الكبيرة من المناشير الخاصة بنشر المعادن، إنما كانت تستعمل لنشر جثث الضحايا وتقطيعها لإدخالها في الفرن الصغير الذي وجد في قبو الفيللا، فاستند التحقيق إلى ذلك، لتقديم لاندرو الى المحاكمة.

وفي ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٢١ بدأت المحاكمة في فرسايل. وكانت حدثاً بارزاً حرك المجتمع الفرنسي بأسره، وقد حضرت جلسات المحاكمة نخبة من سيدات المجتمع جئن إليها بكل أناقتهن كأنهن يأتين لمشاهدة عرض للأزياء، كما

حضرها سفير الصين في باريس والأميرة اليونانية هيلين، وعدد من الأدباء والرسامين بينهم الكاتبة الشهيرة كوليت التي كانت تسجل انطباعاتها لجريدة «الماتان» وقد طلب منها لاندرو أن تمنحه توقيعها.

وكانت أنظار النسوة مشدودة إلى لاندرو الذي بدا أنيقاً مهيباً بقامته الطويلة ولحيته المسترسلة، وكن يهمسن فيما بينهن: «إنه رجل مميز، جذاب.. فيه مهابة وجلال...» أما الجمهور فقد جاء ليضحك بعدما طالع في الصحف تهكم لاندرو على محققيه والواقع أن السفاح لم يخيب ظن الجمهور. إذ ما لبث حتى قال:

ـ لعل هنالك ضحايا أخريات لا تتحدثون عنهن!

وقال للنائب العام الذي كان يطالب برأس المتهم:

ـ إنك تتحدث عن رأسي دائماً يا حضرة النائب العام، ويؤسفني أن لا أملك عدة رؤوس لأقدمها لك.

وعلى أثر سوء تفاهم حدث بين محامي الدفاع مورو جيافيري وهيئة المحكمة، قرر المحامي الانسحاب، فقال لاندرو:

ـ وأنا أيضاً أريد الانسحاب.

وقال محاميه هذا:

ـ إن هذا الرجل هو الأشد غرابة بين جميع من دافعت عنهم. فهو يقسم من ناحية على براءته، ويبدو من ناحية ثانية بأنه سعيد لاقتناع الجمهور بأنه مسؤول عن الجرائم المنسوبة إليه.

وتتابع على منصة الشهادات عشرات الأشخاص أكثرهم من النساء، من صديقات الضحايا وقريباتهن، وقد شهدت الكثيرات منهن بأنهن كن يعرفن بخطبته لهذه أو تلك من ضحاياه وشاهدنه برفقتها غير مرة.

ووقف لاندرو أمام هيئة المحكمة بثبات وأجاب على هذه الشهادات بوقار قائلاً:

ـ أنا لا أنكر معرفة النساء العشر اللواتي تدور القضية حول اختفائهن، بل لقد كنت خطيباً لهن جميعاً، وعاشرت كلا منهن شهراً أو شهرين ثم انفصلت لأنها لم

تعجبني ولأبحث عن خطيبة أخرى. . . ولكن هذا لا يعني أن لي أي علاقة باختفائهن. . . إنهن نساء راشدات وأجهل ما حل بهن».

وعن سؤال عما إذا كان من الممكن حرق الجثث في الفرن ولا سيما العظام والجماجم، أجاب الطبيب الشرعي الدكتور بول أن جمجمة الإنسان تشبه في ظاهرها صلابة القرميد وفي باطنها هشاشة الورق. ومن الممكن أن تحرق أصلب جمجمة وتتحول الى رماد خلال ساعة وعشر دقائق.

وشهد البروفيسور راوول أنطوني بأنه عثر في قمامة الفيللا على ثلاث جماجم بشرية، وأشار إليها بين كومة العظام والمواد الثبوتية المعروضة في المحكمة.

واستمرت جلسات المحاكمة ٢٣ يوماً، وفي ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر)، وعلى الرغم من المرافعة البليغة التي ألقاها المحامي مورو جيافيري، حكم على لاندرو بالموت لارتكابه عامداً إحدى عشرة جريمة قتل ضد خطيباته العشر وابن إحداهن.

وفي فجر الثالث والعشرين من شباط (فبراير) سنة ١٩٢٢ دخل الى زنزانة لاندرو في سجن فرسايل شرطيان وكاهنان والسيد بيغان مساعد النائب العام، وكان المحكوم بالاعدام نائماً، فهزه أحد الشرطيين برفق وقال له:

ـ تشجع!

فاستيقظ لاندرو وحدق في مساعد النائب العام وقال له:

ـ من أنت يا سيدي؟ . . . لا أعتقد بأنه سبق لي شرف التعرف عليك من قبل!

فقدم بيغان نفسه له، وسأله عما إذا كان يريد الاعتراف بشيء، فأجاب:

ـ أبداً. . . إن هذا الحكم ظالم لأني بريء. .

ورفض كأس النبيذ والسيكارة اللتين قدمتا له، كما رفض سماع العظة الدينية قائلاً للكاهن الذي فتح الكتاب المقدس ليقرأ عليه سطوراً منه:

ـ كان بودي ذلك يا حضرة الكاهن، ولكني لا أريد أن أؤخر هؤلاء السادة!

في خارج الزنزانة كان النهار قد بدأ يشرق، وأمام باب السجن في الساحة الرحبة، كانت المقصلة، ترفع ذراعيها السوداوين تحت سماء شديدة الصفاء، وكانت أولى

حافلات الترام تمر في الساحة حاملة عمالاً وفلاحين قادمين إلى السوق.

وفتح باب السجن، وبدا لاندرو المكبل بالقيود، شاحباً وقد حفرت التجاعيد خديه. وما لبثت المقصلة حتى قطعت رأسه، وكان عقربا الساعة يؤشران على السادسة وأربع دقائق.

وهكذا انتهت قضية لاندرو، ولكنها ظلت وقتاً طويلاً تثير مخيلات المواطنين ولا سيما النساء منهم، ولما بيعت ممتلكاته في المزاد اشترى المتحف الوطني بأربعة آلاف ومائتي فرنك الفرن الذي كان السفاح يحرق فيه ضحاياه.

وفي ١٥ أيلول (سبتمبر) من تلك السنة، شوهد رئيس الجمهورية السيد ميلليران الذي كان في عطلته الرسمية، يزور فيللا غامبيه مع ابنتيه مارت وأليس، لمشاهدة مسرح تلك الجرائم التي روعت نساء باريس.

محاكمة نورمبرغ..
دولة تحاكم دولة!

لا ريب في أن محاكمة مجرمي الحرب في ألمانيا النازية بعد انتصار الحلفاء، التي عرفت باسم «محاكمة نورمبرغ» نسبة للمدينة التي عقدت فيها، هي أكبر محاكمة في التاريخ، وقد استمرت من ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٥ إلى ١ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٤٦، وعقد فيها ٤٠٠ جلسة، وزادت صفحات التحقيق فيها على ١٥ ألف صفحة، وأدى الشهادة فيها ٢٠٠ شاهد من شهود الاتهام والدفاع، وبلغ عدد وثائقها ٣٠٠ ألف وثيقة نسقها وترجمها وصورها ونسخها ألوف المدنيين والعسكريين الذين كانوا يشغلون ٦٠٠ مكتب من مكاتب قصر العدل القديم في نورمبرغ. وقد حوكم فيها اثنان وعشرون زعيماً نازياً كانوا جميعهم يجلسون في قفص الاتهام، ما خلا واحداً منهم لم تستطع القوات الحليفة القبض عليه هو مارتان بورمان.

وكان المراقبون الحلفاء ومراسلو الصحف قد بدأوا يدخلون في الساعة العاشرة من صباح ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٩٤٥، للمرة الأولى، قاعة الجلسات الفسيحة الساطعة الأنوار، فيشاهدون الواحد والعشرين متهماً وهم في قفص الاتهام، وحولهم نطاق من الجند كثيف، وقبالتهم ثمانية قضاة لم يتخلف أحدهم عن حضور جلسة واحدة طوال المدة التي استغرقتها المحاكمة.

وقرئت مضبطة الاتهام بلغة واحدة ولكنها كانت تترجم آنياً وتسمع أثناء تلاوتها بثلاث لغات أخرى. وهكذا استمرت الحال في كل جلسة من جلسات هذه الدعوى. إذ كان الحاضرون يسمعون ما يقال كلّ باللغة التي يختارها، بوساطة أجهزة الالتقاط المزودين بها، أما هذه اللغات فهي الألمانية والإنكليزية والروسية والفرنسية.

وفي تلك الجلسة كان غورنغ لا يزال ضخم الجثة مالكاً زمام نفسه، وكان مرمى الأبصار وعدسات التصوير، وقد أنكر التهم التي وجهت إليه، وكذلك فعل زملاؤه العشرون.

وفي اليوم التالي افتتح الجلسة السيد جاكسون المدعي العام للولايات المتحدة في نورمبرغ، ومنظم وباعث دعوى كبار مجرمي الحرب، بخطبة طويلة أبان فيها الأحمال الثقيلة التي ترزح تحتها كواهل هؤلاء المجرمين الحاضرين وكاهل زميلهم الغائب مارتان بورمان. وبعد خمسة عشر يوماً جاء خطاب السير شوكروس رئيس مندوبي بريطانيا مكملاً لخطاب جاكسون، وقد فضح الاثنان ما قام به الحزب النازي وما هيأه ونفذه الرايخ الثالث من حروب عدوانية وجرائم لا مثيل لها.

وفي ١٧ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٦ تكلم السيد دو مانتنون المندوب العام للحكومة الفرنسية عن الجرائم التي ارتكبت في غربي ألمانيا، وكشف عن المحرضين عليها، وبعد ثلاثة أسابيع كان الجنرال رومان رودنكو الناطق باسم الاتحاد السوفياتي يعدد ضحايا النازيين في المناطق الشرقية التي احتلها هتلر.

وبعد تلك اللوائح الطويلة بجرائم الرايخ الثالث وممثليه الحاضرين في قفص الاتهام، نهض الدفاع الألماني فصور الرايخمارشال غورنغ «رسول سلام» والسيد شاخت «خازناً أميناً للرايخبنك»، والسيد نوارث «ذلك المزارع الشريف القديم»، وكايتل وجودل «جنديين باسلين» وسوكيل الذي قضى شطراً من شبابه في أوستراليا «بحاراً عتيقاً»، وجوليوس سترايشر «رجلاً قليل الكفاءة. . . ثم اتهم الحلفاء بأنهم هم الذين جرّوا ألمانيا إلى هذه الحرب فأفقدوها زهرة شبابها ودمروا كنوزها الفنية.

وتلا الدفاع النيابات العامة الإنكليزية والروسية والفرنسية التي طالبت في

مطالعاتها بإعدام المتهمين. .

وبعد ظهر اليوم الثلاثين من تموز (يوليو) سنة ١٩٤٦، فتحت أمام المجلس الحربي الدولي دعوى جديدة على المنظمات الوطنية الاشتراكية الكبرى كالغستابو ومكتب الرايخ والقيادة العليا للجيش وغيرها، فاستمرت جلسات هذه الدعوى التي كانوا يسمونها «دعوى في قلب دعوى» شهراً كاملاً، فظهر أمام المحكمة فيمن ظهر، الطبيب ولترسيغيرس الذي كان يرئس أفظع التجارب التي أجريت على الأحياء في معتقل داشو وشريبير الطبيب الألماني الآخر الذي كشف عن الخطط النازية للحرب الجرثومية التي تتيح للرايخ أن يفني الجيوش الحليفة وشعوب البلدان المحتلة والعدوة. .

وكان اليوم الرئيسي في هذه الدعوى يوم ٣١ آب (أغسطس) الذي عقدت فيه الجلسة الأخيرة من جلساتها، ليقول المتهمون كلماتهم الأخيرة قبل إصدار الحكم عليهم. فإذا بأسياد أوروبا القدامى يسفرون في تلك الجلسة عن وجوههم، فيعلن جودل أنه «فخور بإنجاز واجبه!».

ويؤكد روزنبيرغ أنه كان دائماً «أميناً لمثله الأعلى في الحياة!».

وازدهى غورنغ بأنه «فعل كل شيء ليؤمن النصر للرايخ، يدفعه الى ذلك ما ينطوي عليه صدره من حب شديد لشعبه!».

وقال ويلهلم فريك: «لقد وقفت حياتي لوطني وشعبي!».

وأصرّ سوكيل وكالتا نبرونير على أنهما «من ذوي النيات الشريفة» وعلى أنهما «كانا يخضعان للقوانين وينفذان الأوامر!».

أما فرنك فقد ندم «على اعتناقه زندقة هتلر وابتعاده عن الله» وتنهد وقال:

ـ لن يمحو مرور ألف سنة عار الشعب الألماني!

وأما كايتل فقد هتف منفعلاً:

ـ الموت عندي أولى من تلك الأخطاء التي ارتكبتها وكانت لها عواقبها الفظيعة!».

وكان يوما ٣٠ أيلول (سبتمبر) و١ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٤٦، مقررين لصدور الأحكام. فأدانت المحكمة من المنظمات النازية «هيئة المسؤولين السياسيين» و«الغستابو» وغيرهما، وبرأت «مكتب الرايخ» و«القيادة العليا للجيش».

وكان غورنغ يستمع إلى هذه الأحكام وهو متكىء على مرفقه الأيمن، غارقاً في تأملات طويلة كئيبة، وقد جلس هيس عن يساره وكان يدون مذكرات حيناً ويرسم حيناً آخر خطوطاً لا معنى لها، بينما كان سوكيل يكثر من الاستدارة للالتفات إلى الساعة المعلقة وراءه على الحائط، أما كايتل فقد التزم حتى النهاية وضعاً عسكرياً.

وبعد الحكم على المنظمات كان الناس ينتظرون، في اليوم الأول من تشرين الأول (أكتوبر) صدور الأحكام على الزعماء...

وكانت الدبابات والمصفحات والجنود في ذلك اليوم، تملأ شوارع المدينة الرئيسية وترابط حول قصر العدل، ولم يكن ليبدو على الألمان أنهم متلهفون لمعرفة الأحكام التي ستصدر على زعمائهم، أو أنهم كانوا يتظاهرون على الأقل، باللامبالاة.

وفتحت الجلسة الختامية، وكان غورنغ جامداً في وضعه، متصلباً حتى لكاد يميل إلى الأمام، يضغط فكيه أحدهما على الآخر، ولم يبد عليه أي تأثير عندما سمع الجرائم التي أدين بها:

- إن المتهم غورنغ مثل الدور الأول في تعجيل إعادة التسليح الألماني والتهيئة المباشرة لحروب عدوانية، وأيد شخصياً اعتقال العمال الأجانب، واستخدام أسرى الحرب في مصانع التسلح، وتقتيل اليهود المنظم، وقمع المقاومة بزج الناس في المعتقلات، وليس في ملف هذا الرجل عذر واحد يبرر ما فعله.

واستمع هيس إلى إدانته ذاهلاً غير مبال. أما ريبنتروب، الذي وجه بدون انقطاع، كل جهوده من أجل الحرب، و«مثل الدور المهم في إبادة اليهود، فقد كان رابط الجأش، شاحب اللون، حين كان القاضي الروسي يسرد هذه التهم.

وأما كايتل فقد قال عنه البروفيسور الفرنسي دونديو دوفاير، إنه سلم المظليين الحلفاء إلى الغستابو، وحكم بالموت على رجال الكوماندوس الذين نزلوا على سواحل الأراضي المحتلة من الجيش الألماني، وأباد بلا هوادة أسرى الجيش الأحمر.

وقد احتفظ كالتا نبرونير بيديه مكتوفتين على صدره، وبدا كأنه غائب عن هذا العالم، حين كانت المحكمة تستنكر، ذلك الإرهاب البغيض الحقود الذي أفاضه على البلاد المحتلة، وكان في موتوزين يتفنن في استنباط الأساليب لهلاك الناس، وكان الحراس إرضاء لنزواته يشنقون ويعدمون بالرصاص وبالغاز. . .»

وكان روزنبيرغ أول من خفض جبينه وانهارت عزيمته عندما ذكر اسمه.

وجاء في قرار المحكمة أن فرنك كان «الآلة» الطيعة وظاهرة الإرهاب الألماني في بولونيا . وبدا عليه الانزعاج عندما ذكرت معاملته لرعاياه في الحكومة العامة وإبادته الأحياء اليهودية في فارسوفيا.

أما ويلهلم فريك فما إن سمع اسمه حتى انتفض رافعاً رأسه كمن أفاق من غفلة، وحين عددت جرائمه ازداد اضطراباً، وأخذت جفون عينيه القاسيتين ترف باستمرار، وتضاعفت الغضون في جبينه ، وارتجفت أصابعه كمن انتابته حمى. . . فهو الذي استأصل من التشيكيين الذين كانوا تحت رحمته حوالى ثلاثمائة ألف ليخفف باستئصالهم من أزمة الغذاء!

واستنفد سترايشر جهده ليظل مسيطراً على أعصابه حين كان القاضي يصف الحماسة التي كان يبديها في مجلته «دير ستورمير» لاستئصال شأفة اليهودية، استئصالاً كاملاً، أصولاً وفروعاً، وكتب في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤١، يقول: لم يبق سوى وسيلة واحدة لحل المشكلة اليهودية هي إبادة هذا الشعب الذي هو ابن الشيطان».

وبعدما برئت ساحة شاخت، وعرضت جرائم فونك ودونيتز وريدر وشيراخ، اتجهت الأنظار إلى سوكيل الذي كان القائد المفوض المطلق الصلاحية في اليد العاملة، والمسؤول عن اعتقال أكثر من خمسة ملايين من الكائنات البشرية

ومعاملتهم في ألمانيا معاملة الأرقاء.

واستمع جودل إلى الجرائم التي أدين بها خافض الرأس مكتوف اليدين، وكان جودل رئيس أركان الجيش والمستشار العسكري لهتلر حين أعد غزو النمسا وتشيكوسلوفاكيا ونروج وغيرها من البلدان، وعندما قرر هتلر غزو روسيا اتخذ جودل قراراً بالقضاء على المفوضين السياسيين الروس، فأطلق يد كل ضابط ألماني بقتلهم دون أي محاكمة.

وبعدما تقررت براءة فون باين لم يستطع سايس إنكارت الخائن النمساوي ومعاون فونك في بولونيا ومفوض الرايخ في هولندا، أن يخفي قلقه وتأثره، وهو يستمع إلى الجرائم التي أدين بها، فكان احمرار خديه يتحول إلى شحوب كلما ذكرت مذابحه واعتقالاته لخمسمائة ألف هولندي منهم مائة وعشرون ألف يهودي أرسلوا الى معتقل أوشوتيز.

وبعدما أدين سبير وفون نوراث بجرائم متعددة بُرِّئت ساحة فريتش.

وفي الساعة الواحدة والخمسين دقيقة من بعد ظهر اليوم الأول من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٤٦، كانت المحكمة قد انتهت من قراءة التهم الموجهة إلى مارتان بورمان الغائب، ثم يرفع الرئيس الجلسة الأخيرة من جلسات تلك المحاكمة التاريخية.

وفي الساعة الثانية والخمسين دقيقة كان المجلس العسكري الدولي ينجز مهمته، فيدخل للمرة الأخيرة، قاعة المحكمة الرهيبة التي يخيم الصمت الرهيب على من فيها فيلفظ حكمه بالإعدام شنقاً على كل من: غورنغ، ريبنتروب، كايتل، كالتا نبرونير، روزنبيرغ، فرنك، فريك، سترايشر، سوكيل، جودل، سايس إنكارت، بورمان.

وبالسجن المؤبد على هيس وفونك وريدر.

وبالسجن عشرين سنة على شيراخ وسبير، وخمس عشرة سنة على فون نوراث، وعشر سنوات على دونيتز.

وقضى الحكم ببراءة شاخت وفون باين وفريتش.

وكان كل من هؤلاء يدعى إلى قاعة المحكمة منفرداً ليتبلغ الحكم الذي صدر عليه، وكان غورنغ أول الداخلين بين أربعة من الجنود بخوذهم وقفازاتهم وأحذيتهم البيضاء، وإذ سمع الحكم عليه بالموت شنقاً، تولاه الغضب لأنه رأى في الشنق احتقاراً له وكان يفضل عليه الإعدام بالرصاص، وانصرف حانقاً.

ودخل هيس القاعة وهيأته تنم على المقت والازدراء للجالسين على منصة الشرف، ولما تلقى الحكم بالسجن المؤبد لبث غير مبال، وتفاقم هزؤه وازدراؤه.

وتلقى ريبنتروب الحكم مكتوف الذراعين برصانة الرجل الوقور.

وكايتل بوقفته العسكرية الدائمة..

وكالتا نبرونير بإحنائه مرتين أمام الهيئة الحاكمة..

وروزنبيرغ بارتباك وانزعاج..

وفرنك برفع عينيه إلى السماء..

وجودل بالخضوع ثم بالمشي مشية الهرم الذي يكاد يسقط إلى الحضيض..

وسايس إنكارت بانحناءة طويلة إلى الأمام...

وضعضع هذا الحكم صواب فريك فقال:

ـ وأنتم أيضاً حكمتم بالموت!

وأذهل سترايشر هذا المصير الذي آل إليه، فكان يترنح في مشيته وهو يغادر القاعة...

وأما سوكيل فقد احتدم غيظاً ولم يشأ أن يصدق كلمة «الشنق»، ورشق القضاة بنظرة غضب طويلة، ثم قلب شفتيه الرقيقتين اشمئزازاً واحتقاراً!

هكذا استقبل قادة الرايخ الثالث الحكم عليهم بالموت، فكيف استقبلوا الموت؟...

لازم المتهمون بجرائم الحرب من قادة الرايخ الثالث زنزاناتهم لا يبرحونها، منذ ذلك اليوم الذي تبلغوا فيه قرار المجلس العسكري الدولي القاضي بإعدامهم شنقاً.. وكانوا يقرأون ويكتبون ويدخنون باستمرار، ويشاهدون نساءهم ساعة

كل يوم . .

وكان كايتل وفرنك مستسلمين الى مصيرهما . .

وريبنتروب وسوكيل منهاري القوة خائري العزيمة . .

وكان غورنغ دائم التفكير، يقضي ساعات طويلة ممدداً على سريره . .

أما رودولف هيس فكان يرقد على الأرض منبطحاً على بطنه، ويأبى أن ينام على سريره.

وأبى «كالتا نبرونير» و«شيراخ» وسبيران أن يطلبوا الرحمة من مجلس المراقبة الحليف الذي كان مقيماً في عاصمة الرايخ القديمة، والذي كان في مقدوره أن يخفف عقوبات المجلس العسكري الأعلى . .

وطلب كايتل وجودل أن يموتا ميتة الجندي فيقضى عليهما بإطلاق الرصاص . .

وآثر الأميرال ريدر أن يقضى عليه بالرصاص أيضاً بدلاً من قضاء حياته في السجن تنفيذاً للحكم عليه بالسجن المؤبد . . .

واستأنف محامو غورنغ وفرنك وسترايشر الحكم دون موافقة موكليهم .

وفي ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٦ ، رفض مجلس المراقبة الحليف في برلين طلب المحكومين تخفيف عقوباتهم، وحدثت مفاجأة كبيرة في منتصف ليل ١٥ - ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) إذ أعلن الكولونيل بورتون أندروز حاكم سجن نورمبرغ ، انتحار غورنغ لثمانية من المراسلين الحلفاء الذين جاؤوا ليشاهدوا تنفيذ حكم الموت بكبار مجرمي الحرب .

رائحة اللوز

وهكذا مات غورنغ ولم يترك لخصومه لذة التشفي بشنقه!

في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والأربعين من تلك الليلة، كان غورنغ يلفظ أنفاسه الأخيرة راقداً في سريره، ولم يدر الحارس الذي كان يراقبه أنه مات، إلا بعدما انبعثت من الزنزانة ذات الرقم ٥ همسات تقول: «لقد انتهى . . .» . . .

كما أنه لم يشاهده وهو يتناول أنبوبة سيانور البوتاس ويسحقها بين أسنانه، وخيل له حين رآه يحشرج، أن نوبة قد انتابته، فنادى فوراً ضابط السجن، وما لبث هذا حتى استدعى الطبيب الألماني بفلوكير، فأعلن هذا وفاته لأن كمية السيانور التي ابتلعها وقدرها سنتميتر مكعب تصعق الإنسان فوراً، وكانت جثته لا تزال فاترة، ولا تزال في فمه قطع من زجاج الأنبوبة تفوح منها رائحة اللوز المر وهذه الرائحة هي من خصائص السيانور.

وكان على الجثة ظرف مفتوح يحمل اسم هيرمان غورنغ ويحوي ثلاث رسائل إحداها إلى حاكم السجن، وإذ كان هذا يجهل الألمانية فقد حولها مع الرسالتين الأخريين إلى التراجمة، ثم رفعت إلى اللجنة الرباعية المشرفة على مجرمي الحرب وصاحبة الشأن المطلق في سجن نورمبرغ. وقد علم أن إحدى الرسالتين الأخريين موجهة إلى الفرواييي غورنغ والثانية إلى طائفة من الشخصيات التي يظن أنها حليفة، أما مضمون هذه الرسائل فلم يذع على الإطلاق.

وتقول اللجنة الرباعية في التحقيق الذي أجرته في ٢٦ تشرين الأول (اكتوبر) عن وفاة غورنغ: «من المحتمل أن غورنغ كان يخفي كبسولة السم في جوف سترته».

وفي مساء تلك الليلة التي انتحر فيها غورنغ صرح لمرشده الكاهن جيريك قائلاً:

- إني أؤمن بالله ولكني أؤمن أيضاً بأن الله أرفع من أن يتهم بقضايا تافهة كقضية مصير هيرمان غورنغ!

وبعد انتحار غورنغ شددت الرقابة على المحكومين الآخرين، ولما أبلغهم حاكم السجن بأنه سيصفدهم بالحديد وهم في طريقهم إلى ساحة الإعدام، وبأنه لم يتخذ هذا التدبير إلا بعد انتحار غورنغ، عرفوا للمرة الأولى أن زعيمهم القديم قد سبقهم إلى الموت.

وحين دخل عليهم حاكم السجن كان سايس وجودل يتمددان على سريرهما دون أن يغمض لهما جفن.

وفي الساعة الواحدة من تلك الليلة كان موعد تنفيذ الحكم في باحة داخلية من السجن لا يتعدى طولها الاثني عشر متراً وعرضها الثلاثين، نصبت فيها ثلاث مشانق استعمل منها اثنتان واحتفظ بالثالثة لاستعمالها عند عطل طارىء. وكان الجلاد الاميركي السير جان جون وودس ومساعده واقفين على مرتفع وسط الباحة يصعد إليه باثنتي عشرة درجة خشبية، فكان إذا ما ارتقاها المحكوم عليه أسرع الجلاد ومساعده فوضعا على رأسه غطاء سميكاً من القماش الأسود، وما أن يحكما الحبل على عنقه حتى تتفتح هوة من تحت قدميه فيتدلى فيها ويختفي هو والمشنقة وراء ستار من قماش أسود كثيف، ولا يلبث الأطباء العسكريون حتى يلحقوا به ليشهدوا على صحة وفاته، ثم يقطع أحد الجلادين الحبل بسكينه، وبعد دقائق تحمل الجثة على نعش ورأسها لا يزال مغطى، لتعرض في المكان المعد لعرضها.

وقد جلس قبالة المشانق إلى مناضد صغيرة ثمانية من الصحافيين الحلفاء الذين أذنت لهم اللجنة الرباعية بمشاهدة تنفيذ الأحكام، وجلس معهم الدكتور هوغنر وزير البافير والدكتور ليسنر المدعي العام في محاكمة نورمبرغ.

وكان هناك أيضاً أعضاء اللجنة الرباعية وهم: الجنرال الفرنسي ليون موريسل رئيس اللجنة، والجنرال الاميركي ريكار، والجنرال الروسي مولكوف، والجنرال الانكليزي بلاتون ولش، وجلس وراءهم تراجمتهم وعدد من ضباط الجيش الثالث الأميركي.

دعاء ريبنتروب

وقد بلغ عدد الحاضرين واحداً وأربعين شخصاً منهم ستة وعشرون أميركياً، وخمسة فرنسيين، وخمسة روسيين، وثلاثة بريطانيين، وشاهدان اثنان من الضباط الألمان يمثلان الشعب الألماني!

وكان ريبنتروب أول القادمين بين حارسين اثنين، وقد انطبعت على وجهه بقع زرقاء عريضة ضاربة في السواد، وبدت عيناه كأنهما عينا أعمى هرم منهوك القوى، وقبل أن يتسلق الدرجات العشر إلى المشنقة سأله أحد التراجمة عن هويته، ولما وضع الحبل في عنقه هتف بكل ما بقي له من قوة:

ـ حفظ الله ألمانيا!
وبعد وقفة قصيرة سأل قائلاً:
ـ هل أستطيع أن أقول شيئاً آخر؟
وسمع العالم للمرة الأخيرة صوت وزير خارجية الرايخ يتلجلج بهذه الكلمات:
ـ إن أمنيتي الأخيرة هي أن تحقق ألمانيا وحدتها وأن يتحالف الشرق والغرب!

وبينما كان حبل المشنقة يهوي بجثمان ريبنتروب، كان المارشال كايتل وهو أكبر المحكومين سناً وعمره ٦٤ سنة، يتقدم نحو المشنقة الثانية بخطى ثابتة ورأس مرفوع وفكين مشدود كل منهما إلى الآخر، ثم يقول:

ـ إني أتضرع إلى الله الكلي القدرة وأسأله أن يشفق على الشعب الألماني، أكثر من مليوني جندي ألماني ماتوا فداء وطنهم، وها أنا الآن ألحق بأبنائي من أجل ألمانيا.
وجاء كالتا نبرونير أصغر المحكومين سناً وعمره ٤٣ سنة، بقامته المديدة وثوبه الأزرق ذي الخطوط الداكنة، فقال برصانة ووقار:

ـ لقد أحببت شعبي ووطني بكل ما في قلبي من قوة وحرارة، وإني أرثي لحال المانيا التي وجهها رجال ليسوا جنوداً ودفعوها إلى ارتكاب جرائم لم أشترك أنا فيها. عاشت ألمانيا!

وتسلق روزنبيرغ بثوبه الأسمر ووجهه بلون الرماد، درجات السلم وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال، ثم أشار بأنه لن يتكلم.

وأما فرنك الذي اعتنق المذهب الكاثوليكي وهو في سجنه على يد مرشده الكاهن أوكونور، فقد وقف متهلل الوجه بثوبه الرمادي العريض وبوجهه الأصفر وشفتيه الحمراوين، وقال بصوت منخفض:

ـ إنني أشكرك يا أبت لما أبديته لي من اهتمام طوال مدة سجني، وإني أتوسل إلى الله أن يرعاني برحمته.

أما فريك الذي كان يشنق في تلك اللحظات فلم يقل شيئاً.

وبعدما حيا سترايشر بالتحية الهتلرية: «هايل هتلر...!» قذف الضابط الأميركان بأقذع الشتائم وقال لهم:

ـ إن البولشفيك سيشنقونكم جميعاً يوماً من الأيام..

ثم هتف قائلاً:

ـ وداعاً يا زوجتي الحبيبة أدال!

وهتف سوكيل قائلاً:

ـ إنني أموت بريئاً فالحكم الذي قضي به عليّ حكم ظالم، حفظ الله ألمانيا وأمد بحياتها لتعود عظيمة كما كانت.

وكان الجنرال جودل يرتدي ثوبه العسكري مثل كايتل؛ وقد قال قبل شنقه:

ـ أحييك يا ألمانيا، يا وطني الحبيب.

وكان سايس إنكارت آخر من شنق من المحكومين، وكان يتسلق الدرجات الاثنتي عشرة بمشقة ويقف على كل درجة، وبعدما بلغ المشنقة قال:

ـ أرجو أن تؤلف هذه الأحكام الفصل الأخير من المأساة التي خلفتها الحرب العالمية الثانية، وأن يعم السلم والتفاهم بين الشعوب.. إنني أؤمن بألمانيا.!

وفي الساعة الثانية والدقيقة السابعة والخمسين من صباح ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٤٦، كان قد انتهى إعدام كبار مجرمي الحرب.

وبعدما ضمت جثة غورنغ المنتحر إلى جثث المشنوقين، جاء أحد الموظفين يدقق في محاضر الوفاة، ثم صور بعض المصورين الفنيين من ضباط الجيش الثالث الأميركي الجثث كلها.

وفي الساعة الخامسة صباحاً وقف الكاهن الكاثوليكي الأب أوكونور وزميله البروتستانتي جيريك يصليان على هذه الجثث بعدما وضعت في توابيتها، بحضور الشهود الذين لا يتجاوز عددهم الاثني عشر، وما أن انتهى الكاهنان من الصلاة حتى أطبقت الأغطية على التوابيت وأخرجت من باب سري تضليلاً للفضوليين،

لتحرق في الموضع الذي عين لذلك الغرض! . . .

وإذا كانت محكمة نورمبرغ قد اقتصرت على محاكمة كبار مجرمي الحرب، فإن ألمانيا قد شهدت محاكمات أخرى كثيرة أمام المحاكم العسكرية التي ألفتها دول الحلفاء، وقدم لها عدد كبير من الألمان بوصفهم مجرمي حرب.

ويقول المؤرخ الانكليزي هربرت فيشر إن الحلفاء قد اتخذوا من هذه المحاكمات فرصة يعلنون فيها للعالم وللألمان بوجه خاص، اعتداءات الألمان على القانون الدولي والمبادىء الإنسانية «ولكن يبدو أنه لم يكن لهذ المحاكمات الأثر القوي في نفوس الألمان الذي استهدفه الحلفاء منها، ولم تقنع الأمة الألمانية بأنها اقترفت حقاً هذه الجرائم التي يحاكم من أجلها نفر من أبنائها. كما أن هذه المحاكمات أثارت نقداً غير قليل حتى في بريطانيا والولايات المتحدة، فطعن كثيرون بأن تأليفها خارج عن نطاق القانون الدولي، وأن قضاتها كانوا أدوات انتقام وتشف أكثر منهم موازين عدل، وأن بعض إجراءات هذه المحاكم لم تخل من الشوائب التي دنست روح العدالة، والحق أن الزمن خير حكم في شرعية هذه الهيئات القضائية، أو في مجافاتها لروح العدالة، غير أن إنشاء هذه المحاكم وضع سابقة دولية خطيرة قد يكون لها آثار بعيدة، فإنها ستبيح للجانب المنتصر في حرب ما، حق تقديم أعدائه المهزومين إلى المحاكمة بوصفهم مجرمي حرب خارجين على أحكام القانون الدولي!»

جاك ... سفاح لندن وباقر البطون!

إن شبح ليالي الإيست إند (الضفة الشرقية) في لنـدن، يسحق تحت ظله كل الصور التي يمكن أن يوقظها فينا تاريخ الجرائم الجنسية.

كان جاك باقر البطون يقتل بسرعة صاعقة، ثم يغيب في الضباب، ونظراً لأن أحداً لم يستطع أن يرسم أي ملامح دقيقة لوجه سيد الرعب هذا، فقد غدا في نظر الكثيرين شخصية شعبية، واختلط في الأذهان بذلك الشبح الذي جسده الكاتب الإنكليزي ستيفنسون وصوره في روايته الشهيرة «الدكتور جيكل والمستر هايد».

إن الأمر لم يكن يتعلق بطبيب جراح كما في رواية ستيفنسون، بل بمحام يدعى مونتاغ جون دروي، غدا بسبب انعدام الزبائن معلماً متواضعاً في المدرسة الخاصة في بلاك هيث. وقد كان يعيش عازباً في شقة هادئة استأجرها في أنيرتامبل ٩ كنج بانش ولك. وكان هذا الشاب دائم الوحدة ملفوفاً بالأسرار، والراجح أنه خرج ذات يوم يتمشى على ضفة «التايمز» دون أي اهتمام بمظهره، ثم رمى نفسه في النهر بعدما أثقل جيوبه بأحجار كثيرة حتى لا يطفو على سطح الماء. وكان التيار سريعاً، وقد وجدت جثة الغريق في أوائل كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٨٩.

ومنـذ تلك الفترة لم يعـد الناس يسمعـون بعمليات خنق كـانت تتعرض لهـا الفتيات في «وايت شابل»، فهل يكون ذلك دليـلاً على أن المحـامي الشاب كـان

القاتل الذي يملأ لياليه بجثث مبقورة البطون؟!

لا توجد مومس، إذا ما دفعت إلى البوح والاعتراف، إلا ولديها ما تقوله من أنها ذات يوم وهي برفقة زبون ما، قد أحست بلحظة رعب لا سبب لها، إن أقدم مهنة في العالم تكون أحياناً مهنة خطيرة. فمن هن النساء اللواتي يتعرضن أكثر من سواهن للانفعالات السادية، إن لم يكن اللواتي يستقبلن في أسرّتهن رجالاً غرباء مجهولين؟ ومنذ القدم وبيوت الدعارة تتهم بأنها مدارس حقيقية للتصرفات الشاذة.

إن بين المصابين بالعصابية فصيلة من اللطفاء المهووسين بالأحذية والجزمات والجوارب السود والثياب الداخلية والفراء، لكن في الزمرة الأكثر جنوناً حالات كثيرة كحالة ذلك المعتاد على شراء الأرانب في فيينا والذي سمي «زبون الأرنب»، فقد كان على المرأة التي يختارها أن تمسك بالأرنب من أذنيه وأن يقوم هو بذبحه، حتى يستطيع الوصول الى ذروة متعته الجنسية، وهناك من هم أسوأ من هذه الزمرة، فكم من مومس عثر عليها عارية ومخنوقة فوق سرير في غرفة فندق، إنها صورة رهيبة من لعنات القدر!

وهذه الصورة تتلاءم بأكثر ما يمكن من الكثافة مع ديكور مدينة لندن الليلي، فهي تبدو مطابقة لتقليد ما يزال قائماً فيها منذ ذكرى جاك باقر البطون.

كلاب سكوتلانديارد

في كل مدن العالم، تخاطر الفتيات اللواتي يبعن أجسادهن بأن يقدمن رقابهن ذات مساء إلى دغدغات خانق نساء، مقابل ميتة مثالية راعبة تزيل حياتهن القليلة الأهمية.

وفي ضباب التايمز يزدهر في جو من القلق الكبير، الخوف من الميتات العنيفة المبكرة. إنه ذلك الشبح ذو اليدين القاسيتين الذي يراود الأحلام المغرقة بالكحول، أحلام فتيات الأمكنة العامة والحانات، إنه هو الذي يختلط بالظلال التي يهرّبها على الطرقات العريضة المكنوسة بالريح، النهار الصقيعي الضارب إلى الزرقة.

ومرة أخرى، في تلك السنة، اضطرب الحبل في الحي المثير الجامع في المدينة الواسعة، فقد وجدت فرنسية مقتولة في الشقة الصغيرة التي تقطنها في لكسنغتون ستريت.

في تلك الأيام لم يكن حي «سوهو» قد غدا مثلما هو عليه اليوم، أي نوعاً شبيهاً ببيغال باريس حيث أندية التعري التي تعمل ليلاً نهاراً تتجاور وتلك المكتبات اللامعقولة المتخصصة ببيع الكتب الجنسية والصور والأفلام الخلاعية، والتي اختفت منه عملياً، في مقابل ذلك، كل الباحثات عن الرجال في زوايا الشوارع، بعدما طردهن البوليس من على الأرصفة.

مرة أخرى إذن أطلقت سكوتلانديارد أمهر كلابها البوليسية، إلا أن اللغز كان معقداً عسيراً على الحل، كما في قضية قتل نيغي الفرنسية التي وجدت كذلك مخنوقة في سريرها، وكما في جريمة القتل الأكثر قدماً التي ذهب ضحيتها نورا أبشرش وقد وجدت مخنوقة في دكان خالية في شارع شفتسبرغ. لم يكن هناك من دليل، وكان العالم المحيط بالضحايا صامتاً بشكل غريب.

كان شارع ألكسنغتون شارعاً ضيقاً، في منطقة من أشد مناطق سوهو ازدحاماً بالسكان. وكان البيت الذي ارتكبت فيه الجريمة، يقع في الطابق الثاني فوق دكان حلاق. وكانت جانيت كوتون تقطن فيه منذ ست سنوات مع عشيقها وهو طباخ إيطالي، ومع ابن عشيقها وهو غلام في الرابعة عشرة من عمره كانت تحبه وتعنى به.

كانت مهنة جانيت المهنة المألوفة لجميع الفرنسيات اللواتي كن يبعن أجسادهن في شوارع لندن آنئذ. وكان حاميها الباريسي قد دفعها إلى أن تتزوج زواجاً أبيض، قبل ذلك بعشر سنوات، من متشرد إنكليزي، وبعد بضع سنوات، وفي ظروف غامضة، تركت المتشرد الذي كان يستثمرها، ومنذ ذلك الحين انفصلت عن ذلك الوسط، وبدأت تعيش عيشة متكاملة مع الإيطالي الذي يعمل في أحد المطاعم الليلية. وكان ابن الإيطالي يعتبر جانيت كأم له، وهناك من يقول إن محبتها لهذا الطفل هي سبب علاقتها مع أبيه.

وهذا الغلام كان أول من اكتشف المأساة، وقد ظن أن المسكينة مغمى عليها،

ثم لاحظ المنديل حول عنقها وكانت تعقده دائماً حول شعرها، فمد يده إلى وجهها وإذا به بارد برد الموت، فأصيب بالرعب وهرع يستغيث، ونادى أحد العابرين طبيباً، ووصلت الشرطة بدورها إلى المكان.

ولم تكن السرقة الدافع إلى الجريمة. فقد عثر على المبلغ الضئيل من النقود التي كانت الضحية توفرها سالماً. وبرزت فرضية أخرى أمام الشرطة: القاتل السادي، فقبل ستة أشهر، وعلى مئة متر من المكان الذي قتلت فيه جانيت كوتون، وجدت الفرنسية نيغي مخنوقة بنفس الطريقة وبواسطة الجورب، وبعدئذ وعلى عدة مرات، ذهب بعض الفتيات المحترفات ضحية أعمال عنف يقوم بها زبون عجيب.

ففي ذات مساء دخلت فرنسية أخرى اسمها لولو إلى صيدلية ليلية في «بيكاديللي سركس» متورمة الوجه، ولم تلبث حتى أغمي عليها. وقد حل الصيدلي القسم الأعلى من ثيابها ووجد على نهديها آثار أظافر. كما وجد على عنقها خطوطاً بنفسجية طويلة، لا شك في أنها كانت آثار محاولة خنق.

وحين عاد إليها صوابها، لم تستطع المسكينة أن تعطي إلا معلومات غامضة عن المعتدي: جهم، أسمر، أنيق الثياب، ورفضت أن تقول أكثر من ذلك.

بعد أسبوع، لم ينقذ حياة إحدى صائدات الرجال في «سوهو» إلا تدخل خادمة الطابق الذي تسكنه، فيما كان الرجل الأسمر قد مددها عارية على السرير وراح يضغط على عنقها.

وأخيراً وبعد بضعة أيام، وجدت مومس ايرلندية مذبوحة في شقتها، وكان اضطراب الشرطة لم يهدأ بعد، حين عثر على أم المومس مذبوحة أيضاً في شقتها، وكانت كلتاهما تحمل آثار الخانق المميتة نفسها.

وانتشر الرعب من جديد، كانت العجائز يرتجفن وهن يتذكرن القصص التي سمعنها تهمس خلف الأبواب عندما كن في سن العشرين ولم تعد الفتيات في شارع جيرار ومحطة ليسستر يجرؤن على التعرض للمارة. كن يهربن بمجرد أن يقترب

منهن أي ظـل في الشوارع الضيقـة المعتمة وكـان الـرؤسـاء في سكـوتـلانـديـارد يتساءلون بحيرة وقلق: أتكون هذه هي المغامرة الكبرى التي فقد فيها أسـلافهم شهرتهم ووظائفهم. وقد جاء دورهم فيها الآن؟ أتكون قصة أخرى شبيهة بقصة جاك باقر البطون؟ وعاد شبح جاك يحتل الليل.

لقد ظل حي وايت شابل على ما كان عليه في القرون الوسطى تقريباً، وقد بدا أنهم أرادوا أن يجعلوا من هذه الزاوية الملعونة في العاصمة الإنكليزية نوعاً من غيتو الشقاء والبؤس واللصوصية. الطرقات فيه تتشابك مظلمة، دون أرصفة، غاصة بالبيوت السوداء، كان يبدو أن نهر«التايمز» قد جمـع هنا كـل الوحـول والنفايـات وما كان يرى هناك غير ظلال خفية، وأحياناً وجه غير منتظر لرجل زنجي أو صيني يكشفه ضوء المصباح الأصفر.

في السادس من آب (أغسطس) من سنة ١٨٨٨، وفي ليلة عيد حارة محمومة، اخترقت صرخة بيتاً مفروشاً في «كومر شال رود»، صرخة تبعتها تنهدات، غير أن بعض السكان كانوا مسطولين من السكر، وكان الآخرون من ذلك الصنف الذي لا يحب أن يتدخل في شؤون الآخرين، وكان لا بد من طلوع النهار حتى تكتشف على عتبة الطابق الأول جثة امرأة.

تقرير من المخفر

وفي ذلك الصباح تلقى الجنرال «السير شارلز وارن» قائد الشرطة اللندنية، وهو في مكتبه في سكوتلانديارد، هذا التقرير من مخفر المنطقة:

«لقد عثر على جثة امرأة مقتولة بطعنات سكين، لقد هاجمها قاتل، إن في عنقها وبطنها ٣٩ طعنة، إنها مبقورة من الأعلى إلى الأسفل. وقد عرفت هويتها فـوراً، فهي امرأة فقيرة في الأربعين من عمرها، ترتدي ثياباً مزرية، اسمها مارتا تـورنر وتتعاطى الدعارة، وقد تعرف عليها زوجها بصورة جازمة، لكن مما لا شك فيه أنه لا هذا الرجل ولا الأقارب النادرون لهذه المغدورة هم الذين ارتكبوا الجريمة، إن مومساً ثانية تدعى برل بول كانت صديقة للمغدورة قد أمضت السهرة معها. فقد

التقتا في أحد الكباريهات جنديين فاقتسمتاهما، ومن المحتمل إلى حد كبير أن يكون الجندي الذي اصطحبته مارتا تونر هو قاتلها.

وألقى السير شارلز وارن الرسالة من يده بقرف. فالقضية لم تكن مثيرة حساسة: مومس مقتولة بيد زبون سكران! وكان من الممكن القبض على الرجل في المساء ذاته، وشنقه في مدى شهر!

ولكن الجنرال العظيم كان مخطئاً، وقد اضطر فيما بعد إلى التأمل كثيراً في هذا التقرير الأولي، فإن أحد أكثر الألغاز العجيبة الإجرامية التي ألمت بمعرفة الناس قد ابتدأ.

ولم يعثر على الجندي الذي اصطحب مارتا تورنر معه. وقد عرضت على رفيقتها برل بول صور جميع الجنود الذين كانوا في إجازة ليلية. كان العرض مسلياً لكن الفتاة لم تتعرف على أحد.

بعد أسابيع ثلاثة، في الواحد والثلاثين من آب، وفي منتصف الليل، اصطدم سائق عربة في بوكس رو بما يشبه الرزمة الملقاة أرضاً. كانت جثة امرأة. وكانت هذه الجريمة شبيهة بسابقتها. كانت المرأة مبقورة البطن. وكانت هي أيضاً، مومساً من الطبقة المنحطة، واسمها ماري نيكولا.

بعد ذلك بعدة أيام وجدت مومس ثالثة اسمها آني شايان مبقورة البطن، وقد عثر على جثتها في باحة همبري الصغيرة. وهذه المرة حشدت سكوتلانديارد خيرة الاختصاصيين فيها. فقد كان لا بد من الانتهاء من هذه المشكلة.

كان الأطباء الشرعيون على اتفاق. إن القاتل هو نفسه في الجرائم الثلاث. وقد اتفقوا أيضاً على أن طريقته في القتل منفذة بالدقة نفسها، فهو أعسر، والأداة التي يستعملها هي أداة طبيب جراح، واندفاعه الذي كان عجائبياً، كان في الوقت ذاته محسوباً ونموذجياً. كان يقطع رقاب ضحايا، ثم يبقر بطونهن، وكان يصل أحياناً الجرح بالجرح، شاقاً الجسم كله إلى اثنين، وأحياناً يقطع الأنف والأذن، وكان أحياناً يسرق عضواً من الجسم، مثل الرحم أو القلب، وقد تسلى حين قضى على الضحية الثانية بإخراج أحشائها وبوضعها داخل رزمة ثم وضع الرزمة على كتف

المرأة الأيسر.

ولم يترك في الجريمتين الأوليين أي أثر، أما في الجريمة الثالثة فقد وجد غلافان مجعدان وملطخان بالدم لا بد أنهما للقاتل، لكن العنوان لم يكن عليهما.

وقد انتزع القاتل حلقتي نحاس من إصبع آني شايمان، ووضعهما على الرصيف قرب الجثة، مضيفاً إليهما قطع عملة برونزية، وبذلك صنع شكلاً هندسياً عجيباً.

ولم يتوصل أحد لمعرفة الدافع لجرائم القتل هذه. فقد اختيرت الضحايا من بين أكثر المومسات فقراً. ولم تكن آني ولا مارتا ولا ماري ليملكن حتى الدراهم الضرورية لدفع أجرة الفندق، وكن ينمن أغلب الأحيان في ملجأ الليل. كانت ثيابهن ومخلفاتهن رثة ومتسخة. ولم يكن لهن أعداء، فهن يقمن بمهنتهن بكل تواضع. وما كان في وسعهن أن يؤرثن ضغينة. وكان لا بد من الانتهاء إلى التفكير بأن القاتل هو سادي أو مجنون، لا سيما وأن طبيعة الجروح كانت تدل على ذلك.

وقد تخلى البوليس عن تعقب آثار الجندي.وعبثاً حاول أن يبحث عن آخر رجل شوهدت معه آني شايمان قبيل موتها، وكان كما يقال بورجوازياً ملتحياً كبير الشاربين، يرتدي معطفاً أسود وقبعة مرفوعة من جانبيها.

في تلك الأثناء جن جنون لندن، ولم تعد مومسات وايت شابل وقد دب الهلع في قلوبهن، ليغادرن منازلهن الى الشارع، وراحت الرسائل الغفل من التوقيع تتراكم على طاولات سكوتلانديارد. وكانت أي جملة في غير محلها أو أي إشارة عابرة، كافية لإثارة الناس وخلق الاضطراب في عمارة أو في حي بأكمله. وقد اتهم وأوقف تباعاً أشخاص عديدون ما لبثت الشرطة حتى أطلقت سراحهم، كما أن عدة مجانين كانوا يأتون ليقولوا للشرطة مبتسمين: «أنا هو القاتل!».

في الثلاثين من أيلول (سبتمبر) ضرب القاتل ضربته الرابعة. فقد كان في برنر ستريت، نوع من الأمكنة العامة يدعى «النادي العالمي للعمال» وكان اللاجئون السياسيون من روسيا وأوروبا يجتمعون فيه، وقد أقيمت فيه تلك الليلة حفلة راقصة، وانصرف جميع المدعوين تقريباً حوالي منتصف الليل، وبعد ساعة تقريباً اكتشف مدير النادي في الساحة خلف البناية امرأة مقتولة.

رسالة التحدي

كان اسمها إليزابيت ستريد من أصل سويدي، وقد عاشت حياة سعيدة، لكنها ما لبثت حتى سقطت، ومن سقوط إلى آخر انتهى بها الأمر لأن تغدو مومساً من أحط طبقات المومسات في وايت شابل. وأُوقظ رؤساء الشرطة حالاً، وفيما كانوا مجتمعين بعد منتصف الليل، دخل شرطي وهو بحالة هياج، ذلك أنه في متر سكوير، قريباً جداً من المكان الذي اكتشفت فيه جثة إليزابيت ستريد منذ قليل، عثر أحد عمال الخدمة الليلية على جثة امرأة بائسة أخرى، كان بطن كل من الضحيتين مبقوراً بالطريقة نفسها، وأمعاؤها مندلقة إلى الخارج، هنا أيضاً وقّع القاتل توقيعه المألوف.

في اليوم ذاته تلقت وكالة الأنباء الصحفية في لندن رسالة هذا نصها:

«سيدي العزيز

إنني ما أنفك أسمع أن الشرطة قبضت عليّ لكن الشرطة لم تزل غير مهيأة للقبض عليّ، وعندما يقولون إنهم في الطريق الصحيح فإن هذه المزحة تضحكني حتى تدمع عيناي. لن أتوقف عن بقر البطون إلا عندما يلقى القبض عليّ. كانت جريمتي الأخيرة مجزية جداً. لم أدع للسيدة وقتاً تصرخ فيه. كيف سيتمكنون من القبض عليّ الآن؟ إنني أحب عملي. وسوف استأنفه من جديد، وعما قريب ستصغي إليهم وهم يتحدثون عني وعن ألعابي الصغيرة العجيبة. لقد تركت قليلاً من العصارة الحمراء الجميلة في جرة البيرة، وكنت أريد أن أكتب لك بها. لكن تلك العصارة غدت متجمدة كثيفة مثل الصمغ. ولم أستطع استخدامها. إن الحبر الأحمر على ما آمل... آه، آه، إن الجريمة التالية التي سأرتكبها سأقطع فيها أذني السيدة، وسأرسلهما إلى ضابط الشرطة، بقصد المزاح فقط. احتفظ بهذه الرسالة إلى اليوم الذي أكون قد ارتكبت أعمالاً جديدة. ثم أعدْ فأنشرها. إذا وجدت في نفسي الهمة فسأستأنف أعمالي فوراً. حظ سعيد.

جاك باقر البطون

ملاحظة أخيرة: لا تبالِ إذا كنت قد ذكرت لك اسمي التجاري».

وظن أن الرسالة عبارة عن مزحة، لكن ما أسرع مـا اكتشفوا أنها كتبت قبـل اثنتي عشرة ساعة من ارتكاب جريمة قتل إليزابيت سترـيد، ذلـك أن هذه المرأة وجدت مقطوعة الأذنين.

وفي هذه المرة اجتاح الجنون لندن، فقد غدا لدى الناس اسم يتمسكون بـه: جاك! وبدا لهم أنه صار في وسعهم تصور القاتل العجيب، ومن الوست إند الى الإيست إند (الضفة الغربية والضفة الشرقية لنهر التايمز)، ومن مخازن ستراند إلى حانات وايت شابل، لم يعد من حديث للناس إلا عن جاك باقر البطون، جاك ذي اليدين الملطختين بالنجيع!

وغدت الشرطة أضحوكة الجميع. وكان الهجوم عليها يتخذ طابعين، فبعضهم كانوا يثورون ويتحدثون عن الإهمال وعدم الكفاءة، وكانت الصحف تصدر كل يوم مطالبة في صفحتها الأولى، بتجنيد قادة سكوتلانديارد جميعهم، وكـان بعض النواب يثيرون المسألة في مجلس العموم.

وعلى العكس من ذلك، راح آخرون يخوضون في الأمر بلهجة هازئة ساخرة، وأخذت الصحف تنشر في أعمدة كـاملة اقتراحـات يبعث بها قـراؤها. فبعضهم يقترح أن يلبس رجال شرطة أقوياء، ألبسـة نسائيـة، وهكذا يمكنهم أن يـورطوا المجرم مصاص الدماء، الذي ما إن يشهر سلاحه حتى يرى نفسه مكبلاً بالقيود. واقترح آخرون أن يزود جميع الشرطة بأحذية مطاطية بحيث يستطيعـون الظهـور على مسرح الأحداث دون ضجة.

كانت الأفكار متوترة بهذا الشكل إلى درجة أثارت قلق الشرطة وحيرتها. ورد السير شارلز وارن بوقار حاد وبلهجـة قاسيـة على من يـريدون أن يـرتدي رجـال الشرطة ألبسة نسائية ،بأنـه لا يمكن إيجاد أحـذية نسـائية عـلى قياس أقـدام رجال البوليس.

وتبنى الفكرة شاب صحفي، أشقر، طري العود، دقيق الملامح، وراح خلال ليال وليال يتسكع على أرصفة وايت شابل، وقد تنكر بزي امرأة، وأخفى مسدساً في كم سترته. وقد تعرض للهجوم عليه، ولكن ليس من قـاتل للنسـاء، بل من

رجل شرطة، أثارت القلق في نفسه المشية المشابهة لمشية قاتل متسكع.

وقد انبعثت في نفوس الناس جميعهم نفسية رجل المباحث. إن العلامات التي عممت عن زبون آني الأخير، والوقائع التي تدل على أن القاتل ملم حتماً بأساليب التشريح، وأن سلاحه كان المبضع على ما يبدو، والخط الدقيق الأنيق الذي كتب به الرسالة،كل ذلك جعل الناس يخمنون أن المجرم جاك كان جراحاً، أو طبيباً على أقل تقدير!

وقامت جمعية الأطباء برفع احتجاج رسمي، واجتاح المدينة نوع من الهستيريا. ففي كل الزوايا في جميع الشوارع كان ينبري خطباء مرتجلون. يقفون على الكراسي، فيعظون الشعب ويطالبون قادة الشرطة، وكان الجنرال وارن الذي جن جنونه، يعقد المؤتمرات ليدافع عن الشرطة، لكنه كان يضطر إلى الهرب من جراء رشقه بالبطاطا والبندورة.

وتابع رجال الشرطة أبحاثهم رغم الحقد في قلوبهم، وصراعهم ضد الرعب، فعثروا بين أصابع اليزابيت ستريد المتشنجة على عنقود عنب، وكان لا يمكن أن يكون هذا العنقود مقدماً لها إلا من قبل قاتلها، ولا بد من أن يكون هذا قد اشتراه من البائع المقيم في زاوية برنر ستريت. وقد أدلى هذا البائع بأنه ربما يتذكر بأنه باع عنباً، قبل الجريمة بساعة، لرجل أسمر متدلي الشارب يتدلى على ذراعه اليمنى خرج أسود.

وانطلقت الشرطة في هذا الاتجاه، وشغل الخرج مخيلة الناس فاتجهت أذهانهم إلى أن القاتل طبيب والخرج يحتوي أدوات الطبيب.

ولوحظ أن جاك يرتكب جرائمه دائماً في نهاية الأسبوع. وكان اقتراب نهاية الأسبوع يشيع الرعب دائماً في وايت شابل. وقد شكلت جميعة مراقبة خارج الشرطة، ترأسها رجل نشيط اسمه جورج لوسك، وتلقى هذا الرجل رسالة من القاتل يقول فيها:

«أكتب إليك هذه الرسالة بالحبر الأسود، لأنه ليس لديّ السائل الحقيقي: الدم، لكنني سأقوم معك بمزحة سمجة» جاك باقر البطون.

وفي اليوم التالي اكتشف قرب الأوبرا جسد امرأة مبقورة البطن ومشوهة تدعى كاترين أدوس، انتزع القاتل إحدى رئتيها، وبعد يومين تلقى رئيس الجمعية جورج لوسك هذه الرئة موضوعة في علبة!

وفي التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) جاء دور ماري جان كلي. لقد هوجمت هذه المرأة في غرفتها الحقيرة التي كانت تشغلها في سبيتلفيلد، وقد قطعت جثتها تماماً، وقبل أن يغادرها القاتل انتزع نهديها بكل عناية، ووضعهما على الطاولة.

وفي الثاني والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) وجدت أليس دوبي مذبوحة في شارع الإيست إند، ثم وجدت الغسالة أليس مالنري مذبوحة ومشوهة، وكانت تقضي أوقات فراغها في الحديقة. ثم ذبحت امرأتان أيضاً، ودائماً في الوايت شابل.

وعلى اثر ذلك استقال الجنرال شارلز وارن، وفي الوقت نفسه اختفى جاك السفاح ولم تسقط بعد ذلك أية ضحية.

لقد عاد الاطمئنان إلى نفوس مومسات الوايت شابل وعدن إلى الأرصفة، وحدث شيء عجيب: لقد بدا أن الشرطة توقفت عن الاهتمام بالتحقيق والبحث عن السفاح، وأعطيت كلمة السر إلى الصحافة فتوقفت عن إثارة هذا الموضوع، كما لو أن جاك قد اكتشف ولم يعد في وسعه أن يضر بأحد. فهل اطمأنت الشرطة إلى أن غريمها هو ذلك المعلم البائس المنتحر، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا تمنع الصحافة عن مواصلة تحقيقاتها في هذا الموضوع؟!

إن هذا الموقف المريب أثار الشكوك لدى بعض الفضوليين، فراحوا يتهامسون في الخفاء بأن جاك باقر البطون ليس سوى الدوق كلارنس حفيد الملك فيكتوريا والشقيق الأكبر لأمير الغال (الملك إدوارد السابع فيما بعد)، الذي كان معروفاً بتصرفاته الغريبة، وقد وجد ذات مرة في بيت منحط من بيوت الدعارة إثر اقتحامه من قبل الشرطة.

وظلت هذه الهمسات تخفت شيئاً فشيئاً حتى طويت تماماً لفقدان الدليل الذي يثبتها، ثم عادت فترددت بعدما يزيد على ثمانين عاماً، إثر مقال نشره الدكتور

ستويل سنة ١٩٧٠، في المجلة البريطانية «كريمينولوجيست» المتخصصة في عالم الجريمة، وقال فيه إن جاك باقر البطون كان سليل أسرة ذات مكانة رفيعة في المجتمع البريطاني وإن جدته وأفراد أسرته يتمتعون بالاحترام والتقديس، وإن رجال الشرطة قد عرفوه ولكنهم كانوا مضطرين إلى التكتم بشأنه وعدم إذاعة اسمه الحقيقي، وهذا هو السبب الذي دعا الجنرال وارن الى الاستقالة من منصبه.
وأضاف الدكتور سويل أن هذا الأرستقراطي قام برحلات عدة في الخارج وعاد منها مصاباً بالسفلس الذي يؤدي بمن يصاب به إلى الجنون، وأنه كان يعالج لدى طبيب شهير مختص بالأمراض العقلية هو الدكتور السير ويليام غول. ولدى التحقيق في سيرة الدوق كلارنس تبين أنه قام برحلات متعددة الى الخارج، وأنه كان يعاني اضطرابات عصبية ويقوم ببعض التصرفات الشاذة، وكان يعالج لدى الدكتور ويليام غول، وكانت سنيه الأخيرة تعيسة جداً لأنه أحب الأميرة هيلين دورليان، ولم يستطع الزواج منها لأنها كاثوليكية، فعقد خطبته على ماي تيك، ولكنه توفي قبل أن يتزوج منها، فزفت فيما بعد الى الملك جورج الخامس، وكانت وفاته سنة ١٨٩٢، أي بعد توقف جرائم جاك بأعوام ثلاثة.

ولكن جميع هذه القرائن لا تثبت أن الدوق كلارنس هو باقر البطون، مما حمل رجال الصحافة على استجواب كاتب المقال الدكتور سويل لمعرفة اسم السفاح، فرفض الادلاء به وأصر على كتمانه، وظلت هذه القضية لغزاً مستعصياً على الحل.

من اغتصب بنت الريف سيسيل ؟

عبر التاريخ القضائي ، نصادف أحياناً ذلك النوع من القضايا المؤلمة التي أعمت فيها العواطف العدالة، وانتصرت الأحقاد الدفينة المتولدة عن التعصب، على التفكير وعلى الشبهات. ترى هل تكون قضية الراهب ليوتاد التي أشعلت تولوز في منتصف القرن التاسع عشر، من هذا النوع الذي يترك في النفس شعوراً بالأسى والضيق؟!

كانت قضية قتل واغتصاب ذهبت ضحيتها فتاة في الخامسة عشرة. وكانت فرنسا تتمخض بثورة سنة ١٨٤٨ ، وليس من يجهل موجات الاضطهاد التي تعرضت لها الكنيسة ورجال الدين أثناء هذه الثورة، وسابقتها ثورة سنة ١٧٨٩ !

وقد أثار شكوك الرأي العام، أن جثة المراهقة اكتشفت في مقبرة سان أوبان التي يفصلها عن بستان رهبان العقيدة المسيحية جدار.

وكانت الصبية سيسيل قبل اكتشاف جثتها بيوم، قد رافقت معلمها، وكانت تعمل عنده كمبتدئة في صناعة تجليد الكتب، رافقته الى بيت الرهبان لتسليم كمية من الكتب المجلدة حديثاً.

وحين انتهى التسليم، طلب معلم سيسيل منها، قبل أن يصعد لإجراء

المحاسبة مع أحد الرهبان، أن تنتظر عودة السلال الفارغة.

وقال إنه لما عاد، رأى أن سيسيل لم تكن موجودة، وكانت مظلتها مسندة إلى جدار الممر. وانتظروا بعد الظهر كله، وكل الليل، عسى أن تظهر إشارة تنبىء بوجودها، دون جدوى، ولم يعثر حارس المقبرة على الجثة إلا في اليوم التالي.

ولم يكن على جسد الضحية أي أثر للخنق، لكنها كانت تحمل آثار جروح في رأسها، وآثار دم في راحتيها، وخدوش وتمزقات في مواضع حميمة من جسمها، بدت وكأنها آثار للعنف الممارس على الضحية، لإنجاح عملية اغتصابها.

واتجه التحقيق نحو بيت الرهبان، ولا شك أنه كانت هناك عدة منازل في الجوار كان يمكن أن تكون الجريمة قد ارتكبت فيها، وبعضها بيوت دعارة، واكتفي بطرح الأسئلة على أصحاب هذه البيوت عما إذا كانوا رأوا فتاة تمر وتنطبق عليها أوصاف العاملة المبتدئة، في حين أن بيت الرهبان المؤلف من قسمين كان موضع تنقيب من أساسه حتى آخر حجر فيه، وحتى الرماد والنفايات فيه فحصت، والمراحيض أفرغت. ذلك لأن كل شيء كان قد تجمع حول الفكرة التي زعمت أن عملية الاغتصاب والقتل هذه «ليست ثمرة تهتك ودعارة، بل هي نتيجة انفجار عفاف إنسان ظل مكبوتاً وقتاً طويلاً».

ولدعم هذه الفرضية، كان لا بد من التسليم، بأن جثة سيسيل قد طوّحت، إثر ارتكاب الجريمة، من فوق جدار بستان الرهبان، إلى داخل سياج المقبرة.

وقد عثر من ناحية جدار البستان، على عشب مسحوق وآثار سلّم وأقدام، وعلى قمة الجدار، وجد أثر قشط جديد لا بد أن الذي خلفه جر شيئاً ثقيلاً. وكانت هذه أدلة في نظر المحققين لا تدحض، على أن جسد الضحية جرّ على الحائط قبل أن يُلقى به الى الناحية الأخرى.

ولاحظ بعضهم أن وضع الجثة كما وجدت لا ينطبق مطلقاً على هذه الفرضية، إذ كان الجسد مقرفصاً على الركبتين في اتجاه الأرض، وكان الذراعان متدليين والقدمان تستريحان على مقدمة الحذاء، وليس في ثياب الضحية أي فوضى. فهل يمكن أن يتموضع جسد رمي من فوق الجدار على هذا الشكل؟ فضلاً عن أن

السماء أمطرت طول الليل، وكانت الأرض مبللة، لكن جثة الفتاة كانت جافة، وكانت قطعة الأرض التي تغطيها الجثة جافة أيضاً، كما لو أن الجثة قد وضعت هكذا بهدوء. وكان يبدو أنه من السهل حملها من الخارج، ما دام باب المقبرة يفتح دون مفتاح، والحارس لا ينام في بيته.

لكن القاضي لم يتوقف أمام هذه التفاصيل. فقد ذكر أن خد سيسيل الأيسر كان ملوثاً بالتراب، واستنتج أن هذا القسم من الوجه، لا بد أن يكون ارتطم بتراب الجدار الذي يفصل بين السياجين. وأردف: ربما كان الفاعل قد حاول رمي الجثة من ناحية الشارع، إلا أن حضور بعض المارة أزعجه. وبالمقابل، إن العشب المسحوق، وآثار السلم، والتراب الملتصق بخدّ الضحية، كل ذلك أدلة تؤكد مرور الجثة من بستان الرهبان إلى المقبرة. ومنذئذ أبعدت كل فرضية أخرى.

ولا شك في أن معلم الفتاة قد اتهم للحظة، إذ كان في سلوكه العام ما يلام عليه، وكان معروفاً أنه أغوى أخت زوجته الصغيرة، وكانت هي أيضاً في الخامسة عشرة وقد حولها إلى أم. ولم يكن معلوماً لماذا اصطحب معه ذلك الصباح الفتاة سيسيل، ذلك أنه كان من الممكن حمل الكتب إلى مقر الرهبان في سلة واحدة. فضلاً عن أنه لم يشارك يوم اختفاء سيسيل في البحث عنها، وأنه اختار هذا اليوم ليسافر إلى أوش بحرية، في رحلة لم يعرف سببها ولا غايتها ولا ضرورتها.

الشهادة الحاسمة

ومع ذلك بدا أن شهادة معلم سيسيل هي التي كانت حاسمة، فقد قال في اليوم التالي إنه شاهد في الرواق حيث كانت تنتظر سيسيل، الراهبين المختصين بالأمور الاقتصادية للمقر وهما الراهب ليوتاد والراهب جبريان. وجوبها به فوراً، فأقسم الرجل أنه يقول الحقيقة، واكتفى الراهبان بالإنكار دون أن يحلفا اليمين.

وعندئذ تقدم المجلّد خطوة جديدة: إن الراهب الذي يعنيه مجلد الكتب كمذنب هو الراهب ليوتاد. وعزا إليه حركات فاضحة ومناورات كان وحده الشاهد عليها.

ولم يكتف القضاء بتوقيف الأخ ليوتاد، بل أوقف معه جبريان لأنه كان موجوداً

أيضاً في الرواق، كما سجنت العاملة العجوز لأنها لم تشاهد الراهبين المعنيين في الرواق، على أن الراهب ليوتاد وحده هو الذي أحيل إلى محكمة الجنايات.

وقد جمعت ضده أدلة جديدة، فقد وجد ما بين قميصه وجلد بطنه قشّتان مخضبتان بالدم، كما وجد على الوحل العالق بحذائه بقايا علف البرسيم، وكان اسطبل خيول الكهنة يحوي برسيماً. إذن فالجريمة، كما قال قرار الاتهام، ارتكبت في هذا المكان. وأخيراً وتبعاً لنشاط البحث، وجد في الثياب المعدة للغسيل في المقر، قميص ملوث من الداخل ومن الخارج، ولا يمكن أن يكون صاحب هذا القميص إلا ذلك الذي اتصل بالضحية.

وافتتحت الجلسات في ٧ شباط (فبراير) ١٨٤٨ في قصر العدل بتولوز.

وعلى الرغم من عينيه السوداوين المظللتين بحاجبين كثيفين، فإن الأخ ليوتاد كان ذا وجه يوحي بنقاء كبير. وكان يتكلم بصوت واضح الضعف. وقد ثار الرئيس على التحفظ الذي كان المتهم يرفق به أجوبته، إذ كان يردد:

ـ هذا هو على الأقل ما أتذكره. . .

ولا شك أنه علينا أن نفهم أن هذه العبارة إنما تنطبق على عادات من يحيون حياة الدير، حيث لا تستعمل التأكيدات مطلقاً، بسبب التواضع، وحيث يخضع كل رأي لمناقشة الرؤساء.

ـ أكنت أم لم تكن في الرواق الساعة التاسعة صباحاً؟

ـ لم أكن يا سيدي الرئيس هناك. ولم أخرج ذلك الصباح من القسم الداخلي. كنت في التاسعة أوزع مؤناً على الطلبة ثم بقيت منشغلاً في المطبخ حتى العاشرة، ثم أطعمت العصافير، وذهبت أجلب حطباً من القبو، وحوالى الحادية عشرة بعد الفرصة التي تبعت الغداء، خرجت إلى المدينة. وإذا كنت قد بدوت متردداً خلال المائة يوم من سجني، فلأنهم كانوا يعاملونني بشكل سيء جداً، ! ولم يسمح لي بحرية التذكر. ولأنني أجد فيك والداً يا سيدي الرئيس، أستطيع أن أعود الى امتلاك ذاكرتي.

ـ إنني لا أقبل هذا المديح لحلمي ووداعتي، ولا اتهام الآخرين بالتحيز ضدك.

إذن فأنت تنكر أنك مررت بالممر يوم كانت الضحية موجودة هناك؟

ـ سأظل أقول، حتى يوم موتي يا سيدي الرئيس، إن الشاهد يكذب، لقد عرفت بالحادث من خلال حديث دركي مع الراهب حارس المدخل، وكان يُسمع بين الجماهير أن هذا الفعل فعل ولد داعر.

ولاحظ رؤساء الدير أن هناك تحاملاً يلفت النظر في الطريقة التي كان الرئيس يوجه فيها الأسئلة. وتكهرب الجو حين راح الرهبان يدلون بشهاداتهم لأن مقر الرهبان كان في نظر الاتهام مكاناً حقيقياً للتآمر ضد العدالة. فمنذ بدء التحقيق، بذلت كل الجهود لتبديد الشكوك التي كانت منصبة على أحد أفراد المقر.

وكان أول من رمى نفسه في الماء إذا جاز التعبير، هو الراهب لوريان، وهو عجوز جليل يتوجه شعر ثلجي، لقد قال إن آثار الأقدام التي وجدت عند الحائط هي آثار أقدامه إذ جاء المكان لقضاء حاجة طبيعية عند الجدار. فأجيب بأنه يحتذي عادة قبقاباً، في حين أن الآثار هي آثار حذاء، لكنه أصرّ على شهادته.

ودارت الأمور في الجلسة مداراً سيئاً، فقد اشتعل النائب العام وطفق يصيح:

ـ سنرى إذا كانت هناك قوة أقوى من قوة القضاء في القرن التاسع عشر، وإذا كان هناك مجتمع له قوانين وعادات وواجبات غير مجتمع المواطنين.

وزاد الرئيس صارخاً:

ـ إن الإله الذي أقسمت به منذ قليل، هو نفسه الذي تذكره عند عتبة الهيكل، فهل تحترمه؟

وأجاب الأخ لوريان:

ـ إنني أحترمه.

ـ إنني آمر بتوقيفك.

وكاد راهب آخر يلاقي المصير نفسه. فقد اتهم بأنه قال لأحد الشهود: «ما دام يبدو لك أنك رأيت الفتاة تخرج من الدير، فإن في وسعك أن تقول إنك «متأكد» من أنك رأيتها تخرج. واعتبر ذلك فعل تلقين واضح، مكرس لتضليل العدالة.

وقال الرئيس ملاحظاً:

ـ إننا لسنا وثنيين، إن لنا ديانة مثلكم، بل وحتى أكثر منكم، فنحن لسنا شركاء في مثل هذه الفضائح!

هناك شاب يزعجني

واحد فقط من بين أعضاء المقر استطاع الثبات أمام هجوم النائب العام. كان شاباً جميل الطلعة، متألق الوجه بالعذوبة، هو الراهب إيرليد الذي فرض احترامه بالنبرة المرتفعة التي أدلى بها بشهادته، وقد قال:

ـ تأكدوا جيداً أن جمعية الرهبان تريد أن تلقي الضوء كله على هذه القصة المحزنة، لكننا في وضع من التشكيك بنا يحزننا، لأن في هذه القضية مظهراً أكثر خطورة من الطابع الإجرامي لها! هو ذلك الاتهام الذي يوجه إلينا بأننا نختلق نمطاً من الأكاذيب ومن الشهادات الزور، لنمنع كشف الحقيقة. قال النائب العام إن يديه مملوءتان بالأدلة، وأنا أتحداه أن يثبت اشتراكنا.

ـ ولقد قبلنا هذا التحدي.

ـ من الطبيعي أن ندافع عن أنفسنا ضد اتهامات ما كان يجب أن توجه إلى رجال دين.

ـ إنني أعفيك من أن تدلني على واجباتي.

ـ أكرر: إنني أتحدى أن يثبت أن رهبان العقيدة المسيحية هم مضللون.

وكان لا بد من الرجوع إلى أساس القضية، فجوبه المتهم بالشاكي وهو المجلد، فقال الراهب ليوتاد:

ـ إنه كاذب، وحياتي كلها ترفض إمكان حدوث الأشياء التي يتحدث عنها هذا السيد. وسيحاكم فيما بعد أمام ذلك الذي سيحاكمنا جميعاً.

وتدخل القاضي قائلاً:

ـ العدالة الإلهية هي دعامة العدالة الإنسانية، وسترى الحكم الذي يلفظ هنا موافقاً عليه في العالم الآخر.

وخلال ذلك تقدم عدة شهود ليدلوا بما كانوا يعتقدونه عن هذا الرجل الذي

جعل من نفسه المساعد الأول للاتهام، هو الذي تحت سقف بيتـه كان قـد اعتبر مذنباً لتعرضه للأخلاق، مستعملاً التهديد.

لقد قالت سيسيل لرفيقة لها قبل ١٥ يوماً من نهايتها المأساويـة: «هناك شـاب يزعجني كثيراً، وإذا أصغيت إليه غدوت فتاة سيئة، وهذا الرجل هومعلمي» فسألتها: «ولماذا تبقين عنده؟» فأجابت: «لا أجرؤ على أن أقول لأمي، سأترك العمل يوم أنهي تدريبي». وشوهد مجلد الكتب مرة وهو يضايق الفتاة، الأمر الذي أشعل ضده غضب زوجته. لكن هذه الإفادات التي لم تكن، رغم ذلك، لتعرّض شرف الفتاة، لم تثر حنق القاضي والنائب العام اللذين صرحـا بأن إثقـال أخلاق هـذه الفتـاة بشكوك، هـو من نوع الإسـاءة لسكان تـولوز كلهم، هم الـذي يؤمنـون بفضيلتها.

وصاح رئيس المحكمة في إحدى تلك الشـورات الشعريـة التي تظل سـراً من أسرار البلاغة القضائية:

ـ إنهم يريدون تحطيم تاج العذرية الموضوع على تابوت الفتاة البائسة.

وتسنم قاضي تحقيق منصة القضاء ليضع حداً لهذا العرض من الشهود، وقال:

ـ كنت كلما ذهبت إلى السجن، أجد الراهب ليوتاد جاثياً يصلي بحرارة، وكأنه غارق في إشراق صوفي. وخلال المائة والخمسة الأيام التي كـان فيها سجينـاً، ما كففت عن تحريضه على تنقية ضميره. كنت أقول له: «اعترف بـأنك استسلمت لانفعال ألغى لديك كل تفكير، وأنك لم تبق سيد نفسك، وإذا كنت مذنباً، فإن تبكيت الضمير يمزقك حتماً، اعترف إذن. وستجد حتى بعد جريمة كبرى كهذه، هدوء النفس، وتستطيع فوق ذلك أن تطمح برأفة القضاة، وكان ليوتاد يصغي إليّ بانتباه كبير، وكان يقول: «أعرف جيـداً أن الاغتصاب قـد يجد لـه أعذاراً، أمـا القتل، القتل؟ » . واعتقدت يومها أن ليوتاد على وشك أن يدلي باعترافات. .

وجاء دور المترافعين ولكن القلق كان يسود رجال الصحافة والقضاة والمحامين والمحلفين، إذ كان الجميع ينتظرون أخبار الثورة التي اشتعلت في باريس. ووقف محامي الادعاء الشخصي الأستاذ جولي يصف الجريمة، ويحاول أن يثبتها بالأدلة التي

جعل أهم عنصر فيها القميص الملوثة التي اكتشفت بين الثياب الوسخة في الدير، عندما وفد بريد باريس وأدخل الى القاعة. وفجأة شحب لون الأستاذ وتوقف طالباً تأجيل الجلسة إلى الغد، لقد استيقظت تولوز كما استيقظت فرنسا كلها ذلك اليوم، لتجد نفسها في ظل الحكم الجمهوري بعدما كان يحكمها الملك لويس فيليب.

وتقرر عندئذ تأجيل دعوى الراهب الى يوم آخر: «إن حالة الأفكار لا تسمح للقضاة والمحلفين، بأن يصدروا حكماً ما دامت ضمانات العدالة الجيدة من هدوء واستقلال مفقودة.

وكان هذا الأمر صحيحاً، فإن جماعة كبيرة من الثوار انطلقت في تلك الليلة، ليلة ٢٥ ـ ٢٦ شباط (فبراير) ١٨٤٨، لمهاجمة مقر الرهبان، وقد تسلق المتظاهرون جدران الدير، وخربوا البستان، ودنسوا تمثال المسيح. وكان لا بد من إرسال قوات لإعادة النظام. ووضع مخفر حراسة من الجنود في المباني. ولم يعد الموضوع موضوع تظاهرة، بل موضوع معرفة متى وأين تنتهي دعوى الراهب ليوتاد، وهل سيكون القضاة والمحلفون في منأى عن التأثر بصرخات المتظاهرين الذين يطالبون برأسه؟

وقد طالب الدفاع كما كان ينتظر منه، بنقل الدعوى الى محكمة جنايات أخرى في مدينة غير تولوز. لكن ذلك لم يكن رأي محكمة التمييز التي قالت: «يجب أن يؤخذ المذنبون على الأرض التي ارتكبوا فيها جريمتهم، فضلاً عن أن النظام سائد في تولوز، وحيثما أرسلت هذه الدعوى لا بد من أن تثير نقمة شعبية.

واكتفت المحكمة بإضافة عدد من المحلفين، ثم تابعت المحاكمة من النقطة التي وصلت إليها. وبعد مرافعة وكيل الادعاء الجديد (كان الأستاذ جولي قد سمي مفوضاً للحكومة) بدأت مطالعة النائب العام الذي استمر في منصبه، ومضى يهاجم بعنف قائلاً:

ـ كيف يمكن تفسير السهولة التي يستطيع بها رجال كانوا حتى الآن محترمين، أن يقفوا أمام هذه المحكمة ليؤكدوا أكاذيب، وبلهجة شديدة الوثوق، هل يمكن

تفسـير هذه السهـولة بشيء آخـر سوى أن أقـدس واجبات الأفـراد تتلاشى أمـام متطلبات التضامن الديني، في المكان الذي يحاصر فيه هؤلاء. كـانوا يـريدون أن يوحوا بأن سيسيل خرجت من الدير مع أن أحداً لم يرها تخرج، لقد قالـوا لأحد الشهود: بما أنه يبدو لك أنها خرجت، فقل إذن إنك متأكد من أنك رأيتها تخرج. إن هذا المنطق الجزويتي هو منطق غريب!

وتابع النائب العام هجومه قائلاً:

ـ عندما يجتمع الاغتصاب بالفجور، يدع خلفه آثاراً تنبىء بتجربة من ارتكبه. وعلى العكس من ذلك، تكون الخطى الأولى لأي مستجد في عالم الجـريمة، غـير واثقة، هناك دائماً دلائل لا تخدع، هي تلك التخريبات التي يسببها انفجـار تلك العواطف التي تنتقم لنفسها ذات يوم كما ينتقم الأرقاء الثائرون على عبوديتهم.

إن سيسيل الصغيرة لم تختنق بين ذراعي إباحي، أو تحت وطـأة عناق فـاجر، لكنها سقطت تحت سطوة هيجان يستدعي الهذيان.

من بـين كل المؤسسـات التي أقامتهـا الكاثـوليكية، ليس من مؤسسة تستدعي الاحترام مثل رهبنة الكهنة، ومن بين جميع الفضائل المشعة، ما من فضيلة سامية مثـل العفة! لكن هـذه تفتـرض نضـالاً، وكـل معـركـة تمـر بتـواتـر انتصـارات وانكسارات.

والعفـة تفترض ضغط الحواس إطلاقاً. وعندما تهرب هذه من يد من يقبض عليها، تثور الغرائز بشكل فوضوي ضد عبوديتها الـطويلة. عندئـذ تحدث هـذه الكوارث التي تشبه انفجارات الحمم التي تمزق جوانب البركان.

ولم يكن ذلك كله إلا قطعة من البلاغة، وكان لا بد من الوصول الى الحادثـة نفسها، فقال النائب العام:

ـ لقد جرى كل شيء بادىء ذي بـدء في غرفـة للخدم، هكـذا صور الاتهـام الأمر. فقد اقتيدت الصغيرة سيسيل إلى هناك مدعوة لرؤية الحمام. والريشة التي اكتشف في ثيابها مشابهة للريش الذي حشيت به فرشة السـرير. لكن التضحيـة الأخيرة تمت في ما بعد وفي مكان آخر، تمت في مستودع على كومة من الحندقـوق

بين كومتي قش.

ولم يتردد النائب العام في غمرة اندفاعه، من أن يصف بواقعية مؤثرة عملية الاغتصاب وكيف أن فضيلة الفتاة حالت دون نجاح العملية تماماً، ثم يقول:

ـ فهذه الفتاة إذن لم تكن أكثر من الشيطان الذي سقط المتهم في التجربة بسببه. وانتقم منها بإفراغ لذته القذرة عبرها، ولكن عظم جريمته هو الـذي أعطاه هـذا الهدوء الظاهر والمظهر البريء.

وعاد الدفاع إلى التمسك بحجته الرئيسية: إن وضع الضحية الذي وجدت فيه في البستان ينفي إمكان أن تكون قد قذفت الى البستان، كما أن العقل يرفض قبول نسبة الاغتصاب إلى عنف الاحتقان.

واحتج الراهب ليوتاد مرة أخرى ببراءته:

ـ إذا كانوا قد استطاعـوا أن يلاحـظوا بعض التردد عنـدي في أقوالي الأولى، فذلك بسبب السجن الذي عانيته. يجب إدراك معنى أن يحجر علي في زنزانة خلال ١٣ أسبوعاً. أمس رأيت رجلاً يخرجونه من السجن. كان هزيلاً كهيكل عظمي، فليحكم عليّ القضاء بما يشاء، لكنني سأكرر حتى آخر نفس فيَّ بأنني بريء.

وكانت أجوبـة المحلفين هي الآتيـة: كلا لـلاغتصاب. نعم للمحاورة. نعم للظروف المخففة. وأنقذ ذلك رأس الراهب ليوتاد، لكنه حكم بالأشغال الشاقة المؤبدة. واستمع إلى القرار وذراعاه متصالبان وأنظاره منخفضة، دون أن تتحرك في وجهه عضلة واحدة.

ولم يسمع منه أي تذمر طـوال وجوده في سجن تـولوز، ولم يكن يكـره أحداً. اللهم إلا مرة واحدة غضب فيها حين سمع أن مجلد الكتب يتجول في الريف وهو يعرض مسرحية بعنوان: جريمة الأخ ليوتاد.

إن وجود الشك في أي قضية جنائية يوظف عادة لمصلحة المتهم، فهل وظفت الشكـوك التي أحاطت بهـذه القضية لمصلحـة الأخ ليوتـاد؟ وقد كـانت شهادات رفيقات الضحية تدين معلمها، فهـل جرت تغـطية هـذه الشهادات ولم تـأخذ بها المحكمة لأنها لم تكن تسير في اتجاه الاتهام؟ هذا الاتهام الشعبي العام الذي اتجه منذ اللحظة الأولى، وقبل ظهور أي دليل، لإدانة الأخ ليوتاد!

محامي الدفاع :
باسم الوحدة الوطنية
أطلب البراءة لموكلتي مدام كايو؟

في العشرين من شهر تموز (يوليو) سنة ١٩١٤، بدأت في باريس محاكمة السيدة هنرييت كايو، زوجة جوزيف كايو أحد كبار السياسيين الفرنسيين ومن أشدهم نفوذاً وخطراً. فقد تولى وزارة المال خمس مرات كما أنه رئيس سابق للوزارة وزعيم لا ينافس للحزب الراديكالي.

وكانت مدام كايو متهمة بأنها قتلت بخمس طلقات نارية من مسدسها، غاستون كالميت رئيس تحرير جريدة «الفيغارو» التي شنت على زوجها حملة صحفية عنيفة اعتبرتها ظالمة ومفتراة.

واحتشد في ساحة «دوفين» وفي ردهات قصر العدل جمهور كبير يمثل النخبة الأدبية والسياسية في المجتمع الباريسي، حتى كاد رجال الشرطة يعجزون عن حفظ النظام.

أما قاعة المحكمة فقد اقتحمها رجال كايو وحرسه الخاص الكورسيكيون واحتلوا معظم صفوفها، بينما احتلت الصفوف الأولى شخصيات سياسية وأدبية مرموقة ونخبة من سيدات المجتمع المخملي. وكانت النكات تختلط بالملاحظات السياسية وأخبار البورصة، كان الجمهور جاء لحضور إحدى حفلات الأوبرا، وساد الصمت فجأة عندما دخل رئيس المحكمة السيد البانيل ومساعداه، كأن الستار قد رفع عن المشهد الأول من التمثيلية! وكان يمثل الاتهام النائب العام هيبرو ومحامي أسرة كالميت ونقيب

المحامين الأستاذ شينو بوقاره المعروف بينما يمثل الدفاع الأستاذ لابوري الذي سبق له أن اشتهر بدفاعه عن دريفوس.

أما هنرييت كايو التي من أجلها احتشد كل هؤلاء الناس، فكانت ترتدي ثوباً مزيناً بالدانتيل، وقفازين سوداوين طويلين وقبعة سوداء من القش مزينة بالساتان تعلوها ريشة طويلة سوداء. وكان ذلك رومنتيكياً ومسرحياً ومثيراً لاهتمام الجمهور الذي حبس أنفاسه في انتظار مزيد من الإثارة، وكانت المتهمة تفحص بعينيها الرماديتين الجميلتين وجوه المحلفين الاثني عشر، وهي وجوه لا تعرف اصحابها ولا يبدو عليها أي تعبير، وتتجنب النظر إلى القاعة حيث تعرف كثيراً من الحاضرين.

ويطلب رئيس المحكمة منها أن تقف وتجيب على أسئلته، فترد عليها بذكاء ودقة ورباطة جأش، ويعرف الحاضرون من أجوبتها أنها قضت طفولة بورجوازية سعيدة، ثم تزوجت من الكاتب «ليوكلاريت» ولكن زواجها لم يكن موفقاً، وكانت الخلافات بينهما تزداد يوماً بعد يوم، ومع ذلك فقد كانا يتجنبان الطلاق بسبب طفليهما. وفي هذه الفترة من حياتها تعرفت بجوزيف كايو وتبادلا الحب، وكان متزوجاً مثلها ولكن زواجه كان فاشلاً هو أيضاً، فصارا يتبادلان الرسائل وكانت رسائله تمزج بين الحب والسياسة، مما دعاه يوماً إلى استعادتها منها، فقدرت حذره نظراً لمركزه السياسي. ولكن يا سيدي الرئيس.

واختنق صوتها وهي تقول:

ـ ولكن تلك المرأة التي كان متزوجاً منها حينذاك، استطاعت سرقة تلك الرسائل من درجه بعدما صنعت مفتاحاً لهذا الدرج، وبعدما وافقت على الطلاق راحت تعرض هذه الرسائل على عدد من الصحف، إن هذه المرأة التي تزوجت من رجل آخر وصارت تدعى مدام غيدان، أرادت الانتقام منا ولم تستطع احتمال زواجي من جوزيف كايو بعد طلاقي من زوجي السابق، وأصرت على تدمير سعادتنا، وقد وفقت في ذلك.

واشتد انفعالها فصمتت، وبدا التأثر على الحاضرين، وقال الرئيس برقة:

ـ اعذريني يا سيدتي، ولكني لا أفهم الدور الذي تمثله تلك الرسائل في القضية

التي نحن بصددها، فلم تقم أي جريدة بنشرها، أما الرسالة التي نشرها السيد كالميت في «الفيغارو» فإنها لا تتعلق بك، وإنما هي موجهة من السيد كايو إلى مدام غيدان.

ـ سيدي الرئيس، إن هذه المرأة هي المحرك في القضية كلها، من غيرها يستطيع تسليم كالميت تلك الرسالة؟ من يستطيع غيرها تغذية تلك الحملة الافترائية التي شنتها «الفيغـارو» على زوجي؟ إنها هي وحدها التي تملك رسائلها بالإضافة إلى رسائلي. وكنت متأكدة بأن دوري سيأتي، وسـوف تنشر رسائـلي أيضاً، ولم يخف كالميت أن الحملة على جوزيف كايو ما تزال في بدايتها. لقد أصبت بالجنون، ولا أخجل من قولي هذا، فإن فكرة الإساءة إلى سمعتي لم تكن محتملة لديّ. وحينئذ هرعت يا سيدي الرئيس إلى مكتب كالميت. وكنت أحمل كعادتي مسدساً صغيراً من نوع «البروننغ» إن هذا المسدس رهيب، فهو ينطلق من تلقاء نفسه... لم يكن في نيتي قتله، وكلْ ما أردته تخويفه، ولكنه وضع نفسه تحت رصاصاتي ولم أكن أعلم ماذا أفعل. إنه القدر!

ولاحظت مدام كايو تأثر الحاضرين، فصرخت بصوت مرتجف:

ـ كلا. لم أكن أريد قتل هذا الرجل! وأعلن الآن أني كنت أفضل أن ينشر ما يشاء على أن أكون السبب في ما حدث!

توريط وزير المال

وحينئذ ارتفع تصفيق الحاضرين، وأسدل الستار على المشهد الأول، وبدأ تشوق الجمهور للمشهد الثاني حيث يظهر على المسرح جوزيف كايو الذي دعي للادلاء بشهادته في اليوم التالي.

وفي الحادي والعشرين من تموز (يوليـو) ١٩١٤ تعاظم عـدد المتفرجـين وقضى بعضهم ليلته على أبواب قصر العدل لحجز المكان المناسب منذ الصباح الباكر، ثم توافد عدد كبير من النـواب وسيدات المجتمـع، ووقف الأستاذ شينـو إثر افتتاح الجلسة، يعلن أن ما حدث في الجلسة السابقة إن هو إلا رواية عاطفية، والحقيقة تختلف عن ذلك تماماً، فالدافع الحقيقي للجريمة، ليس عاطفياً بل سياسي، و«المجرم»

الحقيقي ليس هذه المرأة الجالسة في قفص الاتهام، بل هو زوجها جوزيف كايو».

ـ إن هذا الرجل هو الذي دبر جريمة القتل لمنع كالميت، ليس من نشر رسائل غرام، بل من نشر وثيقة سياسية أساسية، وثيقة سبق لجريدة «الفيغارو» أن أعلنت عن قرب نشرها تحت عنوان: «اعتراف النائب العام فابر»، وهذا الاعتراف يكشف أن جوزيف كايو عندما كان وزيراً للمال، ضغط على النائب العام فابر لحماية المصرفي روشيت أحد الذين شملتهم فضيحة بناما والملاحق من قبل القضاء. ولماذا أيها السادة يضغط وزير المال لحماية المصرفي المشبوه؟ لأن روشيت كان يموّل حملات كايو الانتخابية!

وسرى الهمس واللغط في القاعة، أما الصفوف التي يحتلها حرس كايو وعلى رأسهم سيكالدي فكان يعلو منها الصفير والضجيج لمنع المحامي من متابعة أقواله، بينما ارتفعت من صفوف أخرى هتافات تقول: «كايو لص مرتش ومحتال!»، فقد احتلت السياسة محل المأساة العاطفية المزعومة.

ولما استطاع الرئيس البانيل إعادة الهدوء إلى القاعة تابع شينو هجومه قائلاً:

ـ أستطيع القول بأن الزوجين كايو لم يتصورا لحظة واحدة أن رسائلهما الحميمة ستنشر على الجمهور من قبل «الفيغارو». والرسالة السابقة الذكر الموجهة إلى زوجته الأولى، لم تكشف أي سر شخصي، وإنما كشفت عن سياسة كايو المريبة!

وارتفعت الأصوات الغاضبة من قبل أنصار كايو كما ارتفعت قبضات تهدد المحامي الجريء الذي تابع قائلاً:

ـ لا فائدة من صراخكم أيها السادة، فإن القناع قد نزع عن وجه كايو، واسمحوا لي بأن أقرأ هنا علناً الرسالة التي نشرها كالميت وكلفته حياته..

وبدا الرئيس البانيل عاجزاً عن إسكات الأصوات الجديدة التي ارتفعت، وبدا الاستياء على المحلفين الذين أخذوا يتململون في مقاعدهم، مما اضطر محامي الدفاع نفسه الأستاذ لابوري إلى الإشارة لأنصار كايو بالتزام الصمت والهدوء، وشكر له شينو بادرته وتلا ما جاء في رسالة كايو إلى زوجته القديمة:

«لقد اشتركت في جلستين بالمجلس النيابي، الواحدة في التاسعة صباحاً وقد انتهت ظهراً، والأخرى في الساعة الثانية وقد استمرت حتى الثامنة مساء، وقد خرجت منهما منهوك القوى. ولكني مع ذلك قد أحرزت نجاحاً كبيراً. لقد سحقت الضريبة على الدخل وأنا أتظاهر بالدفاع عنها، فتلقيت إعجاب الوسط واليمين دون أن أثير استياء اليسار!».

وختم شينو كلمته بقوله:
ـ هذا هو كايو. . . إنه رجل وقح، كاذب، مفعم بالنفاق!
واعترض الأستاذ لابوري قائلاً:
ـ أرجوك يا حضرة النقيب، فنحن لم نصل إلى المرافعة بعد.

وساد الصمت حين طلب الرئيس استدعاء جوزيف كايو للادلاء بشهادته، فدخل هذا بخطى سريعة ووقف أمام المحكمة ثابتاً على الرأس، والمونوكل على إحدى عينيه، ولما تليت عليه أقوال النقيب شينو رمقه بنظرة شزراء، ونظر بحنان إلى زوجته التي أجهشت بالبكاء، ثم قال:

ـ قبل أن أجيب على هذه الاتهامات الوضيعة، أريد أن أقول إن هذه المرأة الواقفة في قفص الاتهام، إنما تقف هنا بخطأ مني. إن هذه المرأة التي أعطتني السعادة الكاملة، وكانت بالنسبة لي الزوجة الرقيقة والشريكة الوفية، لم أعرف أن أحميها من الخبث والافتراء. . .

وتعالى نحيب هنرييت في قفص الاتهام، بينما تابع هو قائلاً:
ـ وإني لأتهم نفسي أمام المحلفين بأني لم أهتم بأسرتي بالقدر الكافي، ولم أنتبه للآثار التي تتركها على زوجتي تلك الحملة الصحفية، ولم أشعر بأن حبها لي قد يدفعها إلى ما فعلت. . وإني لأعذرها وأتهم نفسي!

وكان لصدور هذه الكلمات الرقيقة عن الرجل المعروف بقوته وصرامته، وقع السحر على الحاضرين، ولكن لهجة كايو ما لبثت أن تبدلت حين اتجه إلى النقيب شينو وقال:
ـ إن اعتراف النائب العام بصدد قضية روشيت، الذي خيل لك انك قادر على

التهويل بـه، لا أخشى نشره، فصحيح أنني تدخلت لتأخير النظر في قضية روشيت ولكني فعلت ذلك لأسباب حكومية، فلو أسرع القضاء في هذه القضية لضاعف من الذعر المالي الذي كان يسود فرنسا.

ثروة بـ١٣ مليون فرنك

ثم اتجه إلى المحلفين قائلاً:

- إن خصومي يتهمونني بـأنني أثريت بفضـل وظائفي الحكـومية، وهـو افتراء أستطيع دحضه بسهولة. لقد ورثت عن والدي مليوناً ومائتي ألف فرنك، وثروتي الآن لا تزيد عن ذلك، أما السيد كليمنت الذي يـظهرونـه لكم بمظهـر الضحية البريئة، فقد ترك لورثته ثروة طائلة، وهذه هي وصيته التي تدل على أن ثروته تبلغ ثلاثة عشر مليون فرنك!

وارتفـع اللغط في قاعـة المحكمة، واختلطت فيـه أصوات المعجبـين بالـوزير الداهية، بأصوات الخصوم الذين اتهموه باستغلال وزارة المال للحصول على وصية سرية، مما اضطر الرئيس إلى إرجاء الجلسة لليوم التالي.

وصدرت الصحف اليمينية في ٢٢ تموز (يوليو) ١٩١٤ وهي تحمل المـانشيتات الآتيـة: «فضيحة في قصر العـدل في باريس»... «سـرية وصيـة كالميت تنتهـك علناً»... «وزارة المالية تساعد كايو»... بينما اكتفت صحف الوسط واليسار برواية الحادث دون التعليق عليه.

والواقع أن مستقبل جوزيف كايو السياسي هو الذي كان يحاكم تلك الأيام امام محكمة الجنايات. فبعدما اضطر إلى التخلي عن وزارة المال إثر مقتل كالميت من قبل زوجته، كان كايو ينتظر تسوية هذه القضية ليترأس حلفاً راديكالياً ـ اشتراكيـاً في محاولة لتجنب الحرب.

وكان هو الوحيد المؤهل للحوار مع ألمانيا، فمنذ ثلاث سنوات يوم كان رئيساً للوزارة تولى بنفسه المفاوضات الفرنسية الألمانية التي أسفرت عن معاهدة أطلقت يد فرنسا في المغرب مقابل تخليها لألمانيا عن جزء من الكونغو، وفي المجلس النيابي ليس من أحد غير جوزيف كايو بقادر على الوقوف بوجه كليمنصو وبارتو اللذين لا يفتآن

يدعوان إلى حرب الانتقام لاستعادة الألزاس واللورين! ولكن الزعيم الاشتراكي جوريس وضع الأمر على هذا الشكل: إنه مستعد لإقامة تحالف راديكالي ـ اشتراكي بزعامة جوزيف كايو ولكن بشرط أن تبرّأ مدام كايو!

وسمعت المحكمة في الجلسة الثالثة شهادة لاتزاروس المحرر في «الفيغارو» الذي قال إن المتهمة انتظرت كليمنت ساعة كاملة في ردهة الانتظار دون أن تتفوه بكلمة واحدة، ولما وصل كليمنت بادرت إلى إخراج مسدس من كمها واقتحمت مكتبه وأطلقت النار عليه فقضى نحبه بعد لحظات، وأضاف لاتزاروس، إن محرري «الفيغارو» حين أفرغوا جيوب كليمنت قبل نقله من مكتبه لم يجدوا فيها الرسائل الشخصية المتبادلة بين كايو وزوجته وإنما وجدوا وثائق خضراء تدل على أن كايو قدم للألمان وعوداً سخية أثناء المفاوضات التي دارت بشأن معاهدة الكونغو.

وبينما كانت مدام كايو تواصل نحيبها وزوجها يلعب بالمونوكل، وقف النقيب شينو شاحب الوجه وشاربه الأشقر يرتجف، وخيل للجميع أن المحامي البليغ سيسحق هذه المرة الوزير المتعالي، ولكنه على العكس طلب من المحكمة أن توقف الشاهد عن الاسترسال في أقواله، وان لا تأخذ بما جاء في حديثه عن الوثائق الخضراء، وبدا الارتياح على الرئيس البانيل، ودعا الشاهد الى مغادرة المنصة، ولكن سرعان ما وقف الأستاذ لابوري محامي الدفاع وقال وهو يرتجف:

ـ إني لا أقبل هذه الغمغمة، فسواء تحدث لاتزاروس كثيراً أو قليلاً فيجب أن يعود إلى منصة الشهادة ليحدثنا عن الوثائق المزعومة.

وخيل للرئيس البانيل أن لابوري قد جنّ، ولكن جوزيف كايو وقف بدوره قائلاً:

ـ عندما يهاجمون يجب أن يهاجموا إلى النهاية، فليعد الشاهد وليتابع أقواله ليعرف الجميع حقيقة ما يقول.

وعاد لاتزاروس إلى منصة الشهادة ليقول:

ـ إن السيد كليمنت قد أخبرني أنه لن ينشر تلك الوثائق لأن نشرها يؤلف خطراً على الوطن.

فصرخ كايو من مقعده :

ـ كفى أكاذيب، إذا كانت لديكم وثائق فأبرزوها واقرأوها على الجميع .

واضطرب لاتزاروس وقال بتردد :

ـ إن شخصيات كبيرة قد تدخلت لدى كليمنت لعدم نشر تلك الوثائق، وأنا لا أستطيع أن أتحمل مسؤولية إذاعتها .

فصرخ الأستاذ لابوري بصوت جهير:

ـ بصمتك يا سيدي تضيف الكذب إلى الافتراء!

ـ إنني لم أكذب ولم أفتر على أحد، إن هذه الوثائق موجودة وقد سلمت إلى رئيس الجمهورية من قبل شقيق كليمنت .

إذن لقد أصبحت تلك الوثائق سراً من أسرار الدولة، وهذا ما فسر موقف محامي الاتهام الذي لم يشأ استغلال شهادة لاتزاروس أما محامي الدفاع فشعربالحرج واتجه إلى النائب قائلاً إنه إذا كانت لدى الحكومة وثائق من هذا النوع فيجب أن تقدمها لهيئة المحكمة وإذا لم يكن لديها مثل هذه الوثائق فيجب أن تعلن الحقيقة على الناس، ووعد النائب العام بأن يجيب على ذلك في جلسة الغد .

في الجلسة الرابعة زاد عدد الحاضرين إلى درجة فقد معها رجال الصحافة مقاعدهم، وكان الجميع يتساءلون هل تجري محاكمة مدام كايو أم جوزيف كايو رئيس الحكومة السابق، ووزير المال السابق، وقائد الحزب الراديكالي وزعيم الفئة المناوئة للحرب من النواب والساسيين وكانت قد راجت منذ الصباح شائعات تؤكد أن الأحزاب اليمينية ستقوم باضطرابات مناوئة لكايو مما أدى إلى ظهور أنصاره الكورسيكيين بشكل ملحوظ، وحين أخذ عليه أحد الصحافيين السماح بظهور هذه الميليشيا، بشكل فاضح، أجابه بأنه لولا هذه الميليشيا لتعرض قصر العدل للاجتياح .

ويبدو أن وجود هذه الميليشيا في ساحة قصر العدل وأروقته، قد منع الكثيرين من خصوم رئيس الحكومة السابق عن الحضور، بدليل التصفيق الحاد الذي استقبل به واختفاء الصفير الذي كان يقابله به اليمينيون المتطرفون .

وما كاد الرئيس يفتتح الجلسة حتى وقف النائب العام السيد هيربو وأعلن أن

«الوثائق الخضراء، التي سلمت لرئيس الجمهورية ليست سوى نسخ مزعومة لوثائق لا وجود لها ولا يمكن استخدامها للطعن في وطنية كايو، وعلى أثر ذلك أعلن الرئيس البانيل أن موضوع هذه الوثائق قد طوي نهائياً. ولكن النقيب شينو محامي الاتهام صرخ من مقعده:

ـ نعم، إن هذا الموضوع قد طوي نهائياً، وهو أمر يرضي السيد كايو ولكنه لا يرضيني. إنها صفقة تمت خلال الليل في ظروف مجهولة لإعطاء كايو شهادة في السلوك الوطني!

فوثب كايو غاضباً وركز المونوكل على عينه وكتف ذراعيه وقال:
ـ يا أستاذ شينو، يبدو أنك لم تسمع ما قاله النائب العام باسم الحكومة من أن هذه الوثائق لا وجود لها.

ـ ومع ذلك فأنا أقول إنها موجودة، ولكني لا أستطيع أن أكشف عما فيها من أجل السلامة العامة.

ـ إن الأستاذ شينو يتحمل شخصياً مسؤولية هذا الهجوم الأرعن.

ـ نعم، إنني أتحمل مسؤولية كل ما أقول، وإذا كنت تهددني يا سيد كايو فيبدو أنك تجهل الرجل الذي تخاطب.

وتجاهل الرئيس البانيل هذا النقاش، واستدعى مدام غيدان لأداء شهادتها، وسرعان ما عادت القضية من المناخ السياسي إلى الصعيد العاطفي حين تحدثت عن حبها لكايو ورغبتها في البقاء زوجة له، ولكن امرأة أخرى استطاعت أن تقصيها عنه، ثم قالت:
ـ إن الرسائل الموجهة إلى منافستي التي تتهمني بسرقتها، لا تؤذي أحداً غيري، وليس فيها أي شيء سياسي.

فقال النقيب شينو محامي الاتهام:

ـ أرينا هذه الرسائل يا سيدتي، وإلا فإننا لن نصدق ما تقولين.
ـ كلا، لن أريها لكم لأنكم لن تجدوا فيها ما تبحثون عنه، إن كل ما فيها يشرّف

السيد كايو.

وأراد شينو أن يلعب على الوتر، الأكثر حساسية لديها فقال:

ـ إذا حجبت هذه الرسائل عنا يا سيدتي فإنك لا تحمين السيد كايو بل تحمينها «هي» . . . أثبتي لنا أن كل ما قالته لم يكن إلا كذباً، وأنه ليس في هذه الرسائل ما يوجب قتل السيد كالميت. . .

وترددت مدام غيدان قليلاً، ثم أخرجت من حقيبتها رزمة الرسائل، فاحتج جوزيف كايو بأن زوجته أقدمت على جريمة للحفاظ على سرية هذه الرسائل، وليس من العدالة أن تنتهك المحكمة الآن هذه السرية، وتأثر المحلفون بالموقف وقرروا الاستغناء عن الاطلاع على الرسائل، وكانت الشاهدة لا تزال واقفة والرزمة في يدها، فتقدم محامي الدفاع الأستاذ لابوري وأخذها منها، وأصرّ على تلاوتها ليثبت للمحلفين أن ليس فيها ما يدين السيد كايو بما وجه إليه من افتراءات.

في تلك الأيام من تموز (يوليو) سنة ١٩١٤، كانت نذر العاصفة تتجمع في سماء أوروبا وتوشك أن تنفجر، وقد بدأت الجيوش الألمانية والنمساوية والمجرية تستعد للانطلاق نحو جبهات القتال، وكان الجيشان الفرنسي والروسي في المقابل يتأهبان للمعركة الكبرى، بينما بدت بريطانيا أكثر هدوءاً وتمالكاً لأعصابها، وكان جان جوريس زعيم الاشتراكية الأممية يرسل النداء إثر النداء لتجنب الحرب داعياً العمال إلى الامتناع عن القتال لخدمة المصالح الرأسمالية المقنعة بقناع الوطنية. ولكن نداءاته لم تجد صداها المرتجى، وكان في حاجة إلى حليف له وزنه لدى البورجوازية الفرنسية ويملك أغلبية الأصوات من الوسط اليساري في المجلس النيابي، كي يتخذ هذا المجلس قراراً بالتفاوض مع ألمانيا بدل التقاتل، وهذا الرجل هو جوزيف كايو، ولكنه منصرف منذ ثمانية أيام عن الشأن العام لمتابعة قضية زوجته التي خيل لها أنها تنقذه بجريمتها، فورطته فيها وأبعدته عن الاضطلاع بواجباته السياسية في أشد الظروف اضطراباً وحرجاً.

ولكن كايو لم يعترف بالهزيمة، وقبض على القضية بكلتيّ يديه، منظماً الدفاع، موجهاً الشهود، ضاغطاً على المحلفين، مرتباً الدعوى من فوق رأس الرئيس البانيل،

مسرعاً في ذلك قدر ما يستطيع للعودة إلى المجلس النيابي تلبية لنداء النواب الاشتراكيين والراديكاليين الذين وضعوا فيه وحده الأمل في إنقاذ السلام.

ولهذا السبب نفسه كان محامي الاتهام النقيب شينو الذي يمثل جريدة «الفيغارو» والأوساط اليمينية المحرضة على الحرب لاستعادة الألزاس واللورين، يسعى للنيل من جوزيف كايو بقدر ما يستطيع، وتحويل القضية إلى محاكمة في محاولة لإدانته وتجريمه، وقد اتهمه في مرافعته بأنه هو الذي دبر الجريمة، وأقنع زوجته بقتل غاستون كالميت! خوفاً من الوثائق التي كان مدير تحرير «الفيغارو» يعدها لفضح سلوكه المريب أثناء توليه رئاسة الحكومة وفي الوزارات المتعددة التي تولاها، وليس من أجل رسائل غرامية.

وتوقف النقيب فجأة عن متابعة مرافعته، حين وقعت مدام كايو مغمى عليها، وهرع زوجها لاحتضانها بعدما أرغم الحرس على إفساح الطريق له، مما اضطر رئيس المحكمة إلى توقيف الجلسة ثلاثة أرباع الساعة، ولما عادت إلى الانعقاد كان قد جاء دور محامي الدفاع الأستاذ لابوري في إلقاء مرافعته، فاعتبر القضية «جريمة عاطفية» ولم يهاجم كالميت ولم يعذر هنربيت، وإنما قال:

ـ إن مدام كايو لم تكن ترغب في قتل غاستون كالميت. وقد أكد الخبراء ذلك، فقد وجهت النار الى الأرض، ولكن سوء الحظ شاء أن ينحني كالميت في ذلك الوقت فيصاب، كما شاء الحظ أيضاً أن يتأخر الأطباء في الوصول لإنقاذه. إن موت كالميت أيها السادة هو حادث مؤسف ومحزن سببه الانفعال البشري في ساعة غضب.

وطلب لابوري تبرئة مدام كايو «باسم الوحدة الوطنية» قائلاً بجلال:

ـ لنحتفظ بأحقادنا لعدونا الخارجي، ولنسر متحدين متضامنين لمواجهة الأخطار التي تهددنا!

وعمل المحلفون بهذه «النصيحة» فأجمعوا على تبرئة مدام كايو. وبينما كان التصفيق يتردد في قاعة المحكمة وأروقة قصر العدل، اقتحم الوطنيون اليمينيون

المعادون للشعارات الأممية شوارع باريس في تظاهرات صاخبة، واعتدوا على رجال الشرطة وحطموا أكشاك الصحف، وهم يهتفون:

ـ الموت لكايو.. الموت للخونة.. إلى برلين.. إلى برلين!

وبعد خمسة أيام من انتهاء المحاكمة قتل جان جوريس زعيم الاشتراكية الأممية.

وبعد ثمانية أيام أعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا.

الماريشال الساحر في قفص الاتهام

عندما احتلت إنكلترا معظم أنحاء فرنسا في أوائل القرن الخامس عشر، كان شارل السابع لا يزال يلقب بـ «الدوفان» أي ولي العهد، أو يطلق عليه تهكماً لقب «ملك بورغ» وهي المقاطعة التي يحكمها. وقد حكم بخمول ما تبقى له من فرنسا جنوبي نهر اللوار، بينما كانت جان دارك الفلاحة التي لم تبلغ سن العشرين تقاتل الإنكليز وتنتصر عليهم في عدة معارك أهمها معركة اللورين. ثم أقنعت ولي العهد سنة ١٤٢٩ بالمجيء إلى «ريمس» لتتويجه ملكاً على فرنسا، ووقفت البطلة إلى جانبه في تلك اللحظة التاريخية.

وعمد شارل السابع لمناسبة تتويجه، إلى مكافأة أنصاره الأوفياء، فمنح لقب «شوفاليه» (فارس) إلى عدد منهم وكرسهم في الكنيسة فرساناً بنفسه، وخص بالمكافأة الكبرى «جيل دولافال بارون دوري» وهو أحد رفاق جان دارك الشجعان، فمنحه لقب «ماريشال فرنسا» وهو يومذاك في سن الخامسة والعشرين.

وانطلقت جان دارك بعد الاحتفال لمتابعة نضالها، وهدفها الوصول إلى باريس لتحريرها، فاحتلت في الطريق إليها كلا من لاون وسواسون وكولوميه وبروفانس وشاتو تيري وبوفي، ولكنها تعرضت أمام العاصمة إلى الهزيمة فلجأت إلى مدينة كومبيين المحاصرة، حيث أسرت وباعها الدوق دوبورغوني للإنكليز، فأحيلت إلى

محكمة التفتيش وأحرقت وهي على قيد الحياة في مدينة «روان».

واختلفت الآراء حول موقف «جيل دوري» فمن المؤرخين من يعتقد بأنه كان مطلعاً على الخيانة التي اتهم بها ابن عمه جورج دولاتو مويل والتي انتهت بتسليم جان دارك للإنكليز، ومنهم من يؤكد أن جيل دوري لم يتخل عن رفيقته في السلاح والنضال، وأنه ارتمى على قدمي الملك متوسلاً إليه أن يعمل ما بوسعه لإنقاذها، ولكن الملك العاق لم يصغ إليه ولم يستجب لطلبه.

وبعد إحراق جان دارك عاد «جيل دوري» إلى أملاكه ليحيا حياته المترفة المعتادة. وكان السيد «ري» يملك ثروة طائلة تسمح له بأن يحيا الحياة التي يشاء. فقد ورث عن كل من أبيه وأمه العديد من المزارع والحقول والقصور والحصون، ولما تزوج سنة ١٤٢٠ وهو في سن الرابعة عشرة من كاترين دوتوار أضافت عروسه إلى ثروته الطائلة ثروة باذخة. وفي سنة ١٤٣٢ أورثه جده جان دوكارون ثروة مماثلة، فغدا من أكبر أثرياء أوروبا ومن أعظمهم شأناً وأكبرهم مركزاً.

وكان «ري» الفخور الطموح الشغوف بالمجد، محباً للآداب والفنون والعلوم، مولعاً بالجمال أينما تجلى، يتكلم اللاتينية بطلاقة ويعتبر من أكبر المثقفين في عصره، كما كان جميلاً وقوياً واسع الجبين مرتفع الرأس، تشع من شاربيه ولحيته الصغيرة ومضة زرقاء، وتتألق عيناه الزرقاوان بالتعابير المنعكسة عما يزخر في نفسه من حيوية وإرادة وكبرياء.

وحين انتقل الماريشال إلى مزارعه المفضلة في تيفوج، صحبه مئتا فارس من أعلى الرتب، ولكل منهم خدمه وأتباعه، وكان ينفق عليهم جميعاً بسخاء، مؤمناً لهم الإقامة المريحة والطعام الجيد والثياب الأنيقة. وإلى جانب هذه الثكنة العسكرية الارستقراطية المترفة، أقام معهداً دينياً وكاتدرائية يضمان نخبة من رجال الكهنوت بكل مراتبهم وحاجاتهم وجوقتهم الموسيقية.

في قصر تيفوج المغطاة جدرانه بالمخمل والذهب، والذي تعكس واجهاته الزجاجية تتابع الأنوار والظلال، أنشأ الماريشال «جيل دوري» بلاطاً خاصاً به يضم مكتبة فريدة، ويحتوي العديد من التماثيل واللوحات الثمينة النادرة، ومسرحاً

يقدم أرقى المسرحيات الأدبية والدينية ، ويحضره من يشاء من المواطنين فيشاهدون أمتع التمثيليات ثم ينتقلون إلى أسخى المآدب ويعاملون كما يعامل الأمراء . وكانت كل حفلة من هذه الحفلات تستنفد كل ما في مدينة أورليان من غذاء ، مما ساعد على ازدهار المدينة وأسبغ عليها ظلال الرخاء . وكان يشترك في تمثيل كل مسرحية مئة وأربعون ممثلاً وخمسمئة من الكومبارس ، وكلهم يرفلون في أجمل الثياب ، أما الديكور المتعدد في المسرح ، فهو من أغنى الديكورات وأكثرها كلفة ، ولاسيما تلك التي تتعلق منها بحصار أورليان وانتصار جان دارك ، وكان جيل دوري يمثل دوره معها بنفسه ، فيبدو مخلصاً لها ، يسير في موكبها من نصر إلى نصر ولا يقل عنها اندفاعاً وشجاعة . فيهتف الحاضرون باسمها واسمه وتتعالى الصيحات : «المجد للسيد ري !» .

الماريشال المنحرف

ولم يكن أحد ليتخيل أن وراء هذه المظاهر من النبل والشجاعة والطهارة ، كان ثمة بؤرة من الفساد والرذيلة تجمع الماريشال دوري كل ليلة مع شلة من الفاسقين في مقدمتهم جيل دوسيله وروجيه دوبر نكفيل ابنا عمه ، وجان روسينيول وأندره بوشيه وهنري غريارت المسمى هنرييت واتيان كوريلو المسمى تواتو .

وكانت هذه الحياة الباذخة المترفة ، تلتهم ثروته الكبيرة شيئاً فشيئاً . فأخذ يبيع ويرهن ويستدين ويتخلى عن أملاكه واحداً بعد آخر ، مطلقاً أيدي عملائه وموظفيه في التصرف كما يشاؤون ، كي يبقى بين يديه وتحت تصرفه دائماً ، المقدار الكافي من الذهب ، لينفق باستمرار ولينفق بسخاء ، ولكن الثروة المتراكمة خلال عدة قرون ، والتي آلت إليه عن أمه وأبيه وجده وزوجته ، بدأت بالنفاد ، فبيعت منها أراض وقصور ومزارع بالثمن البخس ، ورهنت أراض وقصور ومزارع أخرى ، وأوشك الماريشال على الانهيار ، ومع ذلك فإن الذهب لم يختف من بين يديه ، وظل ينثره ذات اليمين وذات اليسار ، مما حمل أقرباءه وفي مقدمتهم زوجته

كاترين وابنته ماري، على الالتجاء إلى الملك شارل السابع كي يضع حداً لهذا الضياع والاستهتار، فأصدر في الثاني من تموز (يوليو) ١٤٣٥، قراراً يمنع فيه البارون جيل دوري من التخلي عن أملاكه، ويطلب من الضباط والحرس العاملين في حصونه وقلاعه الحفاظ على هذه الأملاك حتى وإن كان قد سبق للبارون بيعها أو رهنها.

وعلى أثر صدور هذا القرار توقف المشترون والدائنون عن التعامل مع جيل دوري، وانقطع عنه المنهل الذي كان يمده بالذهب باستمرار، لينفقه بسخائه المعروف على قصوره وأتباعه ورجال حاشيته ولياليٍ لهوه وعبثه، وحينئذ اتجه ذهن ماريشال فرنسا الى صنع الذهب بدلاً من البحث عنه عن طريق مداخيل أملاكه أو الديون المعقودة عليها. وقرر ليس الاستمرار في حياته المترفة وحسب، بل وفاء جميع ديونه واستعادة جميع أملاكه عن هذا الطريق الجديد، وأخذ يبحث في كتب الكيمياء عن الصيغ التي تساعده على ذلك.

والمعروف أن الكيمياء القديمة كان هدفها تحويل المعادن إلى ذهب، وهمها البحث عن حجر الفلاسفة وإكسير الحياة الذي يحيل المعادن الخسيسة إلى معادن كريمة، ويعيد الشباب إلى الإنسان. وقد زاملت الكيمياء القديمة التنجيم، واختلط بها السحر، وسيطرت عليها الرمزية في العصور الوسطى فأغرقتها بالغموض، وينقسم السحر إلى أبيض وأسود، فالسحر الأبيض هو الذي يتوسل الله والقديسين، والسحر الأسود هو الذي يتجه إلى الشيطان لالتماس عونه عن طريق الذبائح الحيوانية والبشرية التي تقدم إليه.

وقرر الماريشال الإقدام على كل شيء في سبيل تحقيق هدفه، فأرسل رسلاً يجوبون أنحاء فرنسا وإيطاليا وألمانيا، بحثاً عمن يستطيع أن يقدم لسيد «ري» صيغة حجر الفلاسفة، وبدأ السحرة يتوافدون الى قصر تيفوج، ومنهم أنطوان دوباليرم وفرنسوا لومبارد وجان بوتي ولينانو والمركيز دوسيفا وجان دولاريفيير، فرحب بهم سيد القصر ومدهم بكل ما يحتاجون اليه من أدوات وأفران وبوتقات لتذويب المعادن ومواد أولية متعددة، واعتكف معهم في قبو القصر الذي تحول الى بؤرة من بؤر السحر.

وفوجىء جيل دوري بأن ولي العهد الـذي أعلن فيما بعـد ملكاً بـاسم لويس الحادي عشر، كان يقوم بجولة في مقاطعة بواتو فأراد أن يحل فترة من الزمن ضيفاً على ماريشال فرنسا، وكان السحر يعتبر جريمة عقـوبتها الإعـدام، فسارع جيـل دوري إلى تخريب كل ما أعده للسحرة من أدوات وإنشاءات، لئلا يحمل الفضول ولي العهد على زيارة أقبية قصر تيفوج، فتكون الكارثة الكبـرى. وكان عليـه أن ينتظر بلهفة وقلق، رحيل ولي العهد، كي يعيد إنشاء كل شيء من جديد.

ورأى جان دولاريفيير أن استحضار الشيطان يجب أن يتم في الغابة الكثيفة التي تحيط بالقصر، فذهب إليها برفقة الماريشال، واوستاش بلانشيه أحد كهنة سـان مالو سابقاً وأحـد أعضاء المعهـد الديني في تيفـوج حينذاك، كـما رافقهم هنرييت وبـواتو غـلاما الماريشالان السابقان. وكـان الليل شـديد الـظلام، فابتعـد جان دولاريفيير عنهم، حاملاً سيفاً وترساً، طالباً منهم انتظاره وعدم التـدخل في أمـره مهما حدث. ومرت دقائق ثم ارتفعت ضجة وقرقعة سلاح، وما لبث جان ان عاد لاهثاً منهاراً، وأنبأهم بأن الشيطان قد ظهر له في صورة فهد، واعتقد الماريشـال بأن ذلك خطوة لا بأس بها، وقضى ليلته وهو يحتسي الخمر مع شلته، ولكن جان دولاريفيير قرر الذهاب إلى بوانيه لإحضار بعض كتب السحر والصيغ الجديـدة، فوافق الماريشال على ذلك واعطاه خمس قطع ذهبية، وذهب الساحر ولم يعـد بعد ذلك إلى تيفوج أبداً.

وجاء ساحر جديد، وأراد العمل في إحدى غرف القصر، ورسم في أرض هذه الغرفة دائرة سحرية، وطلب من جيل دوري وابن عمه جيل دوسيلله أن يدخلا ضمن الدائرة، ففعلا ذلك ولكن الأول كان يتمتم بلا شعور صلاة دينيـة والثاني يحمل في قبضته صورة للسيدة العذراء، فجفل الشيطان وهرب، مما حمل الساحر على طردهما من الغرفة، ليستقبل الشيطان بمفرده، وبعد فترة من الزمن تصاعدت من الغرفة ضجة مخيفة تصحبها ضربات وصرخات. فتجرأ المـاريشال وفتـح باب الغرفة فوجد صديق الشيطان مصاباً بعدة جراح في وجهه وأنحاء جسمه، ولا ثمة أثر للشيطان.

ومع ذلك فإن الماريشال لم يقنط، وخيل إليه أن الشيطان يقترب منه أكثر فأكثر،

فبعدما ظهر في صورة فهد، ظهر في الغرفة في صورة إنسان، وإذا كان قد اختفى سريعاً فلا بد من أن يتبدل الموقف فيما بعد، عندما يطمئن إلى إخلاص صاحب القصر له.

وجاء من انكلترا ساحر يدعى جان لانغلوا، فاقترح كتابة الاستدعاء المقدم للشيطان من جيل دوري بخط يده وأن يوقعه بدمه، ففعل ذلك، وتمت حفلة الاستحضار دون أن يكلف الشيطان نفسه بالظهور، فعمد جيل إلى توجيه رسالة ثانية له أكد فيها استعداده بأن يقدم للشيطان كل ما يطلبه باستثناء روحه وحياته، ولكن الشيطان لم يظهر.

وكاد ماريشال فرنسا يفقد ثقته في أولئك السحرة الذين يملأون قصره بثيابهم البيضاء، ويقضون الساعات الطويلة في أقبية القصر وهم يحرقون في الليل والنهار أنواعاً مختلفة من الأعشاب والمساحيق والمعادن، ويقيمون الحفلات الشيطانية في المعهد الديني نفسه! ، دون أن يتنازل فيظهر لوسيفرامير الشياطين، ولا ملكهم بلعزبول، ولا بليال الذي يحكم ثمانين فرقة من الأبالسة، حتى ولا شيطان عادي بسيط دون لقب أو مرتبة!

وتأكد للماريشال من مطالعة الكتب أن أفضل السحرة هم سحرة توسكان، فأرسل إليها أوستاش بلانشيه، وأمره بأن يبذل كل جهد ويدفع أي مبلغ، في سبيل إحضار الأمهر بين هؤلاء السحرة ذوي الصلة الأكيدة مع الشياطين، وإذا استطاع أن يحضر كاهناً من كهنة السحر الأسود فذلك أفضل من السحرة العاديين. فذهب أوستاش لأداء مهمته، وعثر على الساحر المطلوب في فلورنسا في شخص الكاهن فرنسيسكو بريلاتي، وهو شاب فائق الجمال في الثالثة والعشرين من عمره، ضليع في العلوم الكيمائية وقد ظهر له الشيطان المدعو بارون مرات عدة.

وعاد أوستاش والساحر إلى قصر تيفوج، فاستقبلهما رب القصر بحفاوة، وبهره جمال الشاب وزاد انبهاره حين سمعه يتحدث بلغة لاتينية صافية، فطلب منه المباشرة حالاً بأعماله لإيجاد حجر الفلاسفة وصنع الذهب، الكثير من الذهب،

فأخذ الساحر يبحث عن مكان ناء يقيم فيه مختبره، ووقع اختياره على منزل منعزل تقيم فيه بيروتا وهي وسيطة كانت تقدم للماريشال الغلمان الجميلين، فنقلت إلى هذا المنزل أدوات الكيمياء وكتب العلوم، وأودعت في غرفة خاصة لا يدخلها غير الساحر وجيل دوري وحدهما فيقضيان الساعات الطوال وهما يتوسلان إلى الشياطين ويغدقان عليهم أشتات الوعود، دون أن يظهر لهم أي أثر.

وانتقلت الحفلات إلى القصر، وفي قاعة واسعة منه وزعت في مختلف الأنحاء أحواض تشتعل فيها النار ويحرق فيها البخور والآس والصبر ومسحوق حجر المغناطيس فيتعالى في القاعة أريج العطور الزكية، ورسم فرنسيسكو بريلاتي على الأرض دائرة كبيرة زينها بنقوش ورموز سحرية، ثم دخل جيل دوري مع الساحر إلى قلب الدائرة وهو يرتدي ثوباً أبيض وفي إحدى يديه مشعل وفي الثانية شمعة. وقد علق على ثوبه الأبيض صكاً كتبه بيده ووقعه بدمه، ومن حوله الساحر يدور وهو يقرأ في كتاب من الجلد الأسود، واستمرت هذه الحفلات أياماً عديدة دون طائل، فعمد بريلاتي إلى تقديم الذبائح للشياطين، وكانت مؤلفة من ديك وحمامة وطير وسلحفاة، ومع ذلك فإن هذه الذبائح لم تجتذب أحدا من الشياطين، إلا أن الساحر كان يؤكد أن شيطانه بارون سيأتي وسيطيع.

وبعد أيام ظهر بارون للساحر وأبلغه أنه كان غاضباً عليه ولكنه قرر مصالحته والتعاون معه، ولما سأله لماذا يرفض الظهور على الماريشال طلب منه أن يقدم له هذا يداً وقلباً وعيناً ودماً منتزعة من أطفال صغار جميلين، ولما سمع سيد القصر هذا الطلب لم يقابله بأي استغراب أو استنكار، فما أكثر ما كان يقتل الأطفال من أجل المتعة، فلماذا لا يقتلهم الآن من أجل المنفعة، من أجل الحصول على الذهب، فيجمع بذلك بين المتعة والمنفعة!

واتفق أن الوسيطة ميفراي جاءت إلى القصر في صبيحة ذلك اليوم، بفتى جميل في الخامسة عشرة من عمره، فليكن هذا الفتى إذن القربان الأول الذي يقدم للشيطان بارون، وفي المساء، بينما كان هنرييت وبواتو ينظفان المكان من آثار الجريمة كعادتها في مثل هذه الحالات، كان الماريشال المضرجة يداه بالدم يضع في قماش قطني أبيض يد الضحية وقلبها وعينيها وقارة من الدم الدافىء ثم يحملها إلى

بيرلاتي في منزل بيروتا حيث يعقدان حفلة سحر لاستحضار الشيطان. ولكن الحفلة انتهت في الصباح، تبعتها حفلات، دون أن تسفر عن أي نتيجة.

ثورة المطران

وعلى أثر ذلك اشتد اللغط في أنحاء البلاد المختلفة، عن اختفاء أطفال اشتهروا بجمالهم ونضارتهم، ثم تحول اللغط إلى حالة من الذعر إثر تكاثر حوادث الاختفاء وتتابعها، وبدأ الآباء يتشاورون فيما بينهم للبحث عن أبنائهم والقبض على الخاطفين. وما لبث هؤلاء حتى تجمعت لديهم من المعلومات ما يؤكد أن حوادث الاختفاء تتم في أنحاء القصور التي يملكها الماريشال جيل دوري، وهي تنتقل مع تنقلاته بين هذه القصور، فاتصل فريق منهم بمطران نانت جان ماليسترو، وأطلعوه على شكوكهم. وهال المطران الأمر، فألف لجنة سرية للتحقيق في تحركات جيل دوفال بارون دوري.

وكان الخطر يحيط بالبارون ويتهدده يوماً بعد يوم، فإن أخاه رينه دولاسوز والأميرال لوهياك، استغلا قرار الملك شارل السابع بمنع سيدره من بيع أو رهن ممتلكاته، فاحتلا بالقوة قصر شامبتوسه وقصر ماشيكول، قبل أن يستطيع جيل دوري إخفاء آثار جرائمه وبقايا ضحاياه التي كان يلقي بها في أعماق الحصون. فبادر إلى تأليف جيش، ومده دوق دوبروتاني بجيش مماثل، واستعاد بهما قصر شامبتوسه وكان أول ما فعله جمع خمس وثلاثين جمجمة وهيكل عظمي ووضعها في أكياس وشحنها على عربة لتمضي بها الى قصر ماشيكول الذي استعاده أيضاً، لتضيف الى حمولتها عظام ثمانين طفلاً. ثم تتابع طريقها الى قصر تيفوج حيث تحرق في الفرن الكبير تلك الحمولة الرهيبة مع ما بقي في القصر من هياكل الأطفال العظمية وجماجمهم.

ومرت شهور أشرف فيها الماريشال على الهاوية. فخزائنه قد فرغت،وأصدقاؤه تخلوا عنه، والدائنون توقفوا عن مده بالمال، والشيطان يأبى أن يستجيب لنداءاته وتوسلاته على الرغم من القرابين الكثيرة التي قدمت له. وبعدما كان يحلم بأمجاد لا حد لها، اقتصرت ملكيته على قصريّ تيفوج وماشيكول. فقرر استعادة الأملاك

التي كانت له، وأنشأ جيشاً زحف به على سان اتيين دوميرمورت لاستعادتها من جان لوفيرون. واقتحم الكنيسة واعتقل لوفيرون فيها وزجه في السجن بحجة أنه اغتصب أملاكه.

وقد قضى الماريشال بذلك على نفسه، لأنه أوجد له عدوين خطرين: الملك الذي أخذ عليه إنشاءه جيشاً دون إذنه، والكنيسة التي أهان أحد معابدها وسجن أحد كهنتها. وكان المطران جان ماليسترو قد أهمل أمر اللجنة التي ألفها للتحقيق في شبهات ذوي الأطفال المخطوفين حول جيل دوري، فجدد الاهتمام بها، وأخذ يستمع إلى الشهود بنفسه، وأرسل مندوبين عنه إلى مختلف الأنحاء التي شهدت اختفاء أطفال من أبنائها للحصول على شكاوى واتهامات بحق الماريشال، ثم أصدر في ٢٩ تموز (يوليو) سنة ١٤٤٠ قراراً يعلن فيه اتهام «جيل دوري الشفاليه وبارون ري وسيدها» مؤكداً: «أنه ثبت لنا بأنه وبعض شركائه قد أقدموا على خنق عدد كبير من الأبرياء وقتلهم والتمثيل بهم بوحشية، وأنهم مارسوا معهم علاقات غير طبيعية، بحسب رذيلة سودوم (اللواط)، وعملوا على استحضار الشياطين...».

وتألفت لمحاكمة الماريشال محكمتان، واحدة مدنية وأخرى كنائسية. وجيء به الى نانت، وتجمع الناس على جانبي الطريق لرؤية جيل سيدلافال وبارون دوري، وماريشال فرنسا، وقائد جيوش بروتاني، وفريق جان دارك، ومستشار الملك شارل السابع وصديقه الحميم! وهو يساق الى المحكمة ذليلاً مهاناً والجماهير تشتمه وتبصق عليه.

ودافع جيل عن نفسه، وغضب وشتم وتحدى المحكمة، ورفض القضاة، ولكن ما كادت المحكمة تقضي بجرمه حتى انهار وأخذ يتوسل لمطران نانت وللأخ جان بلوين بأن يرفعا الحرم عنه، مؤكداً أنه رفض أن يبيع للشيطان «روحه وحياته» كي يبقى مسيحياً ويتجنب الجحيم. وبعدالتداول في هذا الشأن، قررت المحكمة السماح له بممارسة الطقوس الدينية حبا بالله.

ولكن الشهود تحدثوا بما تقشعر له الأبدان، واستمع أعضاء المحكمة وجمهور

الحاضرين بذهول إلى تفاصيل الجرائم التي اقترفت بوحشية لا مثيل لها، ولما سئل المتهم عما إذا كان له من تعليق على هذه الشهادات بكل تفاصيلها، أجاب بالنفي.

ولكي تتضح الصورة المنكرة بكامل حقيقتها قررت المحكمة إحالة المتهم إلى الاستجواب، والمعروف ان الاستجواب كان يعني التعذيب، فأخذ الماريشال يبكي ويتوسل، وهو الذي ضحى بسبعمائة أو ثمانمائة طفل، واستمتع بعذابهم وصراخهم، وقطع رؤوساً وأعضاء، وبقر بطوناً وانتزع قلوباً... ومد يديه الضارعتين إلى القضاة، معلناً استعداده للاعتراف بكل شيء من تلقاء نفسه، دون حاجة للالتجاء إلى التعذيب.

واعترف بكل شيء، ووصف التفاصيل، وشرح المواقف. روى حبه للغلمان وقتله إياهم بعد ذلك كي لا يكشفوا سره، وتحدث عن ممارسته للسحر لاستحضار الشيطان، وأكد أنه قام بتنفيذ أوامر الشيطان وتقديم القرابين له من الغلمان. وانتزاع قلوبهم وعيونهم وأيديهم ودمائهم تحقيقاً لمشيئته، أملاً في الحصول على حجر الفلاسفة لتحويل المعادن إلى ذهب.

وقضت المحكمة بإعدام جيل دوري شنقاً ثم إحراق جثته. ونظراً لندمه، وبعطف خاص، تقرر أن يدفن ما يتبقى من جسده بعد إحراقه في نانت وفي مقبرة الكنيسة التي يختارها، فصرخ جيل باكياً:

- إني أشكر لك شكراً جزيلاً يا سيدي الرئيس هذا العطف، وأرجو أن تدفن جثتي في مقبرة كنيسة موستيه دو نوتردام دي كارس.

وهكذا تضاءلت أمجاد ماريشال فرنسا، حتى انحصرت في حفرة مجهولة في مقبرة لم يعد لها اليوم وجود!

الكاهن أوربان غرانديه أحرق حيا و «ريشيليو» اعتبر ذلك.. خطأ

كل عصر كان له دجالوه ومشعوذوه الذين يتاجرون بالمبادىء السامية والقيم الرفيعة، ولكن في كل عصر وفي كل أمة كان ينهض رجال أحرار مستنيرون لتهديم الخرافة وفضح التدجيل والتضليل. . . وليس المهم ما كابده أولئك الأحرار دائماً من اضطهاد وإرهاب وتنكيل، وإنما المهم أن تعاليمهم هي التي كانت تنتصر دائماً، وأن استشهادهم، كان حافزاً قوياً من حوافز التقدم والرقي.

والقصة التي نرويها الآن قد حدثت في فرنسا سنة ١٦٣٤ في عهد الوزير ريشيليو، وكان بطلها أوربان غرانديه كاهن كنيسة سان بيير في لودون.

ولد غرانديه سنة ١٥٩٠ وتلقى دروسه في معاهد اليسوعيين، وكان هؤلاء يريدون إلحاقه بشيعتهم، ولكن ما يتمتع به من حرية الفكر واستقلال الرأي قد أبعده عنهم، لأنه أدرك منذ البدء أنه لا يستطيع التقيد بنظام الطاعة الذي يخضعون له، فانتظم في سلك الكهان لا الرهبان، وغدا كاهناً في كنيسة سانت كروا ثم عين أسقفاً لكنيسة سان بييترا وهو لا يزال في سن الشباب، لما بدا من نباهته وبلاغته وسعة اطلاعه.

وكان الأسقف الشاب فريداً بين زملائه الكهان، فهو أوفرهم ثقافة وألمعهم رأياً وأنقاهم ضميراً، وهو يتمسك بأصول الدين وروحه الداعية الى الفضيلة والمحبة

دون طقوسه ومظاهره، وما أدخل عليه من أوهـام وخرافـات تتنافى في رأيـه مع المنطق السليم ولا تتلاءم مع جوهر الدين.

وتألف بذلك «لأوربان غرانديه» خصوم عديدون في طليعتهم الكاهن مينيون، كما كان له منافسون ينفسون عليه ما يتمتع به من حجة قوية وحيوية عارمة وشباب ريـان، وما يحـظى به لـدى الناس من حب وإعجـاب، ولا سيـما لـدى النسـاء الكثيرات المفتونات بجماله وبلاغته، وقد اتهم بإقامة علاقات غرامية مع العديد منهن، وزعم الكاهن تيبول أنه شاهـد غرانـديه وهـو يغازل إحـداهن في غرفتـه بالكنيسة.

وإلى جانب هذه الاتهامات، كان الخصوم والمنافسون على السواء يأخذون عليه معارضته لسياسة الدولة، ولا سيما ما يتعلق منها بإلغاء حريـة الضمير واضـطهاد الخارجين عل الكنيسة الكـاثوليكيـة من البروتستانت والأحرار، وانتقـاده العلني للكاردينال ريشيليو الذي كان يحكم فرنسا حكماً دكتاتورياً في عهد لويس الثالث عشر مستعيناً في ذلك بأم الملك ماري دومديتشي، وعلى الرغم من مناصرته للفنون وتأسيسه الأكاديمية الفرنسية فقد كان شديد التعصب ضد الهيغونوت وأرهق البلاد بالحروب مما أثقل كاهل الخزينة وأدى الى تذمر عام.

وقد وجد رؤساء «أوربان غرانديه» في ذلك كله ما يسوّغ لهم اتهامه بالتهاون في واجباته الدينية، فاعتقل في «بواتيميه» يوم ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٦٢٩. وجرت محاكمته في جو عدائي متعصب، ولا سيما من قبل النائب العـام ترانكـان الذي كان يتهم غرانديـه بأنـه أغوى ابنتـه إليزابيت، فحكم عليـه بعدم ممـارسة وظيفته الدينية، وبالصيام في أيام الجمعة إلا عن الخبز والمال طوال شهور ثلاثة.

الشيطان يدخل الدير

وقد استأنف غرانديه هذا الحكم إلى مطرانية بوردو، وقامت في لودون حركـة مناصرة له معارضة للحكم الذي صدر بحقه، كما أن الشاهدين الرئيسيين اللذين استندت محكمة بواتيه على أقوالهما في إصدار الحكم عليـه، وهما الكـاهنان بـوليو وميشان، تراجعا عن شهادتيهما وقدم أحدهما الى محكمة بوردو شهادة خطية جديدة

قال فيها:

«أعترف أن جيرفيه ميشان كاهن كنيسة سان بيير دومارشيه في لودون، بهذه الشهادة الموقعة من قبلي بمطلق إرادتي ولإراحة ضميري، عن الشائعة التي أطلقها الكاهن جيل روبير، ضد أوربان غرانديه كاهن وأسقف كنيسة سان بيير، تلك الشائعة التي رجاني بيير الآنف الذكر أن أزعم فيها بأني شاهدت غرانديه يقيم علاقات جنسية، مع سيدات وآنسات متعددات، ولمدة طويلة، داخل حرم الكنيسة، وإني شاهدت تلك النساء يأتين لزيارته في غرفته باستمرار، وكان بعضهن يبقين معه من الساعة الواحدة ظهراً إلى الساعة الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل، وكانت خادماتهن يحملن إليهن عشاءهن سراً، وأن غرانديه كان يستقبلهن في غرفته ويغلق باب الغرفة فور دخولهن ويبقى فيها معهن طوال تلك المدة. ورغبة مني في أن تتوقف تلك الشائعات، أعلن بهذه الشهادة أني لم أشاهد غرانديه على الإطلاق مع سيدات وآنسات في الكنيسة وضمن غرفة مغلقة وعلى انفراد، وأؤكد انه عندما كان يتحدث مع النساء كان يجتمع بهن جماعة وليس على انفراد ومع كل منهن، وكان باب الغرفة يظل مفتوحاً والنور يضيء الغرفة، وهو جالس على مقعده وهن بعيدات عنه على مقاعدهن، صحيح أنني كنت أسمع في ساعات متأخرة من الليل حركة أناس يأتون إلى غرفة غرانديه أو يغادرونها، ولكن لا أعلم إذا كانوا رجالاً أم نساء، كما أني لم أشاهد خادمات يحملن العشاء إلى سيداتهن في غرفة غرانديه».

وفي ٢٥ أيار (مايو) ١٦٣١، صدر حكم القضاء بتبرئة أوربان غرانديه من التهم التي نسبت إليه وإبطال الحكم السابق بحقه، ولكنه نصح بأن لا يعود إلى بوردون وبأن يستعفي من منصبه، تجنباً للاصطدام مع خصومه الكثيرين، إلا أنه لم يعمل بهذه النصيحة، وإنما عاد الى مدينته وهو يحمل في يده إكليلاً من غار يتحدى به أولئك الخصوم الأقوياء، انتقاماً للشهور التي قضاها مضطهداً في السجن.

وما كاد غرانديه يستقر في «لودون» ويعاود سيرته في انتقاد زملائه والطعن في مسلكهم الذي يتعارض مع أقوالهم، والدعوة الى نبذ الأوهام والخرافات، حتى

تنادى هؤلاء من جديد إلى محاربته حرباً حاسمة منظمة وعلى رأسهم الكاهن مينيون، الذي عين خلال ذلك رئيساً للرهبانيات.

وكان في المدينة دير للراهبات هو «دير الأورسولين»، فأخذت تظهر على الراهبات في هذا الدير عوارض غريبة وتمثل فيه مشاهد عجيبة، فقد كان كثير من هؤلاء الراهبات، ومنهن رئيسة الدير نفسها، جان ماري دوبيليفييل، تنتابهن نوبات هستيرية قيل في تفسيرها إن الشياطين قد اجتاحت الدير وسكنت في أجساد الراهبات الفاتنات المتعبدات لتفسدهن وتخرجهن عن سواء السبيل.

وأفتى الكاهن مينيون بأن الشيطان لا يستطيع التلبس في جسد راهبة، إلا إذا كان متحالفاً مع كاهن يمهد له السبيل إلى ذلك، فمن يكون ذلك الكاهن إن لم يكن أوربان غرانديه؟

وسرعان ما انتشرت في المدينة حكاية الأبالسة والشياطين، وذاع معها أن غرانديه إنما هو حليف الشيطان، وأنه ما كاد يعود إلى لودون حتى عادت الجن معه وجعلت تروع المؤمنين، فأنشأ المواطنون ينظرون إليه بحذر شديد.

ولما تعاظم هذا الأمر، واشتدت النقمة على حليف إبليس، جاء كبار الكهنة لطرد هذه الشياطين، وجيء برئيسة الدير لاستجوابها، فقال شيطانها الأمين أن الدرس تلقنه من خصوم غرانديه، بلسانها وباللغة اللاتينية العريقة:

- إن المجرم هو أوربان غرانديه... لقد ألقى في حديقة الدير غصناً من الورد، فما من راهبة لمست وروده إلا وفعل السحر فعله فيها وحل الشيطان في جسدها!

أما شياطين الراهبات الأخريات، فإنها كانت تجهل اللاتينية ولهذا فإنها اكتفت بإحالة المحققين على شيطان الرئيسة! ولكن الشيطان، على الرغم من تضلعه في اللاتينية، لم يستطع أن يقول أكثر من ذلك، فاكتفى المحققون بجوابه الأول قائلين إنه ليس من حقهم ولا من اللائق أن يلقوا على الراهبات أسئلة محرجة تتعلق بما يخالجهن من مشاعر من جراء دخول الشياطين في أجسادهن ومداعبتهن في أمكنة حساسة منها!

وتألفت على الأثر هيئة من القضاة للنظر في هذه القضية، وأراد هؤلاء أن يثبتوا حيادهم فطلبوا من رئيس الرهبنات الكاهن مينيون أن لا يكون في عداد الرقاة الذين يستجوبون الراهبات ويحاولون إخراج الشياطين من أجسادهن، لما عرف من عدائه لغرانديه، ولكنه لم يعد بذلك، وأعلن أنه استجوب الرئيسة جان ماري دوبيليفييل من جديد، فعلم أن في جسدها ستة شياطين أسماؤهم مسجلة لديه!

وحين اجتماع القضاة ومثلت الراهبات المسكونات أمامهم، أخـذت الرئيسـة تختلج وتتشنج، وتمد لسانها، وتأتي بحركات غريبة سرعان ما نسيتها تماماً عنـدما عاد رشدها إليها، وكذلك اعترت إحدى الراهبات هذه التشنجات نفسها، إلا أن شيطانها لم يكن بليغاً كشيطان الرئيسة ولم يلفظ غير بضع كلمات متلعثمة.

وكان غرانديه قد قابل التهمة التي وجهت إليه بالهزء والسخرية. ولكنه لم يلبث حتى رأى أن الأمر يتطور ويزداد خطورة، فطلب من حاكم المدينة أن يأمر بعـزل الراهبات واستجوابهن منفردات، وتسمية محققين حياديين للتحقيق معهن، وحين لم يستطع الحاكم تحقيق طلبه، شكا أمره إلى كبير أساقفة بوردو، فأرسل هذا طبيبه الخاص إلى لودون للتحقيق في هذه القضية مع لجنة من القضاة والأطباء، وأعلن أنه إذا ثبت كذب الراهبات كما يدعي غرانديه فإنه سينزل بهن صارم العقاب.

وما كاد طبيب الأسقف يصل إلى لودون على رأس اللجنة حتى شفيت الراهبات أو توقفت على الأقـل الأعراض التي كـانت تنتابهن، فـأيقن الكثيرون بـأنهن كن يتصنعن الجنون تصنعاً، وغدت قضيتهن مبعث الدعابة في بعض الأوساط إذ قال أناس إن الشياطين، انتقوا أجمل الراهبات وأصغرهن سناً، واختاروا أماكن حساسة من أجسادهن وأقاموا فيها، وهو أمر يـدل على أن الجن تتمتـع بالشعـور الدقيق والذوق المرهف.

واتفق أن زار لودون في تلك الأيام جان مارتان دو لوبارديمون مستشار الدولـة وبدأ الوزير ريشيليو في كـل جريمـة اقترفهـا، فاطلع عـلى كتيب هجائي بعنـوان «الإسكافية الحسناء في لودون» وفيه هجوم شديد على الكاردينال وعلى المظالم التي ترتكب في عهده بأسلوب فكاهي ساخر. وأكد بعض المسؤولين لمستشار الدولة أن

غرانديه هو الذي وضع ذلك الكتيب العدائي، بينما قال غيرهم إنهم لا يستطيعون إثبات هذا الأمر أو نفيه ولكنهم يعتقدون بأن غرانديه إن لم يكن هو الذي وضع ذلك الكتيب فإنه كان على علم بأمره (تبين للمؤرخين فيما بعد أن سيدة أديبة تدعى ماري هامون هي التي وضعت تلك الأهجية الساخرة).

وسرعان ما أمر لوبارديمون بتوقيف غرانديه، فما كاد يدخل السجن حتى عادت الشياطين للظهور في أجساد الراهبات، وأعيد فحصهن واستجوابهن من جديد، فحاولت الراهبات وحاول الكهان الذين يعالجونهن إثبات وجود الشياطين في أجسادهن بأشتات الأساليب وفي جلسات متعددة، ولكن الطبيبين دونكان وكيليه استطاعا فضح تلك الفرية وإظهار ما وراثها من تصنع وخداع، وجعلا من قضية الشياطين هذه موضوع فكاهة وسخرية لدى الجمهور الذي حضر الفحص، مما أغضب لوبارديمون فأصدر قراراً منع فيه التعرض للراهبات والكهان بشيء من الاستهانة، وأراد أن يبطش بالطبيبين الجريئين فاستجار الأول بالماريشال بروزه وهرب الثاني إلى إيطاليا.

الحاكم . . . المسبق

وحين اقتحم المحققون منزل غرانديه لم يجدوا فيه كتباً عن السحر، ولكنهم وجدوا ما اعتبروه أشد خطراً منه، وهو مذكرات كتبها غرانديه حول زواج الكهان، وأيد فيها زواج رجال الدين واستنكر فرض العزوبية عليهم، وقال إن أعضاء الكهنوت في المسيحية لم يكن يفرض عليهم الحرمان الجسدي، وأن بطرس وبولس قد أعطيا على ذلك المثل بنفسيهما، وأنه لأكرم بالنسبة لرجال الإكليروس وللعائلات التي يخالطونها على السواء، أن لا يحرموا من الزواج فتكون حياتهم طبيعية وإنسانية.

وعلى الرغم من ذلك فإن مستشار الدولة أصرّ على أن يحاكم غرانديه بتهمة السحر، وحين رأت الأخت ماري كلير وهي إحدى الراهبات اللواتي أصبن بالهستيريا من جراء غصن الورد الذي ألقاه غرانديه في باحة الدير، أن القضية لم تعد مجرد لعبة تتسلى بها مع رفيقاتها، وباتت تهدد غرانديه في حياته، اعترفت أمام لجنة التحقيق وجمهور الحاضرين بأن كل ما لفق لإدانة أوربان غرانديه كان كذباً

واحتيالاً. وتشجعت الأخت أنييس إثر هذا الموقف النبيل، فقالت إن ضميرها يأمرها بأن تؤكد ما قالته رفيقتها الأخت ماري كلير.

وألف لوبارديمون هيئة قضائية ضم إليها قضاة وكهان ومستشارين وضباط من بواتيه وأورليان، وعقدت هذه الهيئة أولى جلساتها في ٢٧ تموز (يوليو) سنة ١٦٣٤ لمحاكمة أوربان غرانديه بتهمة السحر والتحالف مع الشيطان، فدافع عن نفسه بجرأة وبلاغة، ولكنه ما لبث حتى أدرك من تصرف القضاة أن الحكم عليه مقرر مسبقاً، فتوقف عن الدفاع عن نفسه والتزم الصمت.

وفي ١٨ آب (أغسطس) سنة ١٦٣٤ أصدرت المحكمة حكمها الذي يقول إنه قد «ثبت لهيئة المحكمة بأن أوربان غرانديه كان يمارس السحر ويتعاون مع الشيطان على إفساد الراهبات في مدينة لودون، وهي تقضي بأن يوثق غرانديه ـ بعد إرغامه على الاعتراف بذنوبه وطلب الصفح عنها ـ على وتد فوق محرقة تقام في ساحة لودون العامة، كي يحرق جسده حياً وتحرق معه نزعاته السحرية والكتاب المخطوط من قبله الذي ألّفه ضد عزوبية الكهان، وأن ينثر رماده في الريح.

وتنفيذاً للبند الأول من العقاب تعرض غرانديه إلى الاستجواب العادي والاستجواب غير العادي، للاعتراف بذنوبه وطلب الصفح عنها، ولم يدع المستجوبون نوعاً من أنواع التعذيب دون أن يلجأوا إليه لإرغامه على الاعتراف وطلب الغفران، ولكنه أصر دائماً على القول إنه لم يمارس السحر يوماً، ولم يؤمن بوجوده قط، ولم ير للشيطان وجهاً أو يسمع له صوتاً.

ثم نقل إلى غرفة عارية ووضع أمام النار المشتعلة في المدفأة، فطلب حضور الكاهنين أوغوستان وغريلو اللذين أظهرا عطفاً عليه، فرفض طلبه وأرسل إليه الأبوان ترانكيل وكلود اللذان ساعدت شهادتاهما في إصدار الحكم عليه.

وفي الساعة الخامسة مساء ألقي في عجلة ذات دولابين، ونقل إلى باحة كنيسة سان بيير حيث أرغم على الركوع على ركبتيه والاستماع مرة ثانية إلى قرار المحكمة بتعذيبه وإحراقه، فانهار على بطنه ولم يعد يستطيع النهوض، فدنا منه الأب غريلو وقبله إشفاقاً عليه، بينما كانت ترتفع صرخات الجمهور استنكاراً، مطالبة بالكف

عن تعذيبه.

إلا أن عملية التعذيب كانت مستمرة فقد نقل من كنيسة سان بيير إلى باحة دير الأورسولين وهو مسرح جريمته. ليتلى عليه قرار المحكمة مرة أخرى، ثم نقل إلى الساحة العامة حيث تنتظره المحرقة، فأوثق إلى وتد بسلك من حديد، وأدير ظهره باتجاه كنيسة سان بيير أبرشيته الأخيره، وارتفعت أصوات الكهنة المصطفين هناك بأغان دينية تهدف إلى إخراج الشيطان من جسده.

وسئل للمرة الأخيرة عن علاقته بالشيطان وطريقته في ممارسة السحر، ونصح بالاعتراف والاستنكار وطلب المغفرة قبل وفاته، فأنكر كل ذلك وقال إن الله يعلم بأنه بريء وسوف يتغمده برحمته. وقرىء عليه قرار المحكمة للمرة الرابعة.

ولما وضع حبل المشنقة في عنقه، وطلب منه الاعتراف بجرائمه، حاول أن يخنق نفسه بشد الحبل المحيط بعنقه ليتخلص من عذابه، فأخذ الأب لاكتانس غصناً مشتعلاً وأدناه من وجهه وهو يصرخ به:

ـ أيها الشقي... هل تريد أخيراً الاعتراف بجرائمك والتخلي عن صداقة الشيطان؟!

ثم استبق عمل الجلاد وأضرم النار في المحرقة، فخاطبه غرانديه بقوله:

ـ أيها الأب لاكتانس، أهكذا تمارس فعل المحبة؟ إن في السماء إلهاً سيحاكمك ويحاكمني... وسوف تمثل أمامه قريباً!

وكانت تلك كلماته الأخيرة، فإن النار التي أججتها الريح قد أحاطت به من كل جانب. وما هي إلا دقائق حتى لم يبق من أوربان غرانديه سوى عظام مفحمة.

وأسف الكاردينال ريشيليو في مذكراته لهذه المأساة وهو المسؤول الأول عنها، وقال إن مشاغل الدولة لم تكن تترك له فسحة من الوقت، للاضطلاع بشؤون أخرى، وإلا لكان أصغى إلى صوت الرأي العام المطالب برفع الظلامة عن أوربان غرانديه، ولمنع حتماً وقوع هذه الجريمة!

فيا له من اعتذار يدعو إلى السخرية والإشفاق!

قال ديمولان وهو يسلم رأسه للجلاد: هكذا تكون نهاية أول رسول للحرية!

كانت باريس ترتجف، والثورة تغرق في الفوضى والصراعات الجانبية والتجاوزات الداخلية، المتطرفون يصبحون معتدلين في نظر ثوريين أكثر تطرفاً، وهؤلاء الأكثر تطرفاً يغدون خونة في نظر فريق أكثر تعصباً وتشدداً. وما دام التطرف وليس التعقل، هو الذي يحرك الجماهير، فقد ساد الجنون. وقد بلغ جنون العنف درجة اللارجوع، وبدأت الأرض تميد تحت أقدام الجميع.

وشعر كميل ديمولان بهول ما يجري، واعتبر نفسه أحد المسؤولين عن المجزرة الرهيبة التي اجتاحت بلاده. أخذ الكاتب الذي طالما حرك الشعب وحرض على الثورة يخاطب نفسه بقوله: «إمسك قلمك يا كميل فإن مياه السين قد تحولت إلى دماء! ولكن عاصفة الإرهاب كانت قد انطلقت. ولم يعد من الممكن ضبطها وتحديد مسارها.

وكانت المحاكم تحكم على الشبهات والشائعات، وكثر أولئك الذين يقدمون الوشايات بحق جيرانهم وأصدقائهم وإخوتهم ليجنبوا أنفسهم تلك الوشايات، فإن «قانون المشبوهين» يدين بالخيانة حتى «أولئك الذين لم يقترفوا جرماً بحق الحرية، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من أجل الحرية!».

كان كميل ديمولان قد أوقف جريدته «ثورات فرنسا» معتقداً بأن مهمتها قد

انتهت حين حققت الثورة أهدافها. . . فرأى أن الحاجة تقضي بإصدار جريدة جديدة لا تدعو هذه المرة إلى الثورة بل إلى الاعتدال، ولا تحض على التقاتل بل على التسامح، ولكنها تدافع دفاعاً مجيداً عن «حقوق الانسان» وهي الحقوق التي كان إعلانها من أعظم إنجازات الثورة ولكنها ما لبثت أن ديست بالأقدام.

وبعدما تشاور مع دانتون وأعضاء نادي «الكورديليه» عمد ديمولان إلى إصدار جريدة جديدة باسم «لوفيو كورديليه» أي «الكورديلي القديم».وأخذ يحذر من الإرهاب، ويهاجم الطغيان، ويذكّر بحقوق الانسان في مقالات رائعة قال ميشله كبير المؤرخين الفرنسيين: «إنها صرخات رسولية ستهز النفوس إلى الأبد!».

وعلى الرغم من التحذير «الذي وجه إليه من كل الأطراف، ومن روبسبيير بنوع خاص، فإنه أصر على موقفه في التنديد بأحكام الإعدام وأخذ الناس بالشبهات، صارخاً بأعلى صوته: «افتحوا السجون لإطلاق المئتي ألف مواطن الذين تسمونهم مشبوهين، فإن إعلان الحقوق لا يسمح باعتقال الناس على الشبهات!».

وغضب روبسبيير وسان جوست، واعتبرا أن ديمولان قد أفسده زواجه من أسرة غنية، وطلبا من أحد الحاضرين في النادي اليعقوبي أن يقرأ على الأعضاء مقاطع من أعداد «الكورديلي القديم»، ودعيا الى إحراقها فصودرت وأحرقت. . ولكن الجريدة الثائرة على الثورة استمرت في الصدور.

وفي ليلة ٢٩ ـ ٣٠ آذار (مارس) ١٧٩٤، وبناء على ضغط روبسبيير، قرر الكونفانسيون توقيف دانتون وديمولان وديلاكروا وفيليبو ومؤيديهم ومحاكمتهم بتهمة خيانة الثورة. وقد اقترح أحد النواب محاكمة دانتون ورفاقه أمام المجلس بدلاً من أن يحاكما أمام محكمة الثورة.ولكن روبسبيير كان يخشى موهبة دانتون الخطابية وتأثيرها على أعضاء المجلس، فرفض ذلك قائلاً إنه لا يجب إعطاء امتياز لأحد، فليحاكموا أمام المحكمة كالآخرين، ومن يتردد منكم في الموافقة على ذلك فهو مجرم! وبعثت هذه الكلمة الرعشة الباردة في أعضاء المجلس فبادروا إلى التصديق على قرار الاتهام.

إنها لعبة الموت التي تتبدل فيها المواقع والأدوار بسرعة مـذهلة. وهكذا انتقـل دانتون من منصب وزير العـدل إلى متهم يساق إلى السجن ويحـاكم أمام محكمـة الثورة التي أنشأها بنفسه.

وفي تلك الليلة عاد كميل ديمولان الى منزله منهوك القـوى شأنـه في كل ليلة. وكان قد كتب في جريدته آخر مقالاته، وقد أنهاه بقوله:
«إني أخاف تماماً أولئك الذين يقولـون لك إن الإرهاب يجب أن يسود، لأني واثق، عـلى العكس، بأن الحـرية ستتـوطد إذا كـانت هناك لجنـة رحمـة لا لجنـة بطش!».

وفي تلك الأمسيـة الربيعيـة كانت قسمـات وجهه قـد ارتسم عليهـا العيـاء، وشاعت التجاعيد حول عينيه، فبدا كهلاً وهو لا يـزال في الرابعـة والثلاثـين من العمر.

وكان يفكر في الخطر الذي يتهدده، ولم يكن يخشى على نفسه وإنما كـان يخشى عليهما.. على الزوجة والطفل اللذين يحبهما أعظم الحب.

وبدر إلى فمه الاسم الحبيب، فتمتم قلقاً:
- لوسيل.. يا عزيزتي لوسيل..
وإذا بصوت رقيق يجيبه:
- كميل...

فإن المرأة التي حسبها نائمة، كانت تتقلب يقظة على فـراش الذعـر.. ودنت منه، وأخذت تحـدثه بصـوت خافت مـرتعش... ووضعت كتفها تحت رأسـه، وطوقته بذراعيها كأنها تريد أن تحميه. وقالت له:
- لنهرب يا كميل من باريس.. إني أتوسل إليك. لندع النضال والاضطراب ولنعش هـانئين وادعـين. فإن أعـداءك يتـرصـدونـك وربمـا انقلب عليـك حتى الأصدقاء.

فأجاب بلهجة جازمة وبحركة عنيفة من يده:
ـ هذا مستحيل يا لوسيل. . مستحيل! فاحتجت المرأة بقوة:
ـ مستحيل؟ آه. كلا، لا تلفظ هذه الكلمة، أتفضل إذن أيّ شيء على حبك لي؟
فصرخ:
ـ لوسيل!
وانجبست هذه الصرخة من أعماقه كأنها احتجاج بليغ. . ثم قال:
ـ إني أحبك كثيراً يا لوسيل، ولكني أحب وطني أيضاً وأحب مبدأي، والهرب في مثل هذه الظروف جبن، وأنت تعلمين أنني لا أستطيع أن أكون جباناً فأتخلى في ساعة الخطر عن أولئك الذين وثقوا بي، ولو فعلت ذلك لما كنت جديراً بك.

ألهبت الدموع عيني لوسيل وانحدرت منها على خديها الشاحبين، وتساقطت على يدي زوجها المنتفختي العروق. . فتمتم:
ـ أتبكين يا لوسيل. . يا زوجتي العزيزة!
فعادت تتوسل إليه:
ـ إني أضرع إليك أن نذهب، فأنا لم أعد أطيق هذه الحياة. ولنذهب الآن فربما فات الوقت غداً. لنذهب قبل انبثاق النور، سنأخذ ولدنا ونعيش في مكان آخر. أنقذ نفسك، أنقذنا نحن الثلاثة.

جنود تأخروا في سهرتهم!!

ولكن كميل ديمولان ظل صامداً أمام توسلات زوجته. . .
وكان نور الصباح المتراقص يرسم على الجدران أضواء غريبة شبيهة بفراشات كبيرة ذات أجنحة فيها بريق وفيها ظلام.
وكان الطفل يرقد في الغرفة المجاورة، وقد ساد المنزل سكون خانق.
وفجأة ارتفع صوت خطوات على الرصيف، وأخذت هذه الخطوات تقترب. . وتقترب. واتضح الصوت: إنها شرذمة من الجند تدنو من المنزل.
ارتجفت لوسيل ولكن كميل طمأنها بقوله:
ـ لا تخافي يا عزيزتي. . إنهم جنود تأخروا في سهرتهم وهم يعودون الآن إلى

منازلهم.

ولكن خشب السلم أخذ يصر والضجة تزداد .

ارتمت لوسيل على قدمي زوجها وأخذت تهتف به :

ـ بحق السماء . . اختبىء . . أنقذ نفسك . . . انقذنا . . إني خائفة . .

ولكن الوقت كان قد فات، فإن وقع الخطى قد دنا . . وبدأت أعقاب البنادق تحطم باب المنزل، ثم دخل الجنود وتقدم رئيسهم من ديمولان قائلاً :

ـ نحن قادمون للقبض عليك . .

ومد ورقة كانت في يده وقال :

ـ وهذا هو الأمر.

نظرت لوسيل بغضب إلى الجنود الذين يبغون انتزاع زوجها من بيتها ومن حياتها، وأحاطته بذراعيها تريد أن تحول بينهم وبينه. وأخذت تصرخ :

ـ بأي حق تريدون إلقاء القبض عليه . . . ما الذي صنعه، ولماذا توقفونه . . لماذا؟

وأثرت نبرة صوتها لحظة في الجنود، ولكن رئيسهم ما لبث أن قال :

ـ نحن لسنا مكلفين بتقديم حساب لك أيتها المواطنة . .

ووضع يده على كتفيها يريد أن يبعدها عنوة. ولكن ديمولان صرخ به : «دع المرأة وشأنها وسر بي إلى حيث تشاء ما دام الأمر قد صدر إليك بتوقيفي». فقال قائد الجند :

ـ حسناً . . . حسناً . . هي إذن أمامنا فليس لدينا وقت نضيعه في النقاش.

فتشبثت لوسيل بذراع زوجها هاتفة :

ـ إنه بريء . . إنه بريء.

والتفت هو إليها وتمتم هامساً :

ـ لوسيل، يا عزيزتي . . تذكري أنك كنت حبي الأوحد.

إعدام بدون دليل

وفصلت البنادق بين الرجل وزوجته، فهرعت لوسيل الى الغرفة المجاورة،

فحملت ابنها وتبعت زوجها صارخة:

ـ قفوا.. قفوا. أنا ذاهبة معكم.. إنكم لا تستطيعون منعي من الموت مع من أحببت..

وحاولت أن تلحق بهم، وكان السلم يئن تحت أقدامهم، فصدوها عنه ببنادقهم، فتولاها الذعر على ولدها فانطلقت إلى الغرفة فأعادته الى مكانه ومضت تلحق بهم من جديد.

وكان أهل الحي قد سمعوا الضجة التي تعالت في المنزل، ولكن أحداً منهم لم يجسر على أن يفتح باباً أو نافذة، فظل السكون مخيماً على الشارع، لا تعكره غير خطوات ثلة من الجند، وصوت امرأة تجري وراءهم هاتفة متوسلة:

ـ كميل.. كميل... أريد أن أموت معك.. خذوني كي أموت معه.

إلا أن كميل نظر إليها للمرة الأخيرة وقال لها:

ـ يجب أن تعيشي من أجل ابننا. ولئن مت فلن يحدثه عن أبيه أحد.

فوقفت لوسيل في مكانها، حتى إذا غاب الموكب في الليل الأسود، انهارت قواها وتهالكت مغمى عليها على عتبة المنزل الفارغ الموحش.

لم تطل محاكمة دانتون وكميل ديمولان وديلاكروا وفيليبو ورفاقهم، لأن قراراً صدر من الكونفانسيون يحرم كل متهم يهين المحكمة من حق الدفاع عن نفسه، وبهذه الحجة امتنعت المحكمة عن سماع أقوالهم وأصدرت قرارها بإعدامهم دون أي دليل، فقطعت المقصلة رقابهم في الخامس من نيسان (أبريل) سنة ١٧٩٤. وكتب كميل ديمولان إلى زوجته: «إني ضحية بربرية البشر وعقوقهم وخيانتهم وتنكرهم للجميل. ولعل دمي يمحو أخطاء البشرية وانحرافاتها. كفي عن البكاء والعويل واهتمي بصغيرك. يجب أن تعيشي من أجل هوراس وتحدثيه عني. قولي له إن أباك كان يحب نظم الشعر والدفاع عن المظلومين». وفي الطريق إلى ساحة الإعدام حاول التخلص من قيوده وهو يصرخ: «أيها الشعب إنهم يضللونك، فأنا الذي كنت في سنة ١٧٨٩ أول من أعلن صرخة الحرية». وكان آخر ما قاله أمام المقصلة: «أهكذا تكون نهاية أول رسول للحرية!».

وكانت لوسيل خلال ذلك تركض في أحياء باريس. حاولت رؤية روبسبيير دون جدوى. كتبت له رسالة قالت فيها: «إن كميل كان يرفض أساليبك ولكنه رفض التعاون مع خصومك، لأنه لم يشأ أن يعادي زميله في الدراسة ورفيقه في النضال. إن يده التي طالما صافحت يدك، قد خطت سطوراً في مديحك، وأنت تبعث بها إلى الموت». ولكن الرسالة ظلت دون جواب، كتبت إلى فريرون تدعوه للعودة إلى باريس للعمل معها لإنقاذ كميل، ولكن فريرون كان يخشى العودة إلى مدينة الحرية التي صارت مدينة الموت. اتجهت إلى نادي الكورديليه، إلى أصدقاء كميل القدماء، فإذا بهم يرتجفون خوفاً على أنفسهم، فكيف يستطيعون مساعدة غيرهم. أرادت الاجتماع بلجنة الإنقاذ فرفضت اللجنة استقبالها. فصرخت يائسة: «ألم يعد للوطن من يدافع عنه؟».

وكانت تطوف في حديقة اللوكسمبورغ حول جدران السجن (سجن اللوكسمبورغ) قبل أن ينقل إلى سجن الكونسييرجري الذي حل محل الباستيل، لعلها ترى كميل من خلال نافذة أو من خلال القضبان. واستطاعت إيصال رسالة إلى الجنرال ديلون السجين هناك ترجوه فيها الاهتمام بكميل، فكتب أحد الجواسيس المندسين بين المعتقلين ويدعى ألكسندر لافلوت إلى لجنة الإنقاذ أن ثورة تعد داخل السجون ينظمها من الداخل الجنرال ديلون ومن الخارج لوسيل ديمولان، فأوقفت لوسيل في ليلة ٧ـ٨ نيسان (أبريل) وسيقت إلى سجن سانت بيلاجي بعد يومين من مصرع زوجها.

وفي العاشر من نيسان (أبريل) مثل ديلون ولوسيل أمام المحكمة الثورية، فتلا رئيس المحكمة رسالة موجهة من الجنرال ديلون إلى السيدة لوسيل يقول لها فيها: «إن قضيتنا سائرة في اتجاه حسن، وقريباً يعاقب المجرمون، وينتصر الأبرياء، ثم سأل الجنرال إن كان هو الذي كتب هذه الرسالة وأعطاها للسيد لامبير أحد موظفي السجن لإيصالها إلى مدام ديمولان، فأجاب بالإيجاب.

وسئل لامبير بدوره فقال إن الجنرال قد أعطاه الرسالة وطلب منه إيصالها إلى السيدة ديمولان، فرفض ذلك ولكنه ألح عليه ودس الرسالة في جيبه، فما لبث حتى أعادها إليه، ولما رأى الجنرال أن ليس هناك من يحمل الرسالة إليها عمد إلى

تمزيقها.

وسأل الرئيس لوسيل ديمولان عن الرسائل التي تلقتها من الجنرال، فأجابت بأنها لم تتلق منه أي رسالة.

وتوجه الرئيس إلى ديلون وقال له:

ـ هل قلت إن دانتون وغيره من المتهمين، قد رفضوا الكلام في المحكمة، وأعلنوا أنهم لن يتكلموا إلا في حضور أعضاء لجنة الإنقاذ؟

ـ نعم، قلت ذلك مردداً الشائعة التي سرت بهذا الشأن.

ـ هل قلت إن قرار الكونفانسيون بحرمان المتهمين من حق الدفاع عن أنفسهم، بسبب إهانتهم للمحكمة، قد أغضب الجماهير فاحتشدت حول المحكمة؟

ـ لم أقل شيئاً من هذا القبيل.

ـ ولكنك لا تنكر على الأقل أنك أشعلت نار التمرد في السجون؟

ـ إني أنكر ذلك.

ـ هل قلت إن مؤامرتك ترمي الى خنق أعضاء الكونفانسيون وجميع اليعقوبيين المسعورين؟

ـ لقد قلت إني سمعت النائب سيمون يقول ذلك.

ـ هل قلت أيضاً إن الوقت قد حان لمقاومة الاضطهاد؟

ـ لقد قلت إذا كانت أحداث أيلول (سبتمبر) ستتكرر في السجون، فيقتل الناس دون محاكمة. فإن واجب الرجل الشجاع أن يدافع عن نفسه ويطالب بمحاكمته قبل إعدامه.

ـ هل أرسلت ثلاثة آلاف ليرة لزوجة ديمولان؟

ـ إن كل ما رواه لافلوت كان نتيجة تصوراته وهو في حالة السكر، بدليل أنه لم يتذكر أمام المحكمة شيئاً من ذلك.

وتوجه الرئيس الى لوسيل وسألها:

ـ هل استلمت ثلاثة آلاف ليرة مرسلة إليك من ديلون؟
ـ لم استلم شيئاً على الإطلاق.
ـ هل تعرفين ديلون، هل كان يزوركم باستمرار؟
ـ إني أعرفه، قد التقيت به عدة مرات، ولكنه قليلاً ما كان يزورنا في منزلنا.
وسأل الرئيس الجنرال ديلون قائلاً:
ـ ألم تتحدث لأحد السجناء المتعاطفين معك عن المساعي التي تقوم بها الأرملة ديمولان وأن مهمتها توزيع المال لكسب الأنصار والمؤيدين للمؤامرة؟
ـ لم أتحدث مع أحد عن أي نوع من المؤامرات، ولم أكلف السيدة ديمولان أي مهمة من هذا القبيل.

واكتفى رئيس المحكمة بهذا القدر من الاستجواب، وأصدر قراره بإعدام الجنرال ديلون والأرملة ديمولان، فاستقبل الجنرال الحكم عليه بالصمت، وهتفت لوسيل:
ـ فلأقتل وليسقط معي الطغيان!
ووقفت لوسيل ديمولان، فاستقبل الجنرال الحكم عليه بالصمت، وهتفت لوسيل:
ـ ـ فلأقتل وليسقط معي الطغيان!
ووقفت لوسيل ديمولان إلى جانب المقصلة منتصبة الرأس وقالت لجلاديها:
ـ لقد حطمتم أعظم حب وجد على الأرض!
وتمتمت شفتاها اليابستان والمقصلة تهوي على رأسها الجميل:
ـ كميل يا حبيبي... لقد أحببتك حتى الموت.. ولسوف أحبك بعد الموت.

قل يا بائع السكاكين: لمن هذه المدية ذات الحرفين « ف » و« نون »!

إن شخصية الضحية والرتبة العسكرية التي يتمتع بها القاتل، جعلتا من هذه الجريمة العادية إحدى القضايا الكبرى التي شغلت الرأي العام الفرنسي في أواخر القرن الماضي، وأثبتت مقدرة الشرطة القضائية على التوصل إلى اكتشاف القاتل من خلال أدلة غاية في البساطة، فضلاً عما تكشفه من غرائب الطباع البشرية.

في أصيل اليوم الرابع من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٩١، فتحت الخادمة «ليناببيرل» باب المنزل الكائن في الطابق الثاني من البناية رقم ٤٢ في حي «التامبل» لزائر مجهول كان قد قرع الجرس، وسأل الرجل:

- هل البارونة ديللار في المنزل؟
- لقد أخطأت يا سيدي، فإن البارونة ديللار تسكن في الطابق الأول.

وكان المساء الشتائي المبكر قد أرخى ظلاله على الرواق، فلم تتبين ليناببيرل ملامح الرجل، وكل ما استطاعت ملاحظته أنه شاب في حدود الخامسة والعشرين من عمره، أميل الى الطويل، ويرتدي معطفاً مقلماً.

ونزل الرجل إلى الطابق الأول وضغط على زر الجرس، وبعد قليل فتح الباب وارتفع صوت امرأة متقدمة في السن تقول:

ـ آه يا ولدي، يا لها من مفاجأة، ادخل إلى الصالون، لقد بدأ الظلام يهبط، ولكني سأولع المصباح، إن دلفين الشاطرة قد خرجت وتركتني بمفردي، لا ريب في أنها تثرثر كعادتها مع صديقتها بائعة الحلوى.

وكان الصالون المؤثث على الأسلوب القديم يتلاءم مع عمر صاحبته. وعلى الجدران علقت رسوم عدد من العسكريين، وفي الزوايا وعلى الرفوف وزعت تحف وذكريات ثمينة، فبدا الصالون وكأنه متحف عسكري يعرض أمجاد عائلتي «ديللار» و«بولار». فقد كانت البارونة ابنة الجنرال بولار الذي اشترك في حروب الامبراطورية، وكان والد زوجها البارون الجنرال ديللار لا يقل عنه شأناً ومجداً، أما زوجها فقد توفي في شبابه وهو لا يزال برتبة ملازم. إلا أن الفترة القصيرة التي خدم خلالها في الجيش كانت حافلة ولامعة. وكان طبيعياً أن يتابع ابنه بول هذا التراث العائلي. فغدا من كبار موظفي وزارة الحربية، وكان له إلى جانب ذلك نشاط في التأليف المسرحي وقد أخرج مسرح «الأوديون» ومسرح «شاتودو» عدداً من تمثيلياته فأحرزت نجاحاً كبيراً ولا سيما تمثيلية «مؤامرة الجنرال ماليه».وقد اشتهر بول ديللار باستقامته وكرمه ومساعدته لكل من يطلب منه العون، وكان الضابط لويس أناستاي، أحد الأشخاص العديدين الذين يدينون له بكثير من الأيادي البيضاء.

وبينما كانت لينابيرل تعمل داخل مطبخها في الطابق الثاني، ارتفعت من الطابق الأول صرخات استغاثة، ثم أطلت من إحدى النوافذ دلفين هوبر خادمة البارونة ديللار، والدم ينزف من جرح في رقبتها.

واستجابة لاستغاثة دلفين هرع خادم البناية ليصعد إلى الطابق الأول فالتقى على أسفل الدرج بالشاب الأنيق ذي المعطف المقلم، وقال له وهو يغادر المنزل:

ـ لا ريب في أن كارثة قد وقعت، والقاتل أو السارق لا يزال في البناية، فأغلق الباب جيداً بينما أذهب لاستدعاء الشرطة!

الشقي المحترم

واختفى الرجل تحت جنح الظلام دون أن يستدعي الشرطة طبعاً، ولما جاء

رجال الشرطة بناء على استدعاء السكان، وجدوا جثة البارونة ممدة أمام صورة زوجها وقد ذبحت وتناثرت حولها، وتلوثت بالدماء أسهم مالية وأوراق نقدية وتحف ومجوهرات كان القاتل قد أخرجها من الخزائن وانتزعها من الأدراج ولكنه لم يستطع حملها معه، إذ فوجىء بوصول الخادمة دلفين، فطعنها وبادر إلى الهرب، تاركاً هناك سلاح الجريمة وهو مدية كانت كثيرة التداول في تلك الأيام وقد نقش عليها الحرفان «ف» و«ن» كما وجدت رسالة من «بول ديللار» إلى أمه عليها ختم وزارة الحربية ومؤرخة بتاريخ ذلك اليوم، يبلغها فيها أنه لن يأتي في موعد العشاء وسوف يعود إلى المنزل حوالي منتصف الليل.

ولما استجوبت الشرطة دلفين هوبر استطاعت أن تقول على الرغم من جرحها واضطرابها.

ـ لقد دخلت الى المنزل ومصباحي مضاء، ولما أردت الدخول الى الصالون لموافاة البارونة، ظهر رجل مجهول وطعنني بمدية في يده، فوقعت على الأرض، بينما هرب الرجل حالاً، كان مصباحي قد انطفأ، ولم أستطع تبيّنه إلا على ضوء الصالون المنعكس على الرواق، إنه شاب طويل القامة ذو شاربين ويرتدي معطفاً مقلماً، ويبدو عليه انه شخص محترم... ذلك الشقي.

وانتابتها نوبة الذعر والألم من جديد فأخذت تصرخ:

ـ إني أتألم... آه يا معلمتي المسكينة.. يا لبول المسكين!

كانت الأدلة هزيلة، ولكن ملامح القاتل قد تأكدت من خلال إفادات لينا ودلفين وخادم البناية، وكان رئيس الأمن العام المفوض غورون شرطياً بدمه، يتصف بالعناد والدأب، ولا يتراجع أمام أي صعوبة أو عقبة ولكن تحرياته لم تؤد الى أي نتيجة، ومرت عشرون يوماً دون أن يكتشف شيئاً، ولم يحظ إلا بانتقاد الصحافة النهمة دائماً إلى معرفة الحقيقة واكتشاف المجهول.

كان المفوض غورون يستجوب الخياطين وباعة السكاكين، ثم يعود فارغ اليدين إلى غرفته ليفكر وهو يتأمل في الجدران الشواهد التي تدل على النجاح الذي أحرزه في حل الكثير من القضايا الغامضة. فقد علقت على هذه الجدران أسلحة

وأقنعة وقيود وأغلال وحبال وسلاسل وصور للمجرمين، فكأن الغرفة متحف للجريمة ينافس متحف المجد في منزل البارونة ديللار.

وفجأة أضاء في ظلمة التحقيق نور ضئيل. فقد أبلغ أحد بائعي السكاكين في ليون، أن المدية التي تحمل الحرفين «ف» و«ن» هي من صنعه، وأنه يبيع هذا الصنف من السكاكين في مدينة ليون، ولا سيما في السوق الكبيرة بشارع بيراش. ثم جاءت إفادة أخرى توجه التحقيق نحو مدينة ليون، فإن أحد الخياطين فيها أكد أن المعطف الأنيق الذي لفت انتباه الشهود، هو من صنعه لأن محله متخصص بهذا النوع من المعاطف، وهو يبيعه بخمسين فرنكاً.

وبدأت المعلومات تتراكم، فإن السيد فيللوم خادم إحدى البنايات في شارع «في دوكالفير»، حيث كانت تقطن البارونة قبل انتقالها إلى حي التامبل، قال إن السيد المجهول، ذا المعطف المقلم قد زاره قبل وقوع الجريمة وسأل عن مدام «كابوره» وهي الخادمة السابقة للبارونة فدله على منزل البارونة الجديد، وأضاف عامل يعمل في الشارع نفسه أن صاحب المعطف سأله عن الطريق إلى حي التامبل فدله عليه، وقال:

ـ إني أستطيع تمييزه بين ألف رجل، ولم أنس حتى نبرة صوته.

وذهب المفوض غارون إلى منزل مدام كابوره وسألها عمن يمكن أن يكون ذلك المجهول الأنيق الذي سأل عنها، فقالت:

لعله ذلك الجندي الصغير الذي كان يأتي أحياناً إلى منزل ديللار.

وكانت المرأة تعنى بالجندي الصغير لويس أناستاي خريج كلية سان سير الحربية، واستطردت قائلة:

ـ لقد كان السيد بول شديد العطف عليه، وما من مرة زارنا إلا ووضع في يده بعض النقود. ولكنه لم يعد في حاجة إلى ذلك الآن، فهو ضابط في الفرقة ١٥٨ بمدينة ليون.

مرة أخرى سمع المفوض غارون اسم مدينة ليون يتردد في التحقيقات التي يقوم

بها، فذهب إلى ليون وهو يتمنى أن تكون الأدلة التي تشير إلى لويس أناستاي خاطئة، إذ صعب عليه الاعتقاد، وهو محارب قديم شارك في الحرب الفرنسية البروسية، أن ضابطاً من ضباط الجيش الفرنسي يمكن أن يقدم على مثل هذه الجريمة النكراء بحق الأسرة التي طالما أحسنت إليه.

ولكن المعلومات التي حصل عليها من قيادة الموقع لم تكن في مصلحة لويس أناستاي، إذ كان سجله حافلاً بعدم انضباطه، وعلاقاته المريبة وكثرة ديونه، كما أنه كان متغيباً عن موقعه في إجازة مرضية، وقد بدأت هذه الإجازة قبل وقوع الجريمة بأيام قليلة. وقد تبين أنه نزل في ٢ كانون الأول (ديسمبر) في فندق بشارع نوتردام دي فيكتوار. ثم انتقل منه إلى شقة مفروشة في شارع فالوا، وبخفة طائشة سجل اسمه الحقيقي في كلا المكانين.

في ذلك المساء نفسه أحاط رجال غارون بالمبنى الذي تقع فيه الشقة المفروشة، وصار بعضهم يتجول في الرواق المؤدي إلى غرفة أناستاي في انتظار الصباح وهو الوقت المشروع لاعتقال المشبوه أو لكي يرجوه مفتشو الأمن العام مرافقتهم الى الدائرة لإعطاء بعض المعلومات، حسب الأسلوب المتبع، وكان المفتشون يلقون بين حين وآخر نظرة إلى داخل الغرفة من ثقب الباب، فيشاهدون أناستاي وهو يقرأ في سريره وإلى جانبه على الطاولة الصغيرة مسدسه الحربي.

وقد أثار وجود المسدس قلق المفوض غارون الذي لم يتخل عن إيمانه بالشرف العسكري، إذ خشي أن يعمد الضابط إلى الانتحار إثر مفاجأته لاعتقاله، إنقاذاً لشرفه، ولكن أناستاي لم يفعل شيئاً من ذلك ورافق مفتشي الأمن برباطة جأش إلى الدائرة حيث راح غارون يستنطقه، فبدت عليه الدهشة وقال:

ـ ما هذه الدعابة؟ لعلك تعتقد بأني قاتل السيدة ديللار؟

لم يجب غارون ووجه إليه هذا السؤال:

ـ إن لك لحية جميلة يا سيدي، وهو أمر غير مألوف لدى الضباط، فما هو رأي قائدك يا ترى؟

ـ سوف أحلقها متى عدت إلى الثكنة. والواقع إني لم أتوقف عن حلاقتها إلا في

بداية إجازتي.
ـ أي في مطلع كانون الأول (ديسمبر) منذ أربعة وعشرين يوماً. وبهذه المناسبة، كيف قضيت بعد ظهر الرابع من هذا الشهر.؟
ـ لقد ذهبت لزيارة عائلة ل.د. في شارع بومارشيه، وقد تناولنا الشاي ثم استبقوني على العشاء.

فكر المفوض غارون في أن المسافة بين شارعي تامبل وبومارشيه تستغرق نصف ساعة، وبما أن الجريمة قد وقعت حوالي الرابعة والنصف، فيجب أن يثبت أناستاي وجوده لدى أصدقائه أفراد عائلة ل.د. قبل هذا الوقت لا بعده.

المدية والمعطف

ومضى غارون إلى منزل السيدة ل. د. وفاجأها بالسؤال:
ـ متى رأيت أناستاي لآخر مرة؟
ولكن المرأة لم تفاجأ وأجابت لفورها:
ـ في الرابع من هذا الشهر، لقد حفظت هذا الرقم لأنه التاريخ الذي قتلت فيه السيدة العجوز في شارع تامبل.
ـ سيدتي أرجو أن تستنجدي بكل ذاكرتك لأن حياة رجل متعلقة عليك.
ـ أعتقد بأنك لا تشك في لويس أناستاي!
ـ إني لا أشك وإنما استعلم، في أي ساعة بالضبط جاء أناستاي لزيارتكم؟
ـ في الساعة الرابعة يا سيدي.
تولى غارون الذهول، فإن الجواب الفوري والمحدد يسقط كل ما توصل إليه التحقيق، ولا يترك لرئيس الأمن العام سوى الأسف والعار من إقدامه على اتهام ضابط في الجيش الفرنسي، وتابعت السيدة قائلة:

ـ إني أذكر ذلك بيقين لأن الساعة دقت حينذاك دقاتها الأربع، عندما أعلنت الخادمة قدوم لويس أناستاي. وقد أبديت في وقتها هذه الملاحظة. كنت أظن أن الوقت قد تقدم أكثر من ذلك، إن الليل يهبط بسرعة هذه الأيام».

فشكر المفوض للسيدة تعاونها وانكفأ نحو رجاله الذين كانوا يوجهون إليه

نظرات يمتزج فيها القلق بالسخرية وكأنهم يقولون له: «ماذا أنت فاعل يا حضرة الرئيس؟ لقد أوقعتنا في ورطة لا مخرج منها!».

ومع ذلك فإن الأدلة كانت تشير إلى أناستاي بقوة، فبعدما أمره رئيس الشرطة بحلق ذقنه عرضه على دلفين هوبر والعامل الذي رآه في شارع فالوا، فتعرفا عليه بسهولة. كما أن قسم الأدلة الجنائية اكتشف آثار دم في جيب المعطف الذي يرتديه أناستاي. ولكن الضابط الشاب لم يضطرب أبداً، وظل ينكر بثبات أي علاقة له بالجريمة النكراء، وظل محافظاً على رباطة جأشه عندما قوبل بابن القتيلة بول ديللار وشقيقها النائب جيفيلو. وقال:

- ما الذي يدفعني إلى قتل سيدة أحسنت إلي هي وابنها باستمرار؟ إنكم تأخذون بأقوال دلفين هذه العجوز المجنونة التي تعرفت عليّ من قبل أن تدخل هذه الغرفة. وذلك العامل الخامل الذي يريد أن يعطي لنفسه أهمية بمثل هذه الشهادة. إني لم أشتر مدية من السوق الكبيرة في ليون، ولم أفصل معطفي لدى الخياط الذي تعتقدون بل لدى خياط الفرقة.

- وبقعة الدم؟

- لقد جرحت إصبعي بمدية صغيرة، ويبدو أني أدخلت يدي دون انتباه إلى جيب المعطف.

فقال رئيس الأمن العام:

- أرني الإصبع التي جرحتها؟

فأراه إصبعه السبابة في يده اليمنى، فضحك غارون وقال:

- ولكن بقعة الدم كانت في الجيب الأيسر! ثم حدق في عينيه طويلاً وسأله فجأة:

- في أي وقت ذهبت لزيارة أصدقائك في شارع بومارشيه؟

ودون انتباه أو تفكير أجاب أناستاي حالاً:

- في الساعة الخامسة والربع.

فتنفس غارون الصعداء!..

والواقع أن السيدة ل. د. كانت قد أرسلت إلى رئيس الأمن العام بطاقة تقول فيها:

«سيدي . . . لقد وقعت في خطأ أخشى أن أكون قد أسأت به إلى السيد أناستاي. والحق أنه لم يأت لزيارتنا في الرابعة، بل بعد الخامسة، ولكن خادمتنا أثناء نقلها الساعة من الممر، أزاحت عقربيها ببلاهة، ساعة وبعض الدقائق إلى الوراء».

وأمام هذه الوقائع وتذكيره من قبل غارون بشرفه العسكري وخدمته في الجيش، استيقظت في أناستاي روح الفروسية التي زرعتها في نفسه كلية سان سير، وقال شاحب الوجه مضطرب الصوت:

ـ نعم، أنا الشقي الذي قتل البارونة ديللار، آه أيها السادة، إنكم لا تعرفون ما أشنع قتل إنسان!

وبعدما جرع جرعة كبيرة من الماء قال:

ـ كنت مرهقاً بالديون من جراء لعب القمار، وأصبحت مهدداً بالطرد من الجيش. كان عليّ أن أحصل على المال بأي طريقة كانت. وكنت أعلم أن البارونة غنية، وتحتفظ في منزلها بأوراق نقدية وسندات مالية ومجوهرات، ولا أدري كيف قررت الإقدام على جريمتي، فوضعت المدية التي كانت لديّ في جيبي، وذهبت لأسأل في شارع، «في دوكالفير»، عن مدام كابوره فعلمت أنها تركت خدمة البارونة فبعث ذلك الاطمئنان إلى نفسي لأنها كانت تعرفني جيداً، ثم اتجهت إلى منزل البارونة فلما فتحت لي وعرفتني فرحت بي وأدخلتني إلى الصالون فما لبثت حتى طعنتها في رقبتها طعنة قاتلة، وفيما كنت أبحث عن الأوراق النقدية والأسهم المالية والمجوهرات، عادت دلفين إلى المنزل وسمعت خطواتها في الرواق متجهة إلى الصالون، فألقيت بكل شيء واتجهت نحوها فطعنتها طعنة مماثلة، وانطلقت هارباً. وقد توقفت قليلاً في المغسلة الكائنة مقابل «سيرك الشتاء» حيث غسلت يدي وأصلحت من مظهري، ثم مضيت إلى منزل أصدقائي في شارع بومارشيه فوصلت إليه في الخامسة والربع، هذا كل شيء، وأرجوكم ألا توجهوا لي أي

سؤال آخر!

وقد أدهش لويس أناستاي الجميع بسلوكه الهادىء في المحكمة والسجن. واعترف أمام القضاة بجريمته دون أن يعبر عن ندمه، وسمع الحكم عليه بالإعدام دون أي اضطراب، وقضى الأيام الباقية له وهو يضع كتاباً بعنوان «منشأ جريمة»، ثم سار إلى منصة المقصلة في ٢٠ آذار (مارس) ١٨٩٢ وهو ثابت الجنان رابط الجأش.

ماتا هاري...

الجاسوسة ذات الرمز هـ ٢١ !

رددت الأوساط الفنية في باريس، مع ربيع سنة ١٩٠٥، اسم راقصة ظهرت للمرة الأولى على مسرح «غيّمه» فلفتت الأنظار وانتزعت الإعجاب برقصاتها الشرقية الجريئة. وكان اسم هذه الراقصة غريباً وموسيقياً، فكان المعجبون بها، وما أكثرهم، يرددونه في شيء كثير من المتعة والخيلاء.

لقد كانت تدعى ماتا هاري، فمن هي ماتا هاري هذه التي كان الناس يتحدثون عن جمالها المثير وسحرها الخلاب؟ أهي أميرة هندية حقاً، أم هي من سلالة الفراعنة المصريين؟ أم هي فتاة جميلة لا أكثر ولا أقل، وقد جاءت من قطر مجهول ومعها هذه الأسطورة التي تبنتها الصحافة وطبلت لها كثيراً؟

مهما يكن من أمر، فإن هذه المرأة التي كانت تعرف جميع اللغات الحية، حتى اللغة اللاتينية، قد فرضت نفسها على الباريسيين بما رافق ظهورها على المسرح من جو أسطوري، وما نشر حولها من دعاية واسعة، فكان الجمهور الذي يقبل لمشاهدتها يتكاثر يوماً بعد آخر، وفي كل يوم كان يزداد بها إعجاباً ولها تحمساً.

ولكن هل كانت ماتا هاري جميلة حقاً؟ إن أولئك الذين تثيرهم رقة المرأة وظرفها وأنوثتها الساحرة وعذوبتها المحببة، لم تكن ماتا هاري لتثير في نفوسهم أي عاطفة. غير أن هواة الجمال الغريب، كانوا يؤخذون بوجهها المستطيل الشاحب الذي تتألق

فيه أسنان ناصعة البياض، وعينان سوداوان عميقتان، ملتهبتان، مائلتان نحو الصدغين، تنفذ نظراتها إلى القلوب وتثير فيها الرغبة الجامحة.

وقد كان لهذا الجمال عشاق كثيرون، من رجال المال والسياسة ومن رجال الأدب، فترامو جميعاً عند قدميّ الراقصة الحسناء يقدمون لها قلوبهم وأموالهم. . .

وكان المال حاجة ملحة لديها، فهي تنفق بسخاء، وتعيش في ترف باذخ، وقد استأجرت قصر «نويلي» وجعلت منه قصراً من قصور ألف ليلة وليلة، وأحاطته بأجواء تلك القصور، وكانت تقضي وقتها فيه بين التماثيل الهندية، والسيوف المعقوفة ذات القبضات العاجية، والستائر البرتقالية والأرجوانية، وشذا الطيب والبخور يعبق من مجامر الفضة ويتعانق أحياناً مع رائحة الأفيون. . . والراقصة الحسناء مستلقية على ديوان شرقي كبير، بين الوسائد المتعددة الألوان، كأنها ملكة من ملكات الهند، تستقبل رعيتها وسدنة هيكلها المقدس. .

في ذلك الجو الساحر كانت ماتا هاري تستقبل زائرها، وكثيراً ما كانت تدعه ذاهلاً مشدوهاً بين يديها، وهي مستغرقة في صمتها وسهومها، ثم تنهض فترقص له بمفرده، وليس عليها غير وشاحها الأصفر أو الأحمر الشفاف، ثم تلقي بهذا الوشاح جانباً فتبدو عارية إلا من كأسين نحاسيتين تغطيان نهديها، وأساور ذهبية تطوق معصميها وكاحليها، وتستمر في رقصها المثير حتى يتهالك الرجل عند قدميها، متوسلاً إليها واعداً إياها بما تشاء وتهوى. . .

ويقول الكاتب الأسباني غوميز كاريلو في كتابه «حياة ماتا هاري وموتها وأسرارها» إن في هذه المرأة سحراً عجيباً كان يسيطر على الرجال الذين يتعلقون بها، ويؤكد أن اللواتي يفقنها جمالاً كثيرات جداً، ولكن ليس بين النساء امرأة مثلها تستطيع أن تحول الرجال إلى عبيد لها.

واستمر نفوذ ماتا هاري على عشاقها يتسع ويتعاظم حتى انفجرت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤.

ومرت السنوات الأولى من الحرب سريعة حيناً وبطيئة حيناً آخر.

وأطلت سنة ١٩١٧ وقد ران على الجبهة ركود عام. . .

وفي الثالث عشر من شهر شباط (فبراير) من تلك السنة، نشرت الصحف نبأ توقيف مرغريت جرترود زيل بتهمة التجسس لحساب ألمانيا. . وسرعان ما عرف الناس أن هذه المتهمة هي الراقصة ماتا هاري، وأنها كانت تمد رئيس الجاسوسية الألمانية في هولندا، بالمعلومات المهمة طوال أيام الحرب، وتوقع رسائلها إليه بهذا الرمز: هـ ـ ٢١ .

وأرسلت ماتا هاري إلى سجن سان لازار، وعهد إلى الكابتن أبو شاردون بالتحقيق في قضيتها، واختارت هي المحامي كلونيت للدفاع عنها.

اسمي عين الفجر

وتجددت الشائعات عن منشأ ماتا هاري وعن سيرتها.

ووقفت هي أمام المحققين، فزعمت أنها هندية الأصل، وقد نشأت على ضفاف نهر مالابار، وهي تنتسب الى طائفة من طوائف البراهمان، وأن اسمها الحقيقي هو ماتا هاري ويعني «عين الفجر» وقد خطت خطواتها الأولى في معبد الإله سيوه فجعل من خطوها رقصاً موقعاً وغدت تجيد الرقص أكثر مما تجيد السير.

وحين قاطعها المحقق قائلاً:

ـ كلا. إنك لا تدعين ماتا هاري، بل مرغريت جرترود زيل:

أجابت بسذاجة:

ـ كيف عرفتم ذلك؟

ثم فسرت ذلك بقولها إن تذكرة هوية مرغريت زيل هي تذكرتها في العالم المسيحي، ولكنها في الواقع هندية بوذية، تشهد بذلك قسمات وجهها الشرقية. وأخذت تشرح ذلك بلفظها الثقيل، فهي تعرف كثيراً من اللغات ولكنها لا تجيد التكلم في واحدة منها، وحين تضطرب وتحتدم تتحدث باللغات الفرنسية والألمانية والإيطالية في وقت واحد.

غير أن ثبات هوية ماتا هاري ومعرفة ماضيها لم يعجزا لجنة التحقيق، وقد قررت هذه اللجنة أن الراقصة المتهمة هولندية الأصل، وقد ماتت أمها وهي في سن الرابعة عشرة، فأدخلها أبوها إلى الدير حيث بقيت أربع سنوات، ثم غادرته عائدة إلى المنزل

العائلي، فما عتمت حتى التقت بالكابتن ماك ليود فشغف كل منهما بالآخر، وعقد لها عليه، غير أن الكابتن الشاب كان فراشة تسعى من زهرة إلى زهرة، فهجر بيته وانطلق وراء لذته، وتعزت المرأة عنه بابنها نورمان الذي وضعته بعد انقضاء سنة واحدة على زواجهما.

ثم عاد الزوج الشارد إلى المنزل، واصطحب زوجته الشابة ذات مساء إلى البلاط الهولندي، فأدهشت الحاضرين بجمالها الغريب وملامحها الشرقية، وكان عسيراً عليهم أن يصدقوا أنها بنت هولندا التي اشتهرت بنسائها الشقراوات المكتنزات. وقالت ماتا هاري وهي تتذكر تلك الليلة بزهو واعتداد:

ـ لقد كان الرجال ينظرون إليَّ بإعجاب صارخ، وكانت النساء يرمقنني بنظرات حاسدة حاقدة. وشعرت ذلك المساء للمرة الأولى بأني لم أخلق لأكون زوجة برجوازية تعيش في كنف ضابط متقلب الأهواء.. وإنما خلقت لأكون ملكة.

وابتدأ الخصام بين الزوجين، ولم يكن الضابط ليتورع عن ضربها بسوطه، ثم حدث حادث مؤثر في حياة مرغريت جرترود، فإن خادمتها اغتاظت منها يوماً فسممت ابنها نورمان، فاستبد بالأم الثكلى حزن شديد، ولم تنس الصغير نورمان إلا حين وضعت طفلة سمتها جان.

وحينئذ عين الزوج في جافا، ورحلت الأسرة الصغيرة الى الهند، واسترسل الكابتن هناك في الشرب ولعب القمار، وكثيراً ما كان يضرب زوجته حين تأبى الذهاب إلى أحد أصدقائه لتقترض له المال.

ويقول لها الزوج يوماً وهو يضحك ضحكة سكّير أرعن:

ـ إني لا أملك شيئاً من المال.. وأنت جميلة وفي استطاعتك أن تجدي عشاقاً كثيرين. وأنا لست غيوراً. وكل ما أريده منك أن تأتيني بالمال!

وتأبى المرأة الانزلاق في منحدر الغواية، وتأخذ ابنتها وتهرب. ولكن إلى أين؟ إن أهلها لا يستطيعون مساعدتها، وهي لا تحسن مهنة تحترفها. فينصحها قريب لها بأن تستغل ميلها الفطري إلى الرقص. وتفكر المرأة... لقد كانت تعجب بالرقص الديني في المعابد الهندية، وتراقب الراقصات باهتمام، فأصبح في وسعها تقليدهن.

وقد حفظت جميع طقوسهن وتقاليدهن، وأن ملامحها الشرقية لتساعدها على الظهور بمظهر امرأة هندية خليقة بأن تفتن الجماهير وتسحر القلوب.

وهكذا تضافرت العوامل كلها على أن تدفع بها في هذه الطريق، فإذا بمرغريت جرترود زيل تغدو ماتا هاري الراقصة الهندية المقدسة!

ثم كانت الحرب سنة ١٩١٤.

وإذا بالراقصة الحسناء تغدو ممرضة متطوعة في جيوش الحلفاء.

وتقول ماتا هاري إنها كانت امرأة خاطئة، فأرادت التكفير عن خطاياها بخدمة المرضى والعناية بالجرحى وبذل نفسها في سبيل راحتهم وسلامتهم.

والحق أنها كانت ممرضة مُثلى تسهر الليل بطوله وتبذل الجهد كله، لإنقاذ الجرحى الذين يعهد إليها بالعناية بهم، وقد قضت أسابيع عدة وهي لاتكاد تنام أو تأكل كي تتفرغ للعناية بضابط روسي يدعى ماروف فقد عينيه في إحدى المعارك.

وكان هذا الضابط يردد دون انقطاع:

ـ إن القدر قد أنزل بي ضربة قاسية إذ أفقدني عيني، ولكن الله وضع إلى جانبي ملاكاً، ملاكاً حقيقياً.

بيد أن هذا الملاك كان ينطوي على شيطان رجيم. ذلك أن الضباط الذين كانوا يعجبون بماتا هاري، الممرضة، كانوا يفتتنون أيضاً بماتا هاري المرأة، المرأة الغريبة الساحرة، وكانوا لا يكتمونها ما تثيره في قلوبهم من عاطفة، فتبتسم لهم، وتشجعهم، وتضرب لهم المواعيد، وتلاقيهم تحت جنح الليل. وهناك، بين قبلة وأخرى، كانت المرأة التي أتقنت فن ترويض الرجال، تنتزع من أفواه عشاقها المعلومات العسكرية والخطط الحربية، وتبعث بها إلى دائرة الجاسوسية الألمانية. وقد أدى عملها هذا إلى إحباط كثير من خطط الحلفاء وإلى إبادة الألوف من جنودهم!

ولم تنكر ماتا هاري صلاتها بأولئك الضباط، ولكنها زعمت أن لها ميلاً خاصاً إلى معاشرة العسكريين والارتماء في أحضانهم. ولم تنكر أيضاً أنها كانت ترقص عارية في بعض الحفلات الخاصة التي تضم طائفة من كبار السياسيين وقادة الجيش، ولكنها ادعت بأنها لم تقم بذلك لإغراء هؤلاء وانتزاع أسرارهم الخطيرة، بل بدافع الفن

الذي نذرت له حياتها، ولأنها تشعر بمتعة لا تضاهى حين ترقص عارية أمام الرجال وتلاحظ الرغبة المشتعلة في عيونهم!.

ولكن عبثاً كانت المرأة تحاول دفع التهمة عنها، لأن جريمتها كانت مؤيدة بالأدلة الدامغة.

وهكذا مَثُلَت ماتا هاري أمام المحكمة العسكرية لتحاكم بأشنع تهمة توجه إلى إنسان وهي تهمة التجسس والخيانة العظمى.

وطني.. الفن

وعقدت المحكمة العسكرية في باريس، في ٢٤ تموز (يوليو) سنة ١٩١٧، برئاسة الكولونيل سامبرون للنظر في هذه القضية الخطيرة التي أثارت الفرنسيين وشغلت الرأي العام في العالم كله.

ودفعت ماتا هاري تهمة الخيانة العظمى بقولها إنها ليست فرنسية، فإذا صح أنها أساءت إلى الفرنسيين، فإن إساءتها لم تكن موجهة إلى وطنها ومواطنيها، وتحدثت بلهجة المفكرين المثاليين، فقالت إنها امرأة لا وطن لها غير الفن، والفن عالمي النزعة!

وهرع كثير من الفضوليين لسماع أقوال المتهمة، ولكن رئاسة المحكمة لم تسمح لهم بالدخول إلى القاعة، وآثرت إجراء المحاكمة سراً، فلم يطلع أحد على وقائعها إلا من خلال التقرير الرسمي الذي حرره القومندان ماسارد ونشر فيها بعد.

وفي هذا التقرير أن ماتا هاري قد روت للقضاة سيرة حياتها منذ نشأتها حتى احترافها فن الرقص. واعترفت بأنها كانت بغياً، ولكنها أنكرت أنها كانت جاسوسة، وأصرت على الإنكار بقوة، وحين أرهقها الرئيس بأسئلته قالت إنه سبق لها أن عرضت خدماتها على رئيس دائرة التجسس الفرنسية.

فقال الرئيس:

- نعم، لقد اقترحت على الكابتن لودو الذهاب إلى بلجيكا لإعطاء المعلومات الشفهية أو التحريرية لعملائنا هناك، فأعطاك رئيس دائرة التجسس الفرنسية رسالة

لتسلميها إلى أحد عملائنا في بروكسيل، فلم يتسلم هذا العميل الرسالة الموجهة إليه، بل قبضت عليه السلطة الألمانية وأعدمته.

وحاولت المحكمة إحصاء الأشخاص العسكريين الذين اتصلت ماتا هاري بهم وانتزعت منهم أسرارهم، فإذا هنالك ضباط وطيارون من جميع الرتب، وموظفون كبار، وأحد وزراء الحربية الفرنسية! ولم يشأ القومندان ماسارد ذكر أسماء هؤلاء الأشخاص في التقرير الذي نشر عن هذه المحاكمة.

وقال رئيس المحكمة للمتهمة إنها كانت تقيم في فندق ريتز بمدريد، في الجناح الملاصق لجناح رئيس دائرة التجسس الألمانية، وأنه قد زارها غير مرة وشوهد مرة وهو يعطيها مالاً، فلم تنكر ذلك وقالت إن هذا طبيعي لأنه كان عشيقها، ورددت قولها مرة أخرى:

ـ بغي؟.. نعم.. أما جاسوسة فلا!..

فقال الرئيس سامبرون:

ـ إن هذا العاشق قد أبرق إلى زميله في أمستردام لإعطائك عشرين ألف مارك، ومن الصعب الاعتقاد بأن الحكومة الألمانية كانت تدفع ذلك المبلغ مقابل المتع التي ينعم بها موظفوها، لا مقابل خدمات رسمية تؤدى لدائرة التجسس!

وجوبهت أخيراً بالدليل الذي لا يدحض، وهو تلك الرسائل التي كانت ترسلها إلى دائرة التجسس الألمانية بتوقيع هـ ـ ٢١ والتي وقع بعضها في أيدي دائرة التجسس الفرنسية. فلم تزد على القول بأنها ليست فرنسية، ولم تخن وطناً ما، لأنها امرأة لا وطن لها!

وبعد الاستماع إلى الشهود، وكان بينهم سفراء ووزراء سابقون وشخصيات مدنية وعسكرية كبيرة، وسماع أقوال الدفاع، اختلت هيئة المحكمة وقررت بالإجماع، إعدام مرغريت جرترود زيل المسماة ماتا هاري بجريمة التجسس لمصلحة العدو وإعطائه معلومات أدت إلى قتل عدد كبير من الجنود الفرنسيين.

فابتسمت ماتا هاري ابتسامة شاحبة، وأعيدت إلى السجن في انتظار الموعد الذي سيعين لتنفيذ الحكم.

ولم تفارقها هذه الابتسامة الشاحبة بعد ذلك أبداً . . . وتزعم المصادر التي رجعنا إليها، أن السجينتين اللتين عهد إليهما بالسهر عليها، والراهبتين اللتين كانتا تعنيان بها، قد شاهدتها في الليلة السابقة لإعـدامها، وهي تخلع ثيـابها وتـرقص أمامهن عارية . . . وقالت إحدى الراهبتين وهي تقص النبأ :

ـ لقد شاهدت شيطاناً يرقص ويتلوى . . إن ماتا هاري ليست إلا شيطاناً في جسد امرأة!

وفي صباح اليوم التالي، وهو اليوم الخامس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٧ ، أعدم ذلك الشيطان الذي كان يسكن جسد امرأة .

ميليشيا بونو..
ومن يدل عليها له خمسون ألف فرنك

في تلك الأيام كانت الحياة في فرنسا تسير وادعة هادئة. فالجريمة نادرة، وحقول الصحف لا تسيل بالدماء أو تملؤها صور القتلى، ولذلك أثار الحادث الذي وقع في شارع «أوردونير» بباريس في أحد أيام كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١١، ضجة كبرى واهتماماً شديداً. مع أنه كان حادثاً يبدو اليوم لو وقع في أي عاصمة من عواصم العالم، عادياً أو شبه عادي. فقد تعرض كابي وبيمانس، وهما محاسبان في «الشركة العامة»، للسلب وهما ينقلان مبلغاً من المال، من قبل لصين مسلحين أطلقا عليهما النار، واستوليا على المال ثم هربا في سيارة كان ينتظرهما فيها رجلان آخران، أخذا يطلقان النار إرهاباً حين هرع الجمهور لاعتقال السارقين.

ولم تستطع الشرطة معرفة الجناة، ولكن رجلاً وامرأة يقيمان في «بلفيل» عرفاهم فرداً فرداً. كان الرجل روسياً في العشرين من عمره يدعى فيكتور كيبالتشيش (أصبح اسمه فيما بعد فيكتور سيرج) ويشبه أبطال روايات، دوستويفسكي، أما المرأة فهي تدعى ريريت ميترجان وترتدي بلوزة سوداء أشبه بثياب الطالبات. وكان منزلهما في شارع «فيسار» محل إقامتهما وعملهما في آن واحد، فهما يصدران جريدة باسم «الفوضوية» لم يكونا هما اللذان أسساها ولكنهما هما اللذان يديرانها في ذلك الحين.

وكانت هذه الجريدة كما يدل اسمها تدعو إلى الفوضى، بإسقاط المجتمع القائم وإنشاء مجتمع لا دولة فيه ولا كنيسة ولا حكومة ولا شرطة، وكان بعض مؤيديها مقتنعين بهذه «المبادىء» أما الآخرون الذين يؤلفون الأكثرية من الفوضويين، فإنهم كانوا يتخذون هذه المبادىء ذريعة لتحقيق أطماعهم ونزعاتهم العدوانية، وبذلك يتاح لهم غطاء عقائدي، وبدلاً من أن يسموا قتلة ولصوصاً فإنهم يسمون فلاسفة!..

وذات مساء، بعد انقضاء أسبوع على حادث السلب، سمع فيكتور وريريت طرقاً على باب منزلهما، ولما فتحاه دخل إلى المنزل رجلان أحدهما ذو عينين ناريتين، والثاني ذو وجه طفولي ساذج، فقال فيكتور:

ـ إذن فأنتم أبطال شارع أوردونير!

كان الفوضوي ذو النظرة الرهيبة يدعى أوكتاف غارنيه أما ذو الوجه الطفولي فيدعى ريمون كالمان ويلقب بريمون العالم لأنه يستشهد أثناء حديثه بكلمات غامضة لهيغل وبرودون وباكونين وماركس وهي كلمات لا يفهمها سامعوه ولعله لا يفهمها هو نفسه، ولكنها تسبغ عليه مهابة وجلالاً!

وأجاب غارنيه بصراحة:

ـ نعم.. نحن... ولكنا لم نكن لوحدنا بل كان معنا بونو أيضاً!

فقالت ريريت ضاحكة:

ـ لقد عرفنا ذلك أيضاً.

وقال ريمون العالم بصوت خفيض:

ـ إننا لم نظفر من العملية إلا بخمسة آلاف وخمسمائة وستة وعشرين فرنكاً نقداً، وهناك أسهم ولكن معظمها أسهم اسمية لا يمكن الاستفادة منها. وثمة أسهم تدفع لحامليها وتبلغ قيمتها مئة وتسعين ألف فرنك ولكن من الخطر التعامل بها.

وروى ريمون أنه جرب بيع بعض هذه الأسهم، فعرضها على صيرفي يعرفه في أمستردام فأطلعه على رسالة برقية وزعت في جميع أنحاء العالم متضمنة أرقام السندات المسروقة.

وبعدما شرب الرجلان القهوة، غادرا منزل صديقيهما في ليل كانون، للبحث عن منزل لا يثير الشبهات.

وفي سنة ١٩١٢ توصلت دائرة الأمن العام إلى معرفة «لصوص السيارة» كما سمتهم الصحف، واستطاعت الحصول على صورة لغارنيه تعرف عليها المحاسب كابي الذي شفي من إصابته، ولكنها لم تتمكن من إلقاء القبض على أحد منهم.

٥٠ ألف فرنك لمن يرشد إليهم!!

وخلال ذلك كانت العصابة تتابع أعمال النهب، وكانت تتألف من بونو وغارنيه وريمون العالم وفاليه وكوروا ومونيه الملقب بسيمانتوف. أما رئيس العصابة فكان بونو، وهو رجل قصير القامة ضخم الوجه متخصص في الميكانيك، وكان في وسعه أن يكسب معاشه بشرف، ولكن الكسل والانحراف والميل الى المغامرة جعلته يختار اللصوصية والجريمة، بحجة القضاء على النظام الرأسمالي. وكان أمثاله في القرون السابقة يعيشون في الكهوف ويقطعون الطرق، أما في القرن العشرين فإنهم يتحدثون في الفلسفة.

وكان بونو وزوجته يعيشان حياة بورجوازية مترفة، وكلما قام بعلمية سطو جديدة ازدادت حياتهما تألقاً بالمظاهر البورجوازية، وليسقط النظام!

ولم يكن بونو ورجاله ليكتفون بالسرقة بل كانوا يلجأون إلى القتل لأبسط الأسباب، ومن ذلك قتلهم شرطياً كان يدعى غارنيه كأحد أفراد العصابة، وذلك أثناء سطوهم على الصندوق الحديدي لكاتب عدل، ثم هربهم دون استطاعتهم فتحه. وكان قد سبق لهم أن سطوا على صندوق كاتب عدل آخر، وحصلوا منه على ٣٦٠٠ فرنك ذهبي. وكذلك قتلهم ملّاكاً في الثانية والتسعين من عمره مع خادمته العجوز.

وساعد النجاح الذي أحرزه بونو وتوافر المال بين يديه واستيلائه على مخزن للسلاح، على زيادة عدد أفراد العصابة، مما عزز قوتها وضاعف جرأتها. وفي ٢٥ آذار (مارس) سنة ١٩١٢، كان السائق ماتيل وصديقه سيريزول منطلقين في سيارة باتجاه

الريفييرا، شاهدا رجلاً يقف في منتصف الطريق ويلوح لهما بمنديل، فتوقف السائق لمعرفة أمره، وإذا برجلين ينقضان عليه وعلى زميله وفي يد كل منهما مسدس مصوب إلى رأس أحدهما، فمد السائق يده إلى جيبه وإذا بطلقة نارية ترديه قتيلاً ثم طلقة ثانية تصيب مقتلاً من زميله.

وبينما كان الرجلان يحتضران على قارعة الطريق، انطلقت السيارة بعدد من أفراد العصابة نحو المهمة التي قررت تنفيذها، وهي نهب بنك الشركة العامة في شانتيلي. وكان على رأسهم بونو ومعه فاليه وغارنيه وكاميلان ومونيه وسودي الذي كان خادماً لدى أحد البقالين ولما انضم إلى العصابة بدت عليه دلائل الغنى المفاجيء.

وكان بنك الشركة العامة يقع في ساحة عامة، فتوقفت السيارة أمامه وأعطى بونو أمراً بالهجوم، بينما ظل هو جالساً وراء المقود، ووقف سودي أمام باب البنك ومسدسه في يده. أما في داخل البنك فقد قتل اللصوص اثنين من الموظفين، ثم ملأوا كيساً كان معهم بكل ما وجدوه من المال، وعادوا إلى السيارة بينما كان سودي يطلق النار من مسدسه إرهاباً للناس الذين تجمعوا في الساحة، ثم انطلقت السيارة في اتجاه باريس، فلما بلغوا مشارفها تخلوا عن السيارة ودخلوا العاصمة الفرنسية مشياً على الأقدام.

وعلى أثر حادث الشركة العامة وضعت الشركة جائزة قدرها خمسون ألف فرنك لمن يرشد إلى الجناة، وبذلت دائرة الشرطة كل جهودها في مطاردتهم. وشعر أفراد العصابة بالخطر يحيط بهم فاقتسموا المبالغ التي سلبوها وافترقوا، بعدما قرروا التوقف موقتاً عن «الأعمال التحريرية» التي يقومون بها والاختفاء عن الأنظار.

ولكن سودي خادم البقال، ما لبث حتى فضح نفسه بمظاهر الترف التي لفتت إليه الأنظار، فاعتقل، ثم اعتقل ريمون العالم بينما كان يحاول السفر مع عشيقته التي يسميها «فينوس الحمراء» وقد قال لمعتقليه بعدما ساقوه إلى دائرة الأمن العام:

ـ لقد غدرتم بي... ولولا ذلك لواجهتكم بمسدساتي.

والواقع أنه كان يحمل ثلاثة مسدسات معبأة كلها وجاهزة للإطلاق.!

وبعد فترة قصيرة تلقى المفوض جوان نائب رئيس الأمن العام الذي كان يولي

قضية العصابة اهتماماً خاصاً، رسالة مغلفة تلفت انتباهه إلى فوضويين يدعى أحدهما كاروي والثاني غوزي، وكان للأول حانوت في الفورتفيل وللثاني حانوت في إيفري. ولدى مراقبتهما تبين أن الثاني يستخدم رجلاً غريب الأطوار كان لا يبيت في أي فندق أكثر من ليلة واحدة، وسرعان ما اتضح لرجال الشرطة أنه مونيه الملقب بسيمانتوف فاعتقل في غرفته بفندق لوزير وكان على الطاولة القريبة من سريره مسدسان معبآن.

وقال المفوض جوان لرجاله:

ـ إن غوزي هذا يثير شكوكي، وسأذهب لزيارته وأنا على يقين بأني لن أعود خالي الوفاض!

وذهب المفوض دون أن يعود... فقد استقبله ومرافقيه صاحب الحانوت بكل هدوء ورباطة جأش، ولما أراه صورة بونو وسأله إن كان يعرفه أو رآه أجاب بالنفي. وشاهد المفوض سلماً فسأل غوزي إلى أين تقود هذه السلم؟ فأجابه أنها تقود إلى منزله، فقال المفوض إنه يريد رؤية المنزل، فسار غوزي أمامه نحو منزله، وكان بونو يختبىء في إحدى غرفه، فأطلق النار على المفوض وأرداه قتيلاً ثم لاذ بالفرار، فوق أسطحة المنازل المجاورة ثم ألقى بنفسه إلى الطريق من علو شاهق واختفى عن الأنظار.

العش الأحمر وفينوس الحمراء

وكان في مدينة شوازي لوروا مجمّع سكني يطلق عليه اسم «العش الأحمر» يلتجىء إليه عدد من الفوضويين الهاربين من العدالة، وكان يطلق على كل منزل من منازله اسم شخصية ثورية كبيرة، وفي ٢٤ نيسان (أبريل) جاء إلى مخفر الشرطة صيدلي من شوازي، وقال إنه عالج في «العش الأحمر» شخصاً مصاباً بالجراح يشبه بونو. فأيقنت مديرية الأمن العام أن رئيس العصابة قد وجد ملاذاً له في «العش الأحمر».

وفي صباح يوم الأحد في ٢٧ نيسان (أبريل)، أحاط رجال الأمن العام وفي مقدمتهم رئيسهم السيد غويشار بمنطقة «العش الأحمر» وبدأت اقتحامها لأول

مسكن من مساكنه وكان يتألف من كاراج وفوقه منزل وكان ساكنه يقف أمامه إلى جانب سيارته، وهو ميكانيكي يتسمى باسم فرنسي هو دوبوا، ولكنه ذو لهجة روسية، فهو في الحقيقة أحد الروس النهليست الهاربين من بلادهم، وكان دوبوا يتظاهر بأنه يعنى بسيارته، ولكن ما كاد الشرطي فلوري يصرخ: «شرطة!» حتى أخرج دوبوا مسدساً من السيارة وأطلق منها ثلاث رصاصات فأصابت إحداها شرطياً آخر إصابة خفيفة، ولكن فلوري أطلق النار بدوره فأرداه قتيلاً.

وعلى أثر إطلاق النار ظهر بونو من أحد المساكن ووثب إلى السلم وأخذ يطلق النار. ولما تيقن رجال الشرطة من وجوده قرروا محاصرة منزله، ولكن كل من كان لديه سلاح في «العش الأحمر» خرج من مسكنه واشترك في المعركة. وحينئذ قرر رئيس الشرطة نسف المنزل بالديناميت، وقام الملازم فونتنان بالمهمة، ولكن أصابع الديناميت لم تؤثر في جدار المنزل إلا قليلاً، فعاود فونتنان الكرة دون جدوى، ولكن عملية النسف الثالثة أدت إلى تهديم الجدار واشتعال حريق في المنزل، بينما كان رجال الشرطة يندفعون نحوه ويطلقون النار عشوائياً وفي كل اتجاه.

وما لبث الشرطيون حتى صعدوا السلم واقتحموا المنزل، بينما كان بونو يلف نفسه بفراش اتخذ منه درعاً واقياً وهو يطلق النار من مسدسه، وعلى الرغم من إصابته بعدة طلقات، كان يستمر في إطلاق النار وهو يصرخ:

ـ أيها البورجوازيون الأوغاد!

ولم يستسلم بونو حتى اللحظة الأخيرة حين اقتحم كزافيه غويشار رئيس الأمن العام الغرفة وقضى عليه، وانتهى بذلك الحصار الذي استمر أربع ساعات، والذي استطاع زعيم العصابة أن يجد خلاله الوقت والثبات لكتابة وصية يقول فيها إنه رجل عقيدة ضحى بنفسه من أجل إنقاذ الشعب وإسقاط النظام البورجوازي، ولم ينس أن يودع مضيفته زوجة حارس المقبرة ويذكر لقاءاتها الشعرية بين المقابر في ضوء القمر، مما يدل على أن القاتل لم يكن فيلسوفاً وحسب بل كان أيضاً عاشقاً عاطفياً!

وإذا كان قد تبين أن «فينوس الحمراء» قد وشت بريمون العالم طمعاً في الجائزة

التي أعلنت عنها الشركة العامة، فإن امرأة أخرى هي ماري فيولومان عشيقة غارنيه قد أرشدت إليه وإلى صديقه فاليه دون إرادتها ولا معرفتها.

ذلك أن رجلين وامرأة سكنا في السابع من أيار (مايو) في فيللا في نوجان سورمارن، وما لبثوا حتى أثاروا شبهات السكان، لأن المرأة اشترت أدوات مطبخية ومؤونة من الطعام تكفي لشهر كامل، ولأن الرجلين لم يكونا يغادران المنزل إلا ليلاً، وفي معظم الأحيان لا يغادرانه إلا الى حديقة الفيللا.

وجاء إلى دائرة الشرطة رجل يدعى كينابل وروى ذلك لرئيس الدائرة. وكانت الشرطة قد عرفت أن لغارنيه عشيقة تدعى ماري فيولومان وحصلت على صورة لها، فلما أطلعته على هذه الصورة أكد أنها المرأة التي تعايش الرجلين المشبوهين في الفيللا.

وفي مساء الخامس عشر من أيار (مايو) أحاطت الشرطة بالفيللا وهتف رئيسها بمكبر الصوت:

ـ استسلموا فأنتم محاصرون.

وكان جواب المحاصرين في الفيللا عدة طلقات نارية صدرت عنهم باتجاه الشرطة، وفي الوقت نفسه خرجت من الفيللا ماري فيولومان مذعورة وركضت نحو الشرطة مرفوعة اليدين، بينما استمر رفيقاها في إطلاق النار وأصابا أربعة من رجال الشرطة، وحينئذ عمد هؤلاء إلى إلقاء أصابع الديناميت على الفيللا فلم تجد نفعاً.

وفي الساعة الواحدة تقرر اقتحام الفيللا فوجهت إليها أضواء باهرة تحول دون رؤية اللصين ما يجري خارجها، وتسلل رجال الشرطة الى مقربة منها ونسفوها بكمية كبيرة من الديناميت، ثم اندفعوا الى داخلها فوجدا غارنيه ميتاً، أما فاليه فكانت لا تزال فيه بقية من حياة استنفدها في إطلاق أربع رصاصات ثم سقط مضرجاً بالدم.

وفي ٣ شباط (فبراير) سنة ١٩١٣، بدأت محاكمة من تبقى من أفراد العصابة، وأضيف إليهم فيكتور كيبالتشييف وريريت ميترجان المنظران اللذان يصدران

جريدة «الفوضوية» لأنها النبع الـذي كان يستقي منـه بونـو وأمثالـه السموم التي فتكت بهم، فضلاً عن إيوائه لهم وإخفائهم عن أعين العدالة.

وقد استمرت المحاكمة شهراً، وكان عدد المتهمين فيهـا ٢٢ وأبرزهم فيكتـور كيبالتشيف وريمون المعلم اللذان أخذا يلقيان دروساً على هيئة المحكمة في ضرورة القضاء على المؤسسات البورجوازية ومنها المحاكم. أما ديودونيه فإن المحاسب كابي الذي تماثل للشفاء أكد أنه هو الذي أطلق عليه النار، بينما ثبت أن كاروا هو الذي قتل الملاك الشيخ مع خادمته العجوز بطعنات من سكينه بالاشتراك مع مجرم آخر يدعى ميدج.

وكانت ريريت ميترجان تبدو في قاعة المحكمة أنيقة جذابة توزع الابتسامات البريئة، بينما كان ريمون المعلم يوزع الشتائم على القضاة وعلى الجمهور.

وقد قضت المحكمة بإعدام أربعة من المتهمين هم سودي ومونيه وريمون كالمان المعـروف بالمعلم وديـودونيه الـذي خفض حكمه الى السجن المؤبـد. أما كـاروا وميدج فقد حكما بالأشغال الشاقة المؤبدة، وحكم على فيكتور كيباتشييف بالسجن لمدة أربع سنوات، وأثرت ابتسامات ريريت البريئة على القضاة فحكموا ببراءتها وأطلق سراحها، كما شملت البراءة بقية المتهمين.

وما كاد كاروا المحكوم بالسجن المؤبد يعود إلى زنزانته حتى تناول السم ومات لفوره، ولم يكشف التحقيق عن كيفية وصول السم إليه.

وظل المحكومون بالإعدام حتى اللحظات الأخيرة، يؤملون بأن الرئيس فاليير لن يوقع قرار إعدامهم، وسيحول الحكم بالموت الى السجن المؤبد، لما عرف عنه من عدائه لعقوبة الإعدام، ولكن رئيس الجمهوريـة الفرنسيـة كان مضـطراً إلى توقيع ذلك القرار أمام ضغط الرأي العام.

ولما صعد ريمون العالم الى منصة المقصلة أخذ يردد بكبرياء:

ـ أنا ضحية القمع البورجوازي... أنا شهيد الحرية!

محاكمة صاحب « أزهار الشر »
بودلير انتصر بعد ثمانين عاما من وفاته

في قصيدته «طائر النورس» يصف بودلير كيف ترافق طيور النورس السفن وهي تعبر البحار والخلجان، وكيف يقوم الملاحون باصطيادها:

«فما أن يضعوها على ظهر السفينة
حتى تترك ملوك السماء،
وهي خجلى خرقاء، أجنحتها
تجرجر الى جانبها برثاء كالمجاذيف
هذا المسافر المجنح لكم يغدو ضعيفاً وبطيئاً،
وهو الذي كان جميلاً جداً.
ولكم يصبح مضحكاً وقبيحاً،
هذا يضايقه بعصاه وذاك يعرج
مقلداً الطائر الكسيح وساخراً منه».

ثم يشبه بودلير الشاعر بذلك الطائر فهو ملك في السماء وكسيح على الأرض، على الرغم من أجنحته العملاقة وربما بسبب هذه الأجنحة:

«الشاعر كأمير السحاب
يلازم العاصفة ويسخر من رامي السهام

وهو على الأرض منفي بين الناس الزاعقين
تعيقه أجنحته العملاقة عن المسير!»

كذلك كان بودلير. . .

في شعره يتجاور الجمال والقبح ويقترن الخير بالشر، فثمة رغبة ملحة في الصعود يعقبها استسلام يائس للانحدار. . . والمرأة التي يتصورها الشاعر ملاكاً تبدو له في الواقع شيطاناً رجيماً، فيثور عليها ثم يعود فيتقبلها، وباستثناء حبه لمدام ساباتيه فإنه لم يعشق إلا العاهرات والمنحرفات والملونات، فعاش بينهن وتجاوب معهن في مشاعر سادية ورغبات وحشية لا ترتوي إلا بالموت. . . فالموت في شعره هو الرحلة الطويلة مع المرأة.

وإذا كانت حياة الإنسان الداخلية تتكون من الكهوف والطلاسم، فإن أغوار بودلير كانت الأكثر غرابة وتعقيداً.

وحين صدور ديوان بودلير «أزهار الشر» أعجب به فيكتور هوغو وشبه قصائده بالنجوم، ولكن النظام السائد لم يشارك هوغو بهذا الإعجاب، ودعي الشاعر للمثول أمام القضاء!

* * *

كان ذلك في العشرين من آب (أغسطس) سنة ١٨٥٧، وقد بدأت المحاكمة أمام الغرفة التأديبية السادسة بباريس، ولكنها لم تجتذب جمهوراً كبيراً، وكان ذلك أمراً طبيعياً فإن قضايا المحكمة التأديبية لا تحرك المشاعر التي تحركها قضايا محكمة الجنايات.

ولكن قضية اليوم تثير مع ذلك لغطاً في الأوساط الأدبية، فالمتهم هو شارل بودلير الذي اختلف نقاد عصره في رأيهم بشأنه. فمنهم من اعتبره شاعر العصر ومنهم من رأى فيه شاعراً ملعوناً رجيماً يجب أن يصنف مع المنبوذين ويقصى إلى زوايا النسيان. أما التهمة الموجهة إليه وإلى ناشري ديوانه «أزهار الشر» دوبرواس وبوليه مالاسيس، فهي الإساءة إلى الأخلاق العامة والأخلاق الدينية.

كان بودلير لا يزال يومذاك في السادسة والثلاثين من عمره، ولم يصدر له حتى ذلك الحين سوى أربعة كتب: اثنـان منها في النقـد الفني هما «معـارض ١٨٤٥» و«معارض ١٨٤٦» واثنان آخران مترجمان عن إدغار ألن بو هما «قصص خـارقة» و«قصص خارقة جديدة». ومع ذلك فإنه قـد احتل مكـانة مـرموقـة في الحلقات الأدبية، وكان كتّاب كبار من أمثال فيكتور هوغو وفلوبير وباربي دورفيللي يعتبرونه صنواً لهم، وإن كانوا يرون فيه شيئاً مختلفاً، فيه كثير من الشذوذ والغـرابة. وقـد وصفه الأخوان غونكور كما رأياه أثناء تلك الجلسة بقـولهما: «إنه لا يضع ربـطة عنق، رقبتـه عاريـة ورأسه محلوق كـرأس من يساق إلى المقصلة. يـداه نظيفتـان مقلمتا الأظافر كأيدي النساء، وصوته قاطع كالفولاذ وكلامه جميل ومنمق».

هذا الرجل غير العادي كان يجلس في قفص الاتهام وإلى جانبه محاميه الأستاذ شيكس ديست آنج وعلى مقربة منـه الناشر بـوليه مـالاسيس وقد تخلف شـريكه دوبرواس عن حضور الجلسة. وكانت دعوى الإساءة إلى الأخلاق العامة تنسجم مع الوضع السياسي السائد، فـالعهد هـو عهد الامبـراطوريـة الثانيـة التي كانت شديدة التزمت في كل ما يتعلق بالأخلاق، ومنذ ستة أشهر فقط وجهت إلى فلوبير التهمة نفسها بعد صدور روايته الشهيرة «مـاري بوفـاري».ولكن الكاتب الكبـير استطاع أن يدحض التهمة الموجهة إليه فبرئت ساحته وسمح بتداول روايته.

لقـد تسامـح نابـوليون الثـالث بعض الشيء مع الممثلين والمغنيـات، ولكنه لم يتسامح مع الكتّاب، وفي طليعتهم فيكتور هوغـو الذي كـان لا يفتأ يتحـداه من منفاه، ولهذا فإن النائب العام الذي أخفق في الحكم على فلوبير، قرر الانتقام من بودلير، وجند لذلك جميع الطاقات، ومنها جريـدة «الفيغارو» التي كتب مـديرهـا فيلوميسان بتوقيع مستعار هو غوستاف غوردان نقداً لاذعاً للمجموعة الشعرية في ٢٥ حزيران (يونيو) ١٨٥٧ قال فيه:

لقد قرأت الكتاب، وهاكم رأيي فيه أعرضه صراحة دون أن أفرضه على أحد: إنه كريه ووضيع يثير القرف والاشمئزاز. أبداً لم يشـاهد عض وحتى مضـغ هذا القدر من النهود في مثل هذا العدد القليل من الصفحات . أبداً لم يشاهد عرض

مماثل للشياطين والأبالسة والقطط والبراغيث. إن هذا الكتاب هو مستشفى مشرع الأبواب لجميع عفونات القلب. وإذا كنا نفهم أن مخيلة شاعر في العشرين من عمره قد تجره إلى مثل هذه الموضوعات، فليس هناك ما يبرر لرجل قد تجاوز سن الثلاثين أن يبيح كتابه لأمثال هذه المسوخ».

ولم يكتف الكاتب بهذه الشتائم، فكتب في الجريدة نفسها بعد أسبوع: «عندما يتحدث المرء عن السيد شارل بودلير فإنه يتحدث عن كابوس. إن قراءة «أزهار الشر» تترك في النفس كآبة عميقة وحزناً رهيباً. إن هذه الكومة من الجثث المعروضة ببرودة أعصاب، وهذه الأقذار المنبوشة بيدين مشمرتين، يجب أن تحبس حتى تتعفن في درج ملعون».

ولم يكن الدرج الملعون سوى ذلك القبو التابع للمكتبة الوطنية، حيث تدفن الكتب المصادرة والممنوعة من التداول بين الناس.

لم ينظر المستاؤون من كتّاب «أزهار الشر» الى الموهبة والعبقرية اللتين تجلتا في الكتاب، وكأن كل همهم حماية المجتمع والنظام من ومضة التحرر التي تسطع فيه.

وكان بودلير يبدو في المحكمة كما وصفه الأخوان غونكور في زي من يساق إلى المقصلة. وكان بادي القلق من اضطراب يديه ونظرته الغريبة، الملهمة، المسكونة، نظرة طيور الليل، كما كان يقول أصدقاؤه وأعداؤه على السواء.

وبعد سؤال المتهمين عن هوياتهم، أعطى الرئيس دوباتي الكلمة للنائب العام السيد بينار، وكانت محاكمة «مدام بوفاري» وتبرئتها قد لقنتاه درساً، فبدا حذراً متحفظاً وبدأ حديثه قائلاً:

- إن ملاحقة كتاب ما بتهمة الإساءة إلى الآداب العامة، أمر غاية في الدقة. فإن هذه التهمة إذا لم تثبت ولم تكلل بالإدانة، تحولت إلى دعاية وانتصار لمؤلف الكتاب، وبدا في صورة الإنسان المضطهد.

وقال إن القاضي ليس ناقداً أدبياً.. ولكنه حارس يقف على تخوم الأخلاق ولا يسمح لأحد أن يتخطاها.

ثم يقرأ تأييداً لاتهامه بعض قصائد المجموعة التي تجري محاكمتها، وفي قاعة الغرفة التأديبية السادسة التي اعتادت على سماع المماحكات ولغط السكارى ومشاجرات بائعي السمك، تتعالى الأنغام البودليرية.

«أنا ندية الشفة
وأعرف فن إضاعة الضمير
في غيابة السرير
أكفكف كل الدموع على نهديّ المظفرين
وأجعل الشيخ يضحك مثل طفل صغير
وأحل لدى من يراني عارية
محل الشمس والنجم والقمر المنير».

إنها لموسيقى رائعة. . ومع ذلك فإن السيد بينار يهاجمها بقوله:
ـ أيها السادة أعتقد بأني سردت ما يكفي من المقاطع لأؤكد على ما فيها من إهانة للآداب العامة وعلى أن الحدود التي يفرضها الحياء قد تم تجاوزها بوقاحة.

ثم انتقل ممثل وزير العدل إلى الشق الثاني من التهمة، وهو الإساءة إلى الأخلاق الدينية، فكان أكثر تحفظاً وحذراً، وبعدما تلا بعض القصائد التي اعتقد أنها تؤكد الاتهام، قال بذكاء:

ـ سوف تقدرون بأنفسكم إذا كان بودلير، هذا الفكر المعذب، قد أقدم على التجديف في حين كان يريد أن يصنع الدهشة، أم أنه كان يعي بأنه يجدف.

وطالب بينار بحذف ست قصائد من الديوان، وأنهى مرافعته بقوله:

ـ أيها السادة، ليكن حكمكم حكماً على الميول غير الأخلاقية المتنامية، على هذه الحمى الخبيثة التي تحمل أصحابها على أن يرسموا كل شيء، ويصفوا كل شيء، ويقولوا كل شيء، كأن عقوبة الإساءة إلى الآداب العامة قد ألغيت، وكأن هذه الآداب لا وجود لها.

وجاء دور محامي المتهم الأستاذ شيكس ديست آنج في الكلام، وكانت مرافعته مكتوبة بدقة وعناية حسب التقاليد القضائية، فقال إن بودلير إذا كان يصف الرذيلة فلكي يدينها، واستشهد بالأبيات الأربعة التي يستهل بها الشاعر ديوانه كتنبيه للقارىء:

«الحماقة والخطأ والخطيئة والبخل
تحتل أفكارنا وتشغل أجسادنا
وعذابات الضمير الحبيبة نغذيها
كما يغذي قملهم الشحاذون. . .».

واستشهد المحامي بكتاب طرطوف لموليير، فقال إن الكاتب قد أراد تصوير الانحرافات والرذائل السائدة بين معاصريه، فتعرض للهجوم عليه من قبل المتدينين.

واستنتج المحامي من ذلك أن نوايا بودلير سليمة ونقية. وانتهى بذلك من القسم الأول من مرافعته الأكاديمية، وانتقل الى الشق الثاني فتساءل: أيمكن أن يكون بودلير قد أخطأ على الرغم من نواياه السليمة، فأساء إلى الأخلاق العامة دون قصد؟

- إن حضرة النائب العام قد اكتفى بتلاوة مقاطع من قصائد، وأبيات منفردة، ومثل هذه الاجتزاءات تحور معاني القصائد وتشوه مقاصدها.

ثم تلا بدوره بعض القصائد ويبدو أن اختياره لها كان خاطئا، ومنها قصيدة «لسبوس» وهي الجزيرة اليونانية التي انتشرت فيها عبادة أفروديت والحب المطلق من كل قيد، وقد جاء فيها:

«يا أم الألعاب اللاتينية واللذات الإغريقية
لسبوس، حيث القبل المرحة المعسولة
حارة كالشموس وغضة كالبطيخ الأحمر
تزين الليالي والأيام المجيدة».

وعمد المحامي إلى طريقة النائب العام فسرد مقاطع مجتزأة وأبياتاً منفردة من قصائد لموسيه وبيرانجيه وتيوفيل غوتيه، فإذا هي لا تقل إباحية عن المقاطع والأبيات التي تلاها السيد بينار، وتساءل لماذا لم تمنع تلك القصائد إذا كان علينا أن نحكم عليها بأجزاء منها، ثم قال:

ـ إذا كان سيحكم على بودلير فيجب إذن أن يحكم على رابليه من أجل كل إنتاجه، وعلى لافونتين من أجل أقاصيصه، وعلى روسو من أجل اعترافاته، وعلى فولتير وبومارشيه اللذين كتبا أيضاً كثيراً من النصوص الإباحية.

وانتهى المحامي إلى طلب البراءة.

وسمع المحيطون ببودلير تعليقه على هذه المرافعة بقوله:

ـ ليس هذا ما يجب أن يقال. كان يجب القول بكل بساطة إنه ليس على الفنان أن يؤدي حساباً أمام الأخلاق، ولا يطلب منه أن يكون ذا نوايا حسنة، بل أن يكون ذا موهبة.

ولكن هذه المقولة كانت أبعد ما تكون عن الإطار الذي تجري فيه المحاكمة، وكان الأستاذ شيكس ديست آنج يراعي القواعد المتبعة. أما الرئيس دوباتي فلم يخالجه أي انفعال أو تردد، وأعلن قراره بكل هدوء وقد جاء فيه:

«بما أن بودلير وبوليه مالاسيس وبرواس قد اقترفوا جنحة الإساءة إلى الآداب العامة والأخلاق الحميدة، فإن المحكمة تقضي بتغريم بودلير ٣٠٠ فرنك وكل من بوليه ماسيس وبرواس مائة فرنك. كما إنها تقضي بحذف القصائد ذات الرقم ٢٠ و٣٠ و٣٩ و٨٠ و٨١ و٨٧ من مجموعة «أزهار الشر».

كان الشاعر هادئاً، وما لبث حتى غادر قاعة المحكمة دون أن يقول أي كلمة، وما هي إلا أيام حتى بدأ يتلقى من أدباء فرنسا رسائل المودة والتأييد والتقدير. وكان في مقدمتها رسالة من فيكتور هوغو، وهو يومذاك في قمة مجده، هذا نصها:

««إن الفن كالأفق، إنه نشيد لا ينتهي، وأنت قد أثبت ذلك. إن قصائد «أزهار الشر» تشع وتسطع كالنجوم، فواصل عطاءك. إني لأهتف بكل قواي أمام فكرك الشجاع: لقد أحسنت. وقد تلقيت أحد الأوسمة النادرة التي يستطيع

النظام تقديمها. فإن ما يسميه «عدالته» قد أدانك باسم ما يسميه «أخلاقه» وهذا إكليل إضافي يقدم إليك. إني أشد على يدك أيها الشاعر...».

وينقضي الزمن وبودلير تتسع من حوله يوماً فيوماً هالة المجد..

وفي ٣١ أيار (مايو) سنة ١٩٤٩ انعقدت محكمة التمييز بناء على طلب جمعية الأدباء الفرنسيين، وأصدرت قراراً بنقض الحكم الصادر عن الغرفة التأديبية السادسة بباريس، وهذا ما جاء في قرار النقض:

«بما أن القصائد موضوع الدعوى لا تتضمن أي تعبير بذيء أو فاحش ولا تتجاوز الحريات المسموح بها للفنان...

فإن جنحة الإساءة إلى الآداب العامة لم تحدث، ولهذا فإن المحكمة تنقض وتلغي المحاكمة التي تمت في ٢٠ آب (أغسطس) ١٨٥٧، وتبرىء ذكرى بودلير وبوليه مالاسيس وبرواس من الحكم الذي صدر بحقهم».

وحين صدر هذا القرار عن محكمة التمييز كان قد انقضى على وفاة بودلير ثمانون عاماً وعلى صدور الحكم بحقه تسعون عاماً... وكان ذلك دليلاً جديداً على أنه في الصراع الذي غالباً ما يدور بين الفنان المبدع والعقلية السائدة في مرحلة معينة من مراحل التطور الإنساني إنما ينتصر الفنان ولو تأخر الزمان!

صوت من السماء
أمر راعية الغنم بقيادة جيش فرنسا

تظهر جان دارك في عصرها المضطرب كوجه غـريب. . وهي في التاريـخ كله صورة نادرة المثال ورمز مضيء من رموز التضحية والفداء. .

وليس بين أبطال العالم، رجالاً ونساء، من قام بالدور العظيم الذي مثلته، وهو في مثل سنها الفتي، إذ بلغت ذروة النصر وغاية الفخر وهي في الثامنـة عشرة من عمرها، فأنقذت وطنها وحققت رسالتها وكسرت شوكة العدو المحتل.

امرأة ضيعت مملكة!

في ذلك العصر كانت الحروب بكل ويلاتها، وهزائمهـا وانتصاراتهـا، دائمة الاستعار بين فرنسا وإنكلترا، وأبرزها حروب المائة عام. وفي إحدى هذه الحروب الطويلة الأمد، هاجم ملك إنكلترا هنـري الخامس فـرنسا وقـد مزقتهـا الحروب الأهلية بين الملك وكبار الإقطاعيين، فانتصر عليها واستولى على باريس وغيرها من المدن بمساعدة الفرنسيين البورغونيين أتباع دوق دوبورغـونيا، واضـطرها إلى أن تعقد معه سنة ١٤٢٠ في مدينة «تروا» معاهدة تقضي بأن يتزوج هنـري الخامس من الأميرة الفرنسيـة كاتـرين، وأن يرث ابنهـما ذكراً كـان أو أنثى عرشيّ فـرنسا وإنكلترا معاً هو وخلفاؤه من بعده، إذا ما توفي شارل السادس ملك فرنسا من غير وريث شرعي.

وبلغ من نفوذ إنكلترا ونجاح مؤامرتها، أنه لما مات شارل السادس ملك فرنسا المجنون سنة ١٤٢٠، أعلنت إيزابيل زوجته وأم ولي عهده شارل، السيئة السمعة البافارية الأصل، بالاتفاق مع دوق دوبوغورنيا حليف الإنكليز، أن ابنها هذا ليس ابناً شرعياً، لتحرمه بذلك حقه في وراثة العرش، وتمكن الإنكليز من تنفيذ الشرط الخاص بضم فرنسا إلى إنكلترا.

وبهذا العمل الفاضح آل عرش فرنسا إلى هنري السادس الذي خلف والده هنري الخامس على عرش انكلترا وهو لا يزال ابن أشهر معدودة، فوضع بحسب وصية أبيه تحت وصاية حنا دوق بدفور وهمفري دوق غلوسستر، على أن يظل الأول في فرنسا لرعاية مصالح إنكلترا فيها ومواصلة الحرب لإكمال احتلالها، ويبقى الثاني في إنكلترا.

وانشقت فرنسا بعضها على بعض، قسم منها أبى الولاء للملك الانكليز، وقسم آخر انضم الى الانكليز وناصرهم وتعاون معهم وعلى رأسه فيليب دوق بورغونيا.

أما شارل ولي العهد أو الدوفان كما يسميه الفرنسيون، الذي لطخت أمه سمعته بالعار، فقد كان خائر العزيمة، ضعيف الهمة، جباناً متردداً، وقد تراجع أمام زحف الجيوش الانكليزية إلى جنوبي نهر اللوار محتمياً وراء حصون أورليان معقله الأخير، دون أن يسمي نفسه ملكاً ويحتفل بتتويجه في احتفال رسمي، بعدما جردته فضيحة أمه من كل الحقوق.

ولم يكن هنالك أي أمل في الصمود أمام زحف الجيش الانكليزي أو تحرير المناطق التي يحتلها، فالشعب يائس لا ثقة له بجيشه ومليكه، والجيش والملك يبادلان الشعب هذه العاطفة، والكل في قنوط عظيم. وقد نصح الدوفان بعض رجال بلاطه بالفرار إلى اسبانيا أو اسكتلندا لأن حصار أورليان قد اشتد ولا بد من سقوطها في أيدي الانكليز المندفعين بقيادة اللورد سلسبوري ليشقوا طريقهم بعد ذلك إلى ما تبقى من أقاليم فرنسا، فقد احتلوا حتى ذلك الحين إحدى عشرة مقاطعة ولم يبق في يد الدوفان إلا ثلاث مقاطعات ترتجف رعباً وتستعد للسقوط.

وفي هذه العاصفة من اليأس القاتل والتخاذل المميت، وفي هذا المنعطف من

التاريخ ومصير فرنسا في يد القدر، ظهرت فلاحة من الجنوب تدعى جان دارك في السابعة عشرة من عمرها فأنقذت فرنسا. . .

لقد أضاعت المملكة امرأة هي إيزابيل، واستعادتها امرأة هي جان دارك. . .

كيف تمت المعجزة؟

ومن هي هذه الفتاة؟

وما هو سر بطولتها وانتصارها؟

أميرة في قرية منسية!

ولدت جان دارك في قرية دومريمي القصية المنسية بمقاطعة اللورين، ونشأت في بيئة دينية وفي بيت قريب من الكنيسة، فشبت في ظلال أسوارها وعلى نغمات ناقوسها.

كانت تصلي بينما إخوتها ورفاقها يلهون ويلعبون، وكانت تطيل الوقوف أمام تمثالي القديستين كاترين ومرغريت كلما قادت خراف أبيها الى المرعى الخصيب في السهول المحيطة بالمنزل والممتدة إلى ضفاف نهر الموز. وكانت نحيفة الجسم قوية البنية، تبدو على وجهها الوديع سذاجة بنات القرى، وعلى ملامحها شيء كثير من ملاحة أمها وصرامة أبيها. وعلى الرغم من بساطتها وشحوبها وشرودها، فقد كانت تبدو كأنها إحدى الأميرات، طويلة القامة شقراء الشعر زرقاء العينين تقرأ في عينيها الخيال البعيد ويرتسم على فمها العزم القوي.

واقترنت هذه النشأة الدينية بالعاطفة الوطنية الملتهبة. . فقد كان أهل القرية من الوطنيين الذين ناصروا الملك الشرعي، ولم يكن لهم من حديث في مجالسهم سوى حديث الحرب وأخبارها المؤثرة، وعدوان المحتل وجرائمه المنكرة. وكثيراً ما كانت هذه المجالس تعقد في منزل أبيها جان دارك عميد القرية وصاحب الرأي فيها.فأيفعت جان وقضية وطنها شغلها الشاغل وهاجسها الأوحد، تذكرها في صلواتها وخلواتها، وترافقها في يقظتها وأحلامها.

وقد تولاها حزن عميق لوقوع وطنها تحت نير الاحتلال الأجنبي. ولازمها هذا الحزن وطبع حياتها بميسمه. فكانت تكثر الانزواء تحت شجرة «زان» ممتدة الفروع

وارفة الظلال كان أهل القرية يسمونها «شجرة الجنيات». وكان الناس يتساءلون عما تفعله الفتاة في عزلتها الطويلة. . . والحق أن ما كانت تفعله أو تتخيله كان أمراً عجيباً، وقد حدث ذلك منذ بلغت سن الثالثة عشرة. . .

كانت جالسة ذات يوم على رابية خضراء وهي تفكر كعادتها في وطنها المعذب، فإذا بأوراق الشجر تهتز من حولها برفق، والطيور تغرد بفرح عظيم، وشعرت برعدة تسري في جسدها، ورأت أنواراً غامرة تحيط بها. . ثم سمعت هاتفاً يناديها باسمها قائلاً بصوت عذب رقيق:

- جان. . جان. . . لا تخافي. . كوني فتاة طيبة، فسوف تذهبين لنجدة ملك فرنسا الذي حرمه أعداؤه تاجه، فتخلصينه وتتوجينه في كنيسة ريمس. . لا تخافي يا جان فسوف ترتدين ثياب الرجال، وتقودين جيشاً، ويأتمر كل إنسان في فرنسا بأمرك!

وتقول جان إن الصوت الذي سمعته كان صوت القديسة كاترين، وقد تراءت لها وإلى جانبها القديسة مرغريت والملاك ميكائيل، وسط هالة من النور بين غصون شجرة الزان الوارفة الظلال الممتدة الفروع.

من «شجرة الجنيات» إلى أورليان!

ويعلل برنارد شو أمر هذه الأصوات في مقدمة مسرحيته جان دارك بقوله: «إن في البشر أناساً احتد خيالهم واتقد، حتى إذا خطرت لهم فكرة جاءتهم صوتاً مسموعاً، وقد يتراءى لهم كأن خيالاً ينطق بها. صوتاً يأمرها بأن تذبح زوجها وأن تخنق ولدها وهما نائمان فلا تجد مفراً من طاعته. وعندئذ تتدخل خرافة طبية شرعية قديمة تسود في محاكمنا، تقول بأن المذنب إذا أتى الاجرام بتأثير خيالات كهذه لا يسأل عما يفعل، وإنما يعتبر مجنوناً ويعامل معاملة المجانين، على أنه ليس كل من رأى رؤية أو سمع هتافاً، مجرماً سفاحاً، فالعبقرية لها وحيها ولها إلهامها ولها استنتاجات تتخرج في بطء وخفاء من فروض دفينة في دخيلة النفس فهي تجري فيها دون أن يحس صاحبها بها. وكل ملابسات العبقرية هذه قد تتمثل صوراً وأطيافاً كالتي رأتها جان وغير جان. فسقراط ولوثر واشفندبورغ وبلاك كل

هؤلاء رأوا أطيافاً وسمعوا أصواتاً كالتي سمعتهـا ورأتها القـديسة جـان والقديس فرنسيس، ونيوتن لو كان خياله يغرم بالمفاجآت المؤثرات وينحو منحى الدرامات والمسرحيات لرأى خيال فيثاغورس رأي العين، ولرآه يدخل إليه البستان فيعلل له كيف سقطت التفاحة عن شجرتها».

« . . . وعلى هذا المثال، لا مفر من اعتبار جان امرأة عاقلة بغض النظر عما كان من أصواتها، فهذه الأصوات لم تسد إليها أبداً بنصيحة لم يجز مأتاها من ذات نفسها وعمل عقلها، على نفس الأسلوب الذي جاءت به نظرية نيوتن إليه».

« . . . إذن قد وجب علينا أن نؤمن بأن جان لم تكن مأفونـة ولا مجنونـة، وأن نعجب منها بفتاة قروية شديدة الذكاء في رأسها عقل أي عقل، وفي جسمها جلادة أي جلادة، وأن كل ما صنعته من الأمر قدّرته تقديراً، ولكن كان تقديرها للأمور سريعاً فلم تفطن حتى هي إليه، فعزت حكمه إلى أصواتها! . . . ».

ثلاثة أعوام مرت وجان تحتفظ بسرها وتكتمه عن الجميع. . . ولكنها كانت لا تفتأ تتساءل كيف تستطيع هي الفـلاحة الضعيفـة الجاهلة بشؤون الحـروب، أن تنجد الملك الشاب، وتنقذه، وتتوجه بيديها الصغيرتين!

وما كادت تبلغ سن السابعة عشرة حتى أمرتهـا الأصوات التي كـانت تسمعها بـالذهـاب إلى ولي العهد والقتـال إلى جانبـه، لأنها هي المختارة من الله لإنقـاذ بلادها، فقالت:

ـ لتكن إرادة الله!

وبادرت الفتاة إلى إبلاغ أهلها بأنها تريد الذهاب إلى أورليان لرفع الحصار عنها وإنقـاذ ملك فرنسـا، وحدثتهم بحـديث الرؤى التي شـاهدتهـا والأصـوات التي سمعتها، فاتهمها الجميع بالجنون، ولم يصدقها ويؤمن برسالتها سوى خالها دوران وأخيها بيير.

ولما قررت الذهاب الى مدينة فوكولير لمقابلة حاكمها روبير دو بودريكور، كانت على يقين بأن أباها لن يسمح لها بالرحيل، فانطلقت إليها سراً برفقة خالها دوران، ودخلت على الحاكم قائلة:

ـ يا سيدي العزيز. . لقد أمرني الله أن أسعى لمقابلة مليكنا المحبوب، سيد فرنسا الشرعي. .

فنظر إليها طويلاً وقال ساخراً:

ـ وماذا تفعلين إذا قابلتيه؟

ـ سأطلب إليه أن يوليني قيادة الجيش لأحطم حصار أورليان، ثم أرافقه الى ريمس لأتوجه رسمياً ملكاً على فرنسا!

فضحك الحاكم هازئاً وضحك كل من كان في مجلسه، من هذه الفلاحة الساذجة التي تريد أن تتولى قيادة الجيش لتحطم حصار أورليان وتتوج الدوفان بنفسها، ثم دعاها إلى العودة لمقابلته بعدما يفكر في الأمر ملياً.

ونزلت الفتاة مع خالها في بيت أحد الحطابين، وصامت عن الطعام أياماً عدة. . وكانت تقضي نهارها في الكنيسة تصلي إلى الله، فاهتم السكان لأمرها، وكانوا يعترضونها في الطريق ليسألوها عما تريد، فتجيب بأنها لا تريد شيئاً سوى فك الحصار عن أورليان وتتويج الملك وإنقاذ فرنسا. وأنها إنما تفعل ذلك بأمر من الله، فصدقها أناس كثيرون. وحين وافت الأنباء بأن أورليان على وشك السقوط، وقفت جان في ساحة المدينة وصرخت:

ـ إن أورليان لن تسقط إذا أنصتوا إليّ. . والحاكم الذي لا يبادر لإرسالي إلى هناك، يفوّت على فرنسا وقتاً هي أحوج ما تكون إلى كل دقيقة فيه. . يجب أن أقابل الملك في أسرع وقت. .

فسرى اللغط بين المواطنين وتكاثر عدد المؤمنين بها، وتطوع اثنان من الفرسان هما نوفلبون وبرتران لمرافقتها لرؤية الملك. ووجد الحاكم نفسه أمام الأمر الواقع فأشرف بنفسه على إعداد العدة لرحيلها، فارتدت ثياب الفرسان وتدرعت بدرع المحاربين ومضى موكبها الصغير وسط هتاف الجماهير، فاجتاز أفراده ٢٢٥ كيلومتراً من المناطق التي يحتلها الانكليز دون أن يصيبهم أذى، وعبروا الحقول والغابات والأنهر الخطرة دون حادث، ووجد نوفلبون وبرتران في ذلك دليلاً على صدق جان وقداستها.

أنا لا أعرف الألف من الباء!

ووصل الموكب الى شينون حيث يقيم الدوفان في ٦ آذار (مارس) سنة ١٤٢٩، وذهب نوفلبون وبرتران إليه يلتمسون منه مقابلة جان دارك، وكان أمرها قد شاع وتناقلها الناس بين مصدق لرسالتها ومكذب لها، وبين من يقول بأنها قديسة تناجيها الملائكة ومن يزعم أنها ساحرة تأتمر بأمر الشياطين.

وكان شارل قد بلغ سن السادسة والعشرين وله جسم ضعيف وعينان صغيرتان متقاربتان، وكان يائساً شديد الارتياب، وقد عمت التعاسة جميع أفراد شعبه حتى وصلت الى قصره فنضب المال من خزانته وخزانة حكومته، وحار في أمره لا يدري ما يفعل ولا يجد لأزمته مخرجاً، وهو الذي يحب الطمأنينة والسلام، ويكره العيش المضطرب والخوف الدائم، وقد أقنعه مستشاره بأن معاهدة طيبة خير من عشرة انتصارات في ميدان القتال.

وكانت جان ذات جمال رائع ولكنه بنضارته وطهارته أشبه بجمال القديسات، لا يثير في النفس إلا الإكبار والخشوع. وكانت ذات بداهة وطلاقة وقوة بيان، فلم تلبث طويلاً حتى أقنعت الكثيرين بصحة رسالتها، فذاع اسمها ونبه شأنها وتناقل الناس قصتها معجبين، وصار لها أتباع ومريدون، مما حمل ولي العهد على الاهتمام بها، فطلب من رئيس أساقفة ريمس وعدد من رجال السياسة والدين، أن يتولوا فحصها لمعرفة حقيقة أمرها.

ونظرت الفتاة القروية ابنة السبعة عشر ربيعاً، إلى العلماء الذين أمطروها بأسئلتهم وقد التفوا حولها في ثيابهم المزركشة ولحاهم الطويلة، ثم قالت بسذاجة:

ـ أنا لا أعرف الألف من الباء، ولكني أعرف أني مرسلة من الله لتخليص أورليان من أنياب الغاصب وتتويج الملك في ريمس، فالمسائل التي تناقشونني فيها جهد ضائع بلا جدوى..

ـ إن الله يقضي بأن لا يصدقك حتى تجيئي لنا بمعجزة، فأين معجزتك؟

ـ إني لم آت إلى هنا لأقوم بمعجزات، أرسلوني إلى أورليان وأعطوني من الجند

كثيراً أو قليلاً ، وسوف ترون أني سأنتصر ، لأن الله يريد ذلك . .

وقد احتج أحد أعضاء الهيئة على ارتداء جان زي الرجال وتساءل عما إذا كان ذلك يتفق مع تقاليد الدين ، فأجابت بأنه لا ضرر من ارتـداء زي الرجـال لأنها تعيش بينهم ، والعدل يقضي بأن تتزيا بزيهم ما دامت تعمل معهم .

وكان قرار هذه الهيئة التي أعجبت بيقين الفتاة ورسوخ إيمانها ، أن جـان دارك فتاة متواضعة ، مؤمنة مخلصة ، ولا ينبغي للملك أن يمنعها من السـير إلى أورليان على رأس جيش مجهز لتحريرها من الحصار الذي بدأ يتحول إلى احتضار!

من جان دارك إلى ملك إنكلترا

وخرجت جان على رأس جيش صغير مؤلف من ثلاثمائة رجل بينهم عـدد من القادة الكبار مثل دوريه ودولافال ودولاميزون وبواتو ولاهير وكولان ، وانضم الى هذا الجيش وهو في طريقه إلى أورليان عدة مئات من المتطوعين الذين آمنوا برسالة عذراء اللورين وجاءوا وهم ينشدون الأناشيد الحماسية للقتال تحت لوائها .

وقد أشرفت بنفسها على تنظيم الجيش ورفع مستواه . وقضت على كل سفه في القول وخلاعة في السلوك ، ومنعت الغانيات من أن يتسكعن حول الجنود .

وتوقفت في مدينة بلوا عدة أيام لجمع المؤن والذخائر التي انهالت عليها من كل مكان ، وأمرت بصنع علم أبيض مزين بالزنابق الذهبية ليكون راية جيشها .

وبما أنها لا تعرف القراءة والكتابة فقد أملت على القس باسكيريل الذي رافق حملتها الرسالة االآتية :

«من جـان دارك الى ملك إنكلترا ، وإلى الـدوق بدفـورد الـذي يلقب نفسـه بالوصي على فرنسا من قبل ملك الانكليـز ، وإلى لورد سـافولـك وجون تـالبوت وجون توماس الذين يسمون أنفسهم وكلاء دوق بدفور .

إنني أدعوكم باسم ملك السموات أن تسلموني مفاتيح المـدن الفرنسيـة التي استوليتم عليها وانتهكتم حرمتها ، وأن تردوا إلى ملك فرنسا ما أخذتم من مملكته ، وأن تعودوا إذا رغبتم في السلام من حيث أتيتم .

وأنتم يا جنود الأعداء، يا من تحاصرون مدينة أورليان، أشرافاً كنتم أو من عامة الشعب، إنني أدعوكم للعودة إلى بلادكم، وإلا اقتلعتكم من حصونكم، وطهرت أرض فرنسا من رجسكم. فمن أطاع منكم فله مني الرحمة، ومن أبى وتكبّر فله الهلاك والدمار. واعلموا أن الله سوف ينصر حق ملك فرنسا على باطلكم، وأنه سيهب نفوسنا وأجسامنا من القوة ما لا قبل لكم على مقاومته».

ووصلت جان إلى أورليان في ٢٩ نيسان (أبريل) سنة ١٤٢٩ بعد متاعب كثيرة تغلبت عليها بالجرأة والنباهة وسرعة الخاطر، في حين كان أتباعها يرون في ذلك ضروباً من المعجزات، فخرجت المدينة لاستقبالها، وتزاحم الناس حولها، وخفقت قلوبهم معها. وقد بادرت إلى تسليم جان دورليان قائد حامية المدينة المؤن والذخائر التي كان في أشد الحاجة إليها، ثم شرعت لفورها في القتال لتحطيم الحصار الفولاذي الذي ضربه الانكليز حول المدينة.

وكان الانكليز قد ضحكوا ملء أشداقهم حين علموا بأن فتاة في السابعة عشرة من عمرها تقود الجيش الفرنسي الآتي لمحاربتهم، كما سخروا وهزأوا من الرسالة العنيفة التي تجرأت على توجيهها إلى ملك إنكلترا وكبار قادته، وبينما كان الفرنسيون يعتبرونها قديسة كان الانكليز ينصحونها بالعودة إلى قريتها لترعى الغنم ويرون فيها ساحرة يجب أن يقبض عليها وتحرق وهي على قيد الحياة!

كان نبأ وصول جان دارك الى أورليان قد ذاع في جميع أنحاء فرنسا، فأثار فيها حماسة عظيمة امتزجت فيها العاطفة الدينية بالعاطفة الوطنية، فتوافد الفرسان من جميع أنحاء البلاد للالتحاق بجيشها والقتال تحت لوائها. ولأول مرة منذ بدء الحصار، شهد الانكليز مقاومة فرنسية شديدة المراس تصمد لهجومهم وتقابله بهجوم مضاد، وكانت جان تتقدم المقاتلين وسيفها في يدها، وهي تلوح في اليد الأخرى بعلمها الأبيض ذي الزنابق الذهبية، فيزيد ذلك من شجاعة الفرنسيين وإقدامهم. وما هي إلا تسعة أيام من الكفاح الضاري حتى تحطم الحصار الذي طوق المدينة وكاد يقضي عليها، وخرج الأهلون إلى الحصون التي فر منها الانكليز، فحملوا ما فيها من الغنائم، ثم أحرقوها واحتفلوا على ضوئها بالانتصار العظيم.

ومن أطرف ما حدث أنها أرادت مواصلة القتال يوماً لمطاردة الانكليز من حصن تخلوا عنه إلى حصن اعتصموا فيه، كي لا تدع لهم فرصة للراحة والاستعداد للمقاومة من جديد، فذكرها القواد بأن اليوم التالي هو يوم الأحد وأن الله لا يسمح بإراقة الدماء فيه، بل يجب الاختلاف فيه الى الكنائس لإقامة شعائر الدين، فأجابت أن أفضل صلاة تقدمونها إلى الله هي محاربة المغتصبين وطرد العدو من أرض الوطن، وأضافت: «أنا أحب الصلاة، ولكن الانكليز لا يقهرون بالصلوات ولا يفهمون غير الضرب الموجع، ولن أذهب إلى الكنيسة حتى أغلبهم». .

وذات مرة كان القادة الكبار يرون أن جان تريد أن تزج بنفسها في معركة خاسرة، لإصرارها على اقتحام حصن «تورنيل» أقوى حصون الأعداء مناعة، فقد كان الفرنسيون يقاتلون بالسيوف والحراب، والانكليز يستخدمون كتل الحديد والحجارة لتحطيم كل سلم يضعه الفرنسيون على أسوار الحصن ويحاولون ارتقاءه للوصول إلى قمته، فإذا أخفق الحديد والحجارة في تحطيم السلم ومن عليه، سكبوا القطران المغلي والرصاص المصهور على رؤوس المهاجمين. . . فامتنع القادة الفرنسيون الكبار عن الاشتراك في هذه المعركة، ثم اضطرتهم حماسة الجند المحيطين بجان إلى الالتحاق بها، وهي تهتف ببني وطنها للإقدام والاستبسال، وتسبقهم الى أحد السلالم فترتقيه، وإذا بها تصاب بسهم في كتفها وتقع في الخندق وقد سال منها دم غزير، وتسابق الانكليز والفرنسيون في الوصول إليها.

وقال مارك توين في كتابه عنها: «دار القتال حولها على أيهم يستولي عليها، وفي الواقع على فرنسا، لأن جان في تلك الدقائق القليلة كانت هي فرنسا بالنسبة للفريقين، فمن استولى عليها فقد استولى على فرنسا إلى الأبد. . وكانت تلك الدقائق العشر أهم الدقائق التي دقتها الساعة في تاريخ فرنسا كله في الماضي وفي المستقبل.

وقد استطاع الفرنسيون إنقاذها قبل وصول الأعداء إليها للإجهاز عليها، فحملت بعيداً عن ساحة القتال، حيث عمدت إلى السهم فانتزعته بيدها، وجاء من مسح الجرح بالزيت فخفف ألمها قليلاً. ثم جاء القائد دنوا فطلب منها العودة إلى المدينة. وأبلغها أن الأوامر قد صدرت إلى الجند بالانسحاب لتعذر الاستيلاء على

الحصن، فاستردت الفتاة شجاعتها ونهضت بكل وعيها ووثبت إلى ظهر جوادها، ولم تستطع حمل علمها من جراء الألم فعهدت به إلى أحد جنودها، ثم مضت إلى حيث يقف القادة وطلبت إليهم أن يدعوا الجند يقاتلون بعد قليل من الراحة، لأن الحصن سيسقط في أيديهم لا محالة، ولكن القادة كانوا قد يئسوا من هذه المعركة فرفضوا طلبها.

وحدث خلال ذلك أن بدا للفارس دولون وهو أحد أتباع جان، أن الجنود إذا رأوا علم جان تجددت شجاعتهم واستعادوا حماستهم للقتال، فدنا من حامل العلم وطلب منه أن يتخلى له عنه، ولكن الجندي كان فخوراً بحمله فرفض ذلك، ثم اتفق الاثنان على الهجوم نحو الحصن وهما يرفعان العلم معاً، فما كاد الجند يشاهدون راية جان دارك حتى ارتفعت هتافاتهم واندفعوا وراءها نحو الحصن، وهرعت جان بدورها الى جوادها فامتطته وشقت به طريقاً إلى حيث العلم، فحملته برغم ألمها ولوحت به فوق رأسها وهتفت:

ـ إلى الأمام أيها الأبطال.

فلم يبق في المعسكر أحد لم يلحق بها مستجيباً لندائها، إذ كان لظهورها ثانية في ساحة المعركة بعدما عرف الجميع بإصابتها، فعل السحر في الجند والقادة على السواء، فأقبلوا على القتال بحماسة منقطعة النظير، وما هي إلا ساعة حتى قتل اللورد غلاسديل قائد الحصن، ودب اليأس في قلوب جنوده فأخذوا يلوذون بالفرار، قائلين إن الساحرة قد عادت إلى الحياة بعد مصرعها. وارتفع العلم الأبيض ذو الزنابق الذهبية على قمة الحصن!

مكافأتي طرد العدو من أرض الوطن

وكان لهذا الانتصار الصاعق أثره في رفع معنويات الفرنسيين وانهيار معنويات الانكليز، وانتقلت جان الى تور حيث كان ولي العهد في انتظارها، وقد استقبلها استقبال الملكات، وسألها أن تطلب منه، ما شاءت وهو الكفيل بتحقيق طلبها، فبكت الفتاة لأنه حدثها عن المكافأة التي تريدها وقالت له:

ـ يا ولي العهد الكريم... ليس لي من رغبة في هذه الدنيا إلا أن نتابع انتصارنا

على الغاصب، وألا نقعد عن متابعته يوماً واحداً حتى يخرج من أرض الوطن، فهيا بنا إلى ريمس حيث نقضي مراسم تتويجك ملكاً شرعياً على البلاد.

ولكن مستشاري الملك اقترحوا تأجيل مراسم التتويج حتى يتم تطهير حوض اللوار من الانكليز، لأن موكب الملك سيمر به فيتعرض للخطر، فانطلقت جان مع جيشها وقادته الكبار الذين أكبروا شجاعتها وآمنوا برسالتها، وضربت الحصار حول الانكليز في مدينة جارجو.

وبعد قتال عنيف اندفعت جان نحو أسوار المدينة، وعلمها في يدها، ثم وضعت سلماً على الجدار عند أكثر أجزائه احتشاداً بالأعداد، وبدأت تصعد درجاته وهي تدعو الجنود إلى اللحاق بها، وعرفها الانكليز فأخذوا يقذفونها بالحجارة فأصابت إحداها رأسها وتحطمت على خوذتها، فوقعت على الأرض وقد تضعضعت قواها، ولكنها سرعان ما استجمعت عزيمتها فنهضت وصرخت:

- إلى الأمام يا رفاقي! تقدموا إلى الأمام فالقلعة لنا في هذه الساعة!

وصعدت السلم من جديد ولحق بها جنودها، فاشتبك الفريقان في معركة ضارية قتل خلالها اللورد سافولك قائد الحامية الانكليزية وقتل أخوه ألكسندر، فشرع الجنود الانكليز بالهرب والفرنسيون يطاردونهم، وسرعان ما احتل هؤلاء المدينة.

وترامت أنباء الهزائم الانكليزية إلى كل أنحاء فرنسا فابتسمت بعد عبوس وعاودها الرجاء بعد القنوط، وانهالت النجدات على شارل السابع من كل صوب، وكان يبعث بها جميعاً إلى أورليان لتنضم إلى جيش جان ومساعدها الدوق دالنسون، وواصل هذان زحفهما فكانت المدن تتساقط أمامهما. وكان القادة الانكليز يخلونها دون قتال. ولما انضمت قوات الكونت دوريشمون إليهما، بات الجيش الفرنسي يؤلف قوة قتالية كبرى، فاشتبك مع الانكليز بقيادة لاهير على مقربة من قرية لاكوانيه وغاباتها الكثيفة، فهزمهم هزيمة منكرة ارتدوا معها إلى مدينة جانفيل للاحتماء بأسوارها، ولكن أهل المدينة أغلقوا أبوابها في وجوههم، فاستولى عليها الفرنسيون دون قتال، وبدأ الانكليز يحرقون حصونهم ويتخلون عن مواقعهم ويتراجعون الى باريس.

وعادت جان إلى بلاط الملك، وكان قد انتقل إلى سوللي سور لوار، وقد

اصطحبت معها الكونت دوريشمون الذي قبلت انضمامه الى جيشها على الرغم مما تعرف عن خلافه مع الملك، فأصلحت بينهما، وكأنها كانت تعمل بذلك من أجل مستقبل فرنسا، فإن دوريشمون هذا هو الذي أتم عمل جان دارك بعد موتها وأكمل تحرير بلاده من الاحتلال. ثم انتقلت مع الملك الى جيان، وراحت تلح عليه بأن يرافقها إلى ريمس لتتويجه ملكاً على فرنسا كما توّج آباؤه وأجداده من قبل. فتزداد هيبته في قلوب الفرنسيين، وتتضاعف الرهبة منه في قلوب الإنكليز.

وحاول الملك تأجيل هذا الاحتفال حتى تحرير مقاطعة نورمانديا، لأن موكب الملك سيمر في طريقه إلى ريمس بمناطق لا يزال الانكليز يسيطرون عليها، ولكن جان أصرّت على أن يتم التتويج أولاً ومعركة نورمانديا بعد ذلك، لأنها كانت تشعر بأنها لن تعيش طويلاً، وأن عليها إنجاز مهمتها بكاملها، وقد أنجزت الشطر الأول منها بتحرير أورليان وعليها إنجاز الشطر الثاني بتتويج الملك قبل أن تلبي نداء ربها.

أنهيت مهمتي فدعوني أعود إلى قريتي

وأمام إلحاح جان دارك وما تجلى من إيمانها وطهارتها، وحماستها في أداء رسالتها، وافق الملك على طلبها واتجه موكبه نحو ريمس، وتولت جان قيادة الجيش الذي يواكبه ويحميه، وكانت تسير إلى يمينه والدوق دالنسون إلى يساره، ومر الموكب بمدينة تروا الشهيرة التي عقدت فيها المعاهدة التي أضاعت فرنسا، فحاولت الحامية الانكليزية فيها اعتراض طريقه، فصدتها جان وضربت الحصار على المدينة، ولكن مرت ستة ايام دون ان تستسلم تروا، ونفدت مؤونة الجيش حتى اضطر الى السطو على الخضار في حقولها، وجعل مستشارو الملك يدعونه للرجوع إلى ما وراء نهر اللوار، فسأل لاماسون رئيس وزرائه السابق عن رأيه، فأجاب بأن الملك عندما بدأ هذه الرحلة لم يعتمد على قوة رجاله قدر اعتماده على معونة الله، وثقته بجان دارك، ودخلت جان في تلك اللحظة وقالت للملك:

ـ إن لمستشاريك والله رأياً أسدّ وأحكم!

وسألها عما تعنيه بذلك، قالت إن المدينة سوف تستسلم خلال يومين. فقال الملك:

ـ وكيف نتأكد من ذلك؟
فقالت: حسبي أنني حتى الآن لم أقل إلا صدقاً!

فاقتنع الملك وقرر البقاء ومضت جان فحشدت جيشها حول المدينة، وغرست علمها الأبيض على مقربة من السور.

وكان أهل المدينة يراقبون جان من سطوح منازلهم ويتابعون حركاتها، فلما شاهدوا علمها تولاهم الرعب لما شاعت عنه من أساطير، فمن قائل إن الملائكة هي التي تحميه، ومن قائل إن الشياطين تمد المقاتلين في ظله بقوة خارقة، وزعم أناس أن سرباً من الفراشات اجتمع حول العلم، وما زالت هذه الفراشات تتكاثر حتى تألفت منها سحابة بيضاء. فتألف وفد من السكان، وذهب لمقابلة الحامية الانكليزية وقال لقائدها إن المدينة ترفض مواجهة قديسة بالقتال، وتطلب منكم إخلاءها.

وكان رجال الحامية ينتظرون مثل هذه البادرة للتحرر من عبء المعركة، بعدما عرفوا مصائر المدن التي قاومت وهزمت، لا سيما وأن المدد الذي ينتظرونه من باريس لم يصل في الوقت الذي يأملون. فوافقوا على مطلب الوفد ودعوه إلى التفاوض مع الملك على شروط التسليم. وشاهد الملك ورجاله باب المدينة يفتح ويخرج منه وفد من وجوهها يتقدمه أسقفها، ودنا الوفد من الملك وسأله أن يرفق بالمدينة ويمنحها أيسر الشروط للاستسلام. وتم الاتفاق على تسليم المدينة مقابل السماح لجنود الحامية بحياتهم وما يملكون. وفي صباح اليوم التالي غادرت الحامية الانكليزية المدينة من أحد الأبواب، بينما كان موكب الملك يدخلها من باب آخر. وعادت مدينة تروا فرنسية مرة أخرى، وكذلك كان شأن مدينتي شالون وسو، وكان ذلك دليلاً باهراً على ما أصاب الانكليز والبوغونيين من فزع وخور أمام اسم جان دارك.

وهكذا بلغ موكب الملك مدينة ريمس التي استقبلته بالزينات والرايات، وأقامت له أقواس النصر، واحتشد الناس في الطرقات وعلى النوافذ والأسطحة وهم يتلهفون لرؤية جان أكثر من حماستهم لرؤية الملك. وبدأ الاستعداد لحفلة التتويج في كاتدرائية المدينة حيث توج كل ملوك فرنسا السابقين، تقيداً بأسطورة تزعم أن القديس ريمي الذي توج هناك الزعيم كلوفيس ملكاً على فرنسا قبل تسعمائة عام،

قد حمل إليه طائر من السماء قارورة من الزيت المقدس مسح به على رأس كلوفيس وبات على جميع خلفائه من بعده أن يدهنوا عند تتويجهم بهذا الزيت.

وقد وقفت جان الى جانب شارل السابع وعلمها في يدها وهي في لباس فاخر جميل ولكنه لباس رجل لا أنثى كعادتها منذ غادرت قريته، فتوج وتسلم الصولجان من كبير الأساقفة وسط الأهازيج الشعبية والأناشيد الدينية، فتركزت بذلك دعائم عرشه، وزال كل شك في شرعيته، فتنفست عذراء أورليان الصعداء، ثم ركعت أمام الملك وقبلت ركبته وقالت:

ـ أيها الملك العظيم، الآن وقد تحققت إرادة السماء وأصبحت ملك فرنسا الشرعي وسيدها الأوحد، فقد أديت مهمتي، فاسمح لي بالعودة إلى قريتي المتواضعة لأحيا مع أفراد أسرتي حياتي البسيطة غير راجية جزاء ولا شكوراً، فإن أمي امرأة مسنة وهي محتاجة إليّ.

فأنهضها الملك بيده وقال لها:

ـ إن كل ما أنعم به يا جان هو من صنعك، وأنت هنا تأمرين ولا تلتمسين.

ثم طلب منها مرافقته الى كوربيني لأداء الصلاة في كنيسة القديس مركول حامي أسرته الملكية، فلم تستطع رفض طلبه. وكانت الجموع الكثيفة تملأ الطرقات التي يمر بها الموكب لرؤية جان والتبرك بها والهتاف لها، في حين كانت الفتاة تشعر في أعماقها بأن مهمتها قد انتهت وبات عليها العودة في أقرب وقت إلى قريتها.

الموت ولا الوقوع في أسر العدو

وكان قادة الجيش قلقين لرغبة جان في الرحيل. إذ تأكد لهم أنها غدت روح هذا الجيش وسر وحدته وقوته وانتصاره، وقرروا العمل على إبقائها معهم حتى ينتهي هذا الجيش من تحرير بقية المقاطعات الفرنسية وباريس بنوع خاص، ثم أطلعوا الملك على قرارهم وطلبوا منه مساعدتهم في ذلك، فهم لا ينسون كيف تغيرت بها قلوبهم وما حققوا بفضلها من انتصارات وملاحم انتهت بتتويج الملك، فاستدعاها شارل السابع إليه وصارحها بالأمر، وأبدى لها رغبة الجيش الذي غدت ملاكه الحارس

ويخشى أن يأفل نجمه ويفقد حماسته إذا تخلت عنه.

وحارت الفتاة في أمرها، ثم لم تجد بداً من الطاعة حباً بالجيش الذي رفعها إلى مصاف القداسة.

وفي هذه المرة سار الملك بنفسه على رأس جيشه الكبير وإلى جانبه جان دارك، فقوبل في كل مكان بالترحاب والولاء، واستسلمت له في طريقه الى باريس كل من فيلي وشاتو تيري وكريسي وسواسون وبروفان، وغدا على مقربة من العاصمة الفرنسية حيث يحتشد الجيش الجديد الذي أرسل من إنكلترا برفقة كردينال ونشستر.

كان يكفي في المعارك السابقة أن تلوّح جان بعلمها حتى يندفع الجند وراءها ويحققوا المعجزات، ولكنها في هذه ا لمعركة كانت قد فقدت الإيمان وإن لم تفقد الأمل، فهي مقتنعة بأن مهمتها قد انتهت ورسالتها قد تحققت، وما تقوم به الآن إنما هو جهد خاص لا شأن به للأصوات التي ألهمتها ووجهت خطواتها.. ومن هنا لم يعد لصوتها تلك الحرارة السابقة، ولم يعد لها تلك الثقة الماضية بأن كل خطوة تخطوها إنما هي خطوة مظفرة لأنها مؤيدة من الله.

وأثناء الهجوم على باريس كانت جان على رأس فرقتها في مقدمة الهجوم، ولكنها ما إن تجاوزت الاستحكامات الأولى حتى وجدت أمامها خندقين متتابعين يجب اجتيازهما لبلوغ الأسوار، فنجحت مع بعض رجالها البواسل في اجتياز الخندق الأول، ولما همت باجتياز الثاني وهو أكثر عمقاً وامتلأ بالماء؛ أصابتها قذيفة في فخذها ألقت بها على الأرض وطوّحت بعلمها بعيداً، فأمرت أحد الجند بحمله والتلويح به من أعلى مكان ليعرف الجميع أنها لم تمت، فأصيب الجندي إصابة قاتلة، وجاء دولون فأراد حملها إلى المؤخرة ولكنها رفضت مغادرة ساحة المعركة، وطلبت منه أن يرفع العلم ويهيب بالجنود إلى الهجوم... وقد استطاعت انتزاع الشظية من فخذها، وظلت تراقب رجالها وتوجههم وتشجعهم حتى جاء القائدان دالنسون وجانكور فحملاها قسرا خارج المعركة وهي تصيح بالجميع:

ـ يجب أن نأخذ باريس أو نموت دونها!

وكان الملك قد أمر بالانسحاب إلى سان دنيس، فقيل له هناك إن جان كانت تسعى إلى الموت بنفسها وقد بذلت كل جهد لكي تقتل، فزارها وهي فريسة الحمى ولامها على مجازفتها بحياتها، فأجابت بأنها كانت تسعى إلى الموت حقاً لأنهالا تريد الوقوع أسيرة في أيدي الانكليز، فشجعها شارل السابع وقال لها إنه يفتديها إذا أسرت بنصف مملكته، ووعدها بأن يسمح لها بالعودة إلى قريتها متى شفيت.

فما كادت تتماثل للشفاء ويندمل جرحها، حتى حزمت درعها وخوذتها وأسلحتها وأرسلتها الى كنيسة سان دنيس لتظل وديعة فيها، ثم ذهبت إلى الملك تستأذنه في الرحيل، ففاجأها بقوله إنه لم يعدها بالسماح لها بمغادرة الجيش إلا لتشجيعها على الشفاء. وأن الجيش لا يستطيع التخلي عنها لأنها روحه النابضة ومصدر إلهامه، وفي ابتعادها عنه قضاء عليه، وألح عليها بوجوب البقاء معه ! وضاعف عدد أتباعها، ومنحها لقباً نبيلاً، وكان أخوها بيير قد التحق بحاشية الملك فسمح لها باستدعاء أخيها الثاني وضمه إلى الحاشية.

البورغوتيون يبيعون جان دارك للإنكليز

وكان فيليب دوق بورغونيا وحليف الانكليز قد خدع الملك بمصالحة صورية واتفاق ودي عقدهما معه وشجع على عقدهما مستشار الملك لابولاي، ويقضي الاتفاق بانسحاب جيش الملك من باريس مقابل وعد بأن تستسلم اليه بعد ذلك دون قتال. فلما أرادت جان مواصلة الهجوم، رأت أن الجيش قد تلقى أمراً بالتوقف عن القتال، والتراجع إلى مدينة جيم.

ولم يكتف الملك بذلك بل عمد إلى تسريح الجيش، بينما كان العدو لا يزال رابضاً في عاصمة المملكة، وهو يستجمع قوته ويلم شعثه لخوض المعركة من جديد.

وحارت جان دارك في أمرها، فقد كانت ترغب في الانفصال عن الجيش والعودة إلى قريتها، على أساس أن هذا الجيش سيواصل مهمته في تحرير الوطن من الاحتلال الأجنبي، أما وأن الجيش قد حيل بينه وبين تحقيق هذه المهمة المقدسة فإن فكرة العودة الى قرية دومريمي صارت تعني ترك الساحة الوطنية خالية من أي مقاومة، فأخذت تجتمع سراً بقادة الجيش، وتدعوهم إلى الاشتراك معها في مقاتلة العدو حتى

وإن كان الملك يرفض ذلك، فلم يوافق على خطتها سوى القائد الشجاع دوق دالنسون.

وانطلقت على أثر ذلك في حرب غير نظامية، فألفت العصابات الوطنية وشرعت تغير بها على العدو، ووصلت في غاراتها الى مدينة لاني التي كانت تسيطر عليها قوة بروغونية فهاجمتها وانتصرت عليها وأسرت قائدها فرنكيه داراس وسلمته إلى أهل المدينة فشنقوه فيها، وانضم عدد منهم إليها.

وعلمت هي في لاني أن رجال الحامية الفرنسية في مدينة كومبيني بقيادة فوفلافي يتعرضون لهجوم عنيف من قبل دوق دوبورغونيا، فسارت لنجدة انصار الملك هناك، واستطاعت دخول المدينة مع جندها دون أن يشعر بها البورغونيون. ثم فتحت باب المدينة في اليوم التالي وخرجت مع أفراد فرقتها لاقتحام الحصار، فاشتبكوا مع الأعداء في قتال باسل، إلا أن هؤلاء كانوا يفوقونهم عدداً فاضطروا إلى التراجع. وأرادت جان أن تحمي حركة الانكفاء بنفسها، فظلت في مؤخرة الفرقة، وما أن وصل أتباعها الى الجسر الذي يؤدي الى باب المدينة حتى شاع الاضطراب بينهم بسبب تسابقهم إليه طلباً للأمان، وأرادت جان ان تهيء لهم الوقت الكافي للانسحاب فشاغلت العدو مع بعض رجالها في معركة عنيفة، ولكنها ما كادت تلوي عنان جوادها لتعود الى المدينة حتى رأت أن الجسر قد رفع من فوق الخندق ولم يعد لها من سبيل إلى بلوغ باب المدينة، وعلى الرغم من صياحها برجال الحامية لإنزال الجسر، فإن أحداً لم يفعل ذلك ولم يخف أحد لنجدتها.

ومن المؤرخين من ذهب إلى أن دوفلافي قد خانها وباعها لأعدائها، فرفع الجسر من فوق الخندق لتقع بين أيديهم فريسة سهلة، ولكن المؤرخ أندرو لانغ ينفي في كتابه عنها، تلك التهمة عن القائد الفرنسي، ويؤكد أن الحامية الفرنسية كانت تعد خمسمائة مقاتل في حين كان البورغونيون المحيطون بالمدينة يزيدون على خمسة آلاف، ولو ترك الجسر فوق الخندق لعبره هؤلاء واجتاحوا المدينة، وكان واجبه يقضي عليه بحمايتها منهم.

أخذت جان دارك تقاتل بيأس مع حفنة من رجالها، بينما كان الأعداء يتكاثرون

من حولها ويضيقون عليها الخناق، فسقطت عن جوادها إلا أنها ظلت تقاتل حتى خارت قواها. ووقعت أسيرة في أيدي البورغونيين في ٢٣ أيار (مايو) سنة ١٤٣٠، فسارعوا الى تكبيلها بالسلاسل في انتظار رسالة من شارل السابع تطالب بها وتعلن استعدادها لدفع فديتها، ولكن الملك الذي توجته جان دارك وحققت شرعيته وقال لها ذات يوم أنها إذا وقعت في الأسر افتداها بنصف مملكته، تجاهل أمرها وتناساها تماماً. مبرراً هذا التجاهل بأنها كانت تحارب دون موافقته على رأس عصابات غير نظامية وليس على رأس الجيش الفرنسي، فضلاً عن أن أعوانه النافذين وفي مقدمتهم لاتريواي كبير مستشاريه ورينو دوشارتر كبير الأساقفة، قد شعروا بالارتياح للتخلص من جان دارك لأن وجودها في البلاط أكبر هادم لنفوذهم وفاضح لدسائسهم ومعارض لسياستهم الرامية إلى التعامل مع الانكليز بالملاينة والمفاوضة لا بالصدام والقتال.

وشرع الانكليز الذين اعتبروا أسر جان دارك نصراً عظيماً لهم يطالبون القائد جان دولكسمبورغ بتسليمهم أسيرته وهو يرفض ذلك في انتظار رسالة من الملك، فأوعزوا إلى بيير كوشون أسقف بونيه الممالىء لهم بأن يطالب بجان ويشرف على محاكمتها بوصفها ساحرة خطرة تدعي القداسة، لأنها أسرت في منطقة نفوذه، فأراد أن يستطلع بهذا الشأن رأي أساتذة اللاهوت بجامعة باريس، وكان معظم هؤلاء الأساتذة من الموالين للانكليز، فجاء ردهم بأنه ما دامت جان قد اعتقلت في أبرشيته فهو إذن صاحب الحق في المطالبة بها ومحاكمتها. وفي الوقت نفسه تسلم الكونت جان دولكسمبورغ رسالة ثانية من القيادة الانكليزية تطلب منه تسليمه الأسيرة مقابل عشرة آلاف جنيه، وهي الفدية المقررة عهد ذاك للأمراء والقادة الكبار.

وأمام توسلات زوجته وأخته اللتين زارتا جان في سجنها وآمنتا بقداستها وطهارتها، ظل الكونت يماطل ويسوف طوال خمسة أشهر في انتظار بادرة في هذا الشأن تصدر عن الملك شارل السابع، دون أن تصدر تلك البادرة عن الرجل المدين لبطلة أورليان بتاجه وملكه وكل مجده. وحدث أن حاولت جان الانتحار بإلقاء نفسها من سجنها في الطابق الثالث، فخشي الكونت أن تموت أسيرته فيفقد قيمة الفدية، فبادر إلى استلام المبلغ المتفق عليه من دوق بدفدورد بكامله، ونقلت جان

إلى مدينة روان حيث سجنت في القلعة، وهي معقل الاحتلال الانكليزي فيها الجند والعتاد وفيها السلطة والجبروت، وكبلت بالسلاسل داخل قفص من حديد، وسمح للناس بالتفرج عليها كأنها حيوان غريب!

لم يعدم الانكليز جان دارك بعدما اشتروها بالمال، لأنهم كانوا حريصين على تلويث اسمها وتشويه سمعتها وإلصاق تهمة السحر بها، كي يقول التاريخ إن الفتاة التي هزمتهم كانت ساحرة ولم تكن قديسة. وكان يهمهم أن يصدر الحكم عليها من قبل محكمة فرنسية، ومن الكنيسة الفرنسية بالذات، فسلمت في ٣ كانون الثاني (يناير) سنة ١٤٣١ الى أسقف بوفيه بيير كوشون، لمحاكمتها بتهمة الشعوذة، والهرطقة وممارسة السحر، وعهد إليه بأن يتولى اختيار هيئة المحكمة على أن يكون هو رئيساً لها. ولما كانت التهم الموجهة إليها تمس الدين، فقد كان لا بد من ان يكون أعضاء الهيئة من رجال الدين.

وقد اختار بيير كوشون بموافقة الانكليز خمسة وتسعين شخصاً من رجال القانون ورؤساء الأديرة هيئة المحكمة، إلا أنهم لم يكونوا يحضرون كلهم جلسات المحاكمة، بل كان يختار لكل جلسة عدداً يراوح بين ١٤ و١٦ قاضياً، باستثناء جلسة ٢٢ شباط (فبراير) التي حضرها ٤٨ قاضياً. وكان القصد من ذلك إرباك القضاة، وتشابك الأقوال والدفوع، بحيث ينتهي الموضوع إلى ما هو مبيت له من قبل.

ومع أنه كان من حق المتهمة أن توكل من يدافع عنها من رجال القانون، فقد حرمت من هذا الحق بحجة أن الذين يحاكمونها أخلص الأصدقاء لها، وأحرصهم على نجاة روحها وتطهير نفسها، وإعادتها إلى كنف الكنيسة عودة فتاة ضالة إلى كنف أم تحبها وتحميها. كما رفضت المحكمة الاستماع الى الشهود الذين أرادت منها الاستماع اليهم، وطلبها بإضافة قضاة من المنطقة الفرنسية غير المحتلة من قبل الانكليز إلى هيئة المحكمة.

وكان القضاة الرئيسيون في المحكمة رئيسها بيير كوشون أسقف بوفيه، والكاهن جون ديستيفيه مندوب ديوان التفتيش، والأخ جون لاميتر الذي ينوب عن المحقق

الأعظم في شؤون البدع وضررها بفرنسا ويمثل في هذه القضية دور قاضي التحقيق، بالإضافة إلى القس الانكليزي جون دواستوجمبر مندوب كردينال ونشستر.

وقبل موعد المحاكمة أوفدت هيئة المحكمة بعثة خاصة الى قرية دومريمي لجمع المعلومات منها ومن القرى المجاورة لها، عن نشأة جان وسيرتها وأعمالها، لعلها تجد بعض المآخذ التي تؤيد الاتهامات الموجهة ضدها، ولكن اللجنة لم تحصل إلا على شهادات وتقارير تطري سيرة الفتاة وتثني على صلاحها وتقواها، فعدلت الهيئة عن الاستماع إليها أثناء المحاكمة، إلا أن المؤرخين عمدوا إلى نشرها فيما بعد.

وقد بدأت المحكمة أعمالها في ٢١ شباط (فبراير) في كنيسة القلعة، فتليت رسالة موجهة من هنري السادس ملك إنكلترا إلى رئيس المحكمة أسقف بوفيه باعتبار ان المحاكمة تجري في مقاطعة تابعة له، وقد جاء في هذه الرسالة: «إن فتاة تلقي ملابس بنات جنسها وترتدي زي الرجال، تخالف القوانين السماوية، فضلاً عما قامت به من حمل السلاح والقتال وارتكاب الكثير من الأعمال الوحشية التي سفكت فيها دماء الأبرياء، كما أنها أغرت الرجال وأفسدت عقول الناس وسممت أفكارهم، بأن جعلتهم يعتقدون بأنها مرسلة من الله، وأنها تعرف الأسرار السماوية المقدسة. ولما كانت هذه الفتاة تشجع الناس على الإيمان بالخرافات والمبادىء الخاطئة، وهذه جرائم خطيرة تنطوي على الخيانة العظمى لله، فإنا نأمركم باستجوابها عن هذه التهم، ومحاكمتها على هذه الجرائم، وفقاً للقوانين الدينية».

ثم استدعيت جان إلى القاعة فجاءت وهي تجر سلاسلها، ووقفت امام قضاتها منتصبة القامة كأنها مثال للإيمان والطهارة، وكانت ترتدي ثوباً قاتماً من ثياب الرجال، فساقها الجلاد وأعوانه الى مقعدها وحلوا القيد عنها ثم وقفوا وراءها، وكانت تبدو عليها آثار التعب ولكنها لا تزال تحتفظ بحيويتها ورباطة جأشها.

وقد ألقى جان دستيفيه النائب العام ومندوب ديوان التفتيش، لائحة التهم الموجهة إلى المتهمة، وهي الهرطقة وممارسة أعمال السحر والشعوذة، مستنداً إلى

أقوالها عن الأصوات التي كانت تخاطبها والرؤى التي كانت تتجلى لها، مؤكداً أن علمها كان أداة سحرها، دون أن يتحدث عن طهارتها واستقامتها والدور العظيم الذي مثلته في خدمة وطنها. وكانت التهم الموجهة إليها في الأصل ٦٤ تهمة ثم خفضت إلى ١٢، بعد التخلي عن تهم صغيرة أو غير مؤيدة مثل قولها إن الأصوات تخاطبها باللغة الفرنسية لا باللغة الانكليزية، واتهامها بسرقة حصان أسقف سنليس، ورقصها في طفولتها حول شجرة للجن مع أطفال القرية، وصلاتها على بئر مسكونة، وغيرها من صغائر الذنوب.

ولما انتهت الجلسة الأولى وهمّ الحرس بإعادتها الى سجنها، شكت للرئيس ثقل أغلالها والتمست رفعها عنها، إذ لا داعي لها وهي في حراسة مشددة وفي سجن مظلم، وتساءلت لماذا تبقى في سجن الانكليز والواجب أن تكون في سجن الكنيسة، ولكن كوشون تجاهل هذا السؤال ورفض إجابتها إلى طلبها برفع الأغلال عنها، مذكراً إياها بأنها حاولت الهرب مرتين، فقالت:

- حقاً لقد حاولت الهرب ولا أزال أحاوله!
- إن هذا اعتراف بالزندقة ألفت إليه نظر هيئة المحكمة.
- هل أكون زنديقة لأني حاولت الهرب من السجن؟
- بدون شك... إذا كنت في يد الكنيسة فحاولت عمداً أن تفلتي منها، فأنت إذن تهربين من الكنيسة، وهذه زندقة!
- هذه سخافة بالغة لا أظن أحداً تبلغ به الغباوة إلى حد تصديقها.

ما تقولينه يكفي لحرق عشرة من الزنادقة

وعقدت الجلسات التالية في مكان آخر من القلعة، لأن الكنيسة لم تتسع لجميع الراغبين في حضور المحاكمة، وكان الانكليز قد دسوا بين هؤلاء عدداً من المأجورين لمهاجمة جان والتحريض عليها، وكان يتناوب على استجوابها الرئيس حيناً والمستشار بوبير حيناً آخر، وكان هذا من أعلام عصره المعروفين بالنباهة والحيلة وقوة العارضة.

وقد طلب منها الرئيس أن تقسم على أنها ستقول الحق في كل ما تسأل عنه،

فرفضت ذلك قائلة إن هناك أموراً تتعلق بملك فرنسا ولا يجوز أن يعرفها أعداؤه، فدعاها الى أن تقسم على قول الحق فيما يختص بالدين الكاثوليكي فأقسمت.

وقيل لها هل تسلم أمرها للكنيسة، فـردت أنها ستطيـع الكنيسة مـا دامت لا تأمرها بالمحال، فقيل لها وهل تأمر الكنيسة بالمحال، فقالت إذا أمرني أحـد رجال الكنيسة أن أعلن أن الذي قلته وفعلته ورأيته لم يكن مأتاه من الله،فهو إنما يسومني المحال، ولن آبه له وإنما آبه لله وحده ولأمره وحده أطيع. فاعتبر كلامها تجديفاً، وقال كوشون:

ـ أيتها المرأة، إن الذي قلته يكفي لحرق عشرة من الزنادقة!

وسئلت عن مسقط رأسها وعمرها وما تلقته من علوم، فأجابت بأنها ولدت في دومريمي، وعمرها تسعة عشر عاماً تقريباً، ولم تذهب قط إلى المدرسة:

ـ لقد تعلمت صلاتي وعقيدتي من أمي، ومنها تعلمت كل ما أعلم.

وطلب منها أن تروي قصة الأصوات التي كانت تسمعها، فـأجابت أن ذلـك حدث وهي في الثالثة عشرة من عمرها، وكان الصوت يدعوها إلى إنقاذ وطنهـا. ولما بلغت سن السابعة عشرة أمرها بالذهاب إلى أورليان لرفع الحصار عنها وتتويج الملك في كنيسة ريمس.

(أصوات تتعالى في القاعة: هرطقة... شعوذة... زندقة).

ـ وكيف حدث أن كان علمك أقرب الأعلام إلى الملك في حفلة التتويج؟

ـ لقد حمل رجالي وطأة القتـال كله، فكان من العـدل أن يتقدم علمي سـائر الأعلام في موطن الشرف.

ـ أيهما كان مبعث الأمل في النصر، أنت أم علمك؟

ـ كان إيماننا بالله مصدر آمالنا جميعاً.

ـ هل كان رجالك يؤمنون بأن الله أرسلك؟

ـ إذا كانوا قد آمنوا فإنني لم أخدعهم.

ـ ألم تقولي لجنودك أن كل علم يشبه علمك يكون التوفيق حليفه؟

ـ كل ما قلته لهم: اصرعوا الانكليز واسحقوهم! وهذا ما كنت أفعله بهم أنّى

وجدتهم.

ـ هل يمقت الله الانكليز؟

ـ لا أعلم إذا كان يحبهم أو يكرههم، ولكني أعلم أنهم سيطردون من فرنسا، ولن يبقى منهم في أرضها غير قتلاهم!

أنت وثنية لأنك ترتدين ثياب الرجال

وتتابعت الأسئلة على هذا الغرار في الجلسات المتتابعة، فقال لها الرئيس:

ـ إن أقوالك عن الرؤيا والوحي لا تزيد على أن تكون خرافات وأكاذيب مفسدة للعقول، وهي ولا شك صادرة عن الشياطين. وقد علمنا أنك كنت تخرجين مع أترابك الى غابة قريبة من دومريمي وترقصين معهن تحت شجرة بلوط كبيرة تسكنها الجنيات، فهل كنت تخاطبين الجنيات وتتعلمين السحر منها؟

ـ سمعت سكان قريتي يتحدثون عن الجنيات، وهذه خرافات، فأنا لم أر جنيات ولا أؤمن بها ولا أعرف السحر ولم أمارسه، ما أبعد هذه الخرافات عني؟

ـ إن ارتداءك ثياب الرجال يعد تجديفاً.

ـ لقد ارتديت ثياب الرجال لأني كنت وحيدة بين آلاف الرجال فأردت أن أكون مثلهم، حتى لا يلهيهم النظر إلى امرأة عند احتدام القتال عن الاستمرار فيه، وليس للزي أي دخل في الدين، فأنا أعبد الله وأجلّه وأطيع وصاياه.

(أصوات: كلا... إنك تخالفين وصايا الله بارتدائك ثياب الرجال).

ـ أؤكد أنه ليس لهذا أي تأثير في الإيمان.

ـ إننا نشك في إيمانك، لأنك برهنت بارتدائك ملابس الرجال، على أنك تعبدين الأوثان.

ـ إني أعبد الله من كل قلبي، وكل أقوالي تمجد الله وتحض على التفاني في عبادته وطاعته.

(أصوات: إنها مشعوذة.. ساحرة...)

ـ ما كنت لأمارس السحر يوماً، ولم أؤمن به قط، وإنما أؤمن بالله وحده وأحفظ وصاياه.
ـ يجب أن ترتدّي عن آرائك وتنبذي ادعاءاتك.
ـ إني لا أستمع إلا إلى صوت الحق.
ـ إنك بذلك تحقرين الإيمان الكاثوليكي .
(أصوات: إنها خائنة. . . إنها تغضب الله. . .)
ـ لم أرتكب أي معصية نحو الدين، وإني شديدة التعلق بإيماني.
ـ هل أنت متمتعة بنعمة الله؟
ـ إذا كنت غير متمتعة بنعمة الله فإني أسأله تعالى أن يمتعني بها. أما إذا كنت متمتعة بها فإني أرجوه تعالى أن يديمها عليّ.

جامعة باريس تتهم جان بالتعاون مع الشيطان

وبعد الجلسة السادسة التي عقدت في ٣ آذار (مارس) شعر كوشون بأن المتهمة بدأت تكسب عطف الرأي العام فقرر إلغاء علنية الجلسات وجعلها سرية، كما أعفى بعض القضاة الذين تأثروا ببساطتها وطهارتها، من حضور بقية الجلسات. وفي العاشر من آذار (مارس) بدأت المحاكمة السرية وقد بدت على جان إمارات التعب والذهول، ومع ذلك فإن رئيس المحكمة لم يرحمها ويسمح لها بقسط من الراحة، بل ظل يلاحقها طوال أيام أربعة بأسئلته المرهقة، محاولاً أن يثبت كفرها واستخدامها علمها كأداة سحرية لاحراز النصر.

ثم كانت الجلسة الختامية في ١٧ آذار (مارس)، وقد فوجئت جان فيها بالسؤال الآتي:
ـ هل تقرين بأن أقوالك وأفعالك، طيبة كانت أو خبيثة، خاضعة لحكم الكنيسة عليها؟

وفطنت للفخ الذي ينصب لها فقالت:

ـ إني أحب الكنيسة وأؤيد العقيدة المسيحية بكل قوتي، ولكن ما قمت به من أعمال هو نتيجة لما كان يوحى به إليّ، فيجب أن يُترك الحكم عليه لله وحده الذي

أمر بالقيام به.

ولما شعرت بالضيق من أسئلته طلبت من المحكمة أن ترفع أمرها للبابا، وكانت إحالة القضية للبابا تخرجها من نطاق النفوذ الانكليزي، فاضطرب كوشون وختم الجلسة، وأمر بتشديد الحراسة على الفتاة، ومنع أي كان من الاتصال بها، لئلا يتسرب بوساطته خبر طلبها للاستئناف لدى البابا. وبذلك انتهت المحاكمة السرية.

وكان الانكليز يستنكرون البطء في إجراءات المحاكمة، ويستعجلون إصدار الحكم السريع بإعدام المتهمة، لأن موتها ضرورة سياسية بقدر ما هو ضرورة دينية. وحدث أن مرضت فتولاهم الخوف من أن تموت ميتة طبيعية، وهم حريصون على إنزال أقصى العقوبة بها، كما أن موتها قبل إدانتها من قبل قضاة فرنسيين، سيجعل منها بطلة شهيدة وضحية مقدسة، فأرسلوا إليها أحسن الأطباء. ولما شفيت ألحوا على رئيس المحكمة بإصدار الحكم، فدعا هيئة المحكمة إلى الاجتماع لاتخاذ قرارهم، ولكنهم لم يجرؤوا على الانفراد باتخاذ هذا القرار فكتبوا ملخصاً للقضية زيفوا فيه وزوروا ما شاءت لهم ضمائرهم ذلك، وأرسلوه إلى علماء اللاهوت في جامعة باريس لإبداء رأيهم فيه، وكان هؤلاء يخضعون للنفوذ الانكليزي الذي ترزح العاصمة الفرنسية تحت نيره، فأجابوا بأن المتهمة تؤمن بأصوات وخيالات من صنع الشيطان، وأنها مارقة كافرة تفتري على الله كذباً حين تزعم أنه جلّ شأنه قد أوحى إليها بارتداء ثياب الرجال!

وعلى أثر ذلك تشجع رئيس المحكمة فأمر بحمل الفتاة إلى غرفة التعذيب، وكان القائد الانجليزي اللورد واريك قد نهاه عن تعذيبها لئلا تموت خلاله فتفوت عليه فرصة الاستمتاع بإعدامها، فاكتفى كوشون بالتهويل عليها وتهديدها طالباً منها الاعتراف بالكفر وممارسة السحر والخضوع لأوامر الشيطان، وإلا اضطر إلى تعريضها لكل ألوان العذاب. وكانت جان تعلم أن من حق المحكمة وفقاً للتقاليد السائدة أن تستعمل معها تلك الوسائل، فنظرت إلى آلات التعذيب وإلى الجلاد المشمّر عن ساعديه استعداداً للتنفيذ وقالت لكوشون:

ـ لن أقول أكثر مما قلت، ولن أغير شيئاً منه ولو مزقت جسمي إرباً إرباً، وإذا جعلني الألم أنطق بما يخالف عقيدتي، فلن أتأخر لحظة عن العدول عنه حالما ينتهي التعذيب.

فأسقط في يد كوشون وبادر إلى الاجتماع بكردينال ونشستر رأس الكهنوت الإنكليزي، واتفق معه على خطة معينة يتقي بها كوشون لوم الناس، ويحفظ مظاهر العدالة، ويحقق للانكليز في الوقت نفسه ما يريدون.

فلتأكل خبز الندامة مدى الحياة

وفي اليوم التالي سيقت جان إلى ساحة روان لتستمع إلى الحكم عليها، وكانت قد أقيمت في الساحة منصتان جلس على إحداهما بيير كوشون. وأسقف ونشستر وأسقف بولون وعدد من القضاة، وجلس على الثانية ويليم إيرار المكلف بتلاوة الحكم، وثمة منصة ثالثة وقف عليها ثلاثة جلادين بثياب حمراء أمام كومة من الحطب وجذوة مشتعلة استعداداً لإحراق المتهمة فيما إذا صدر الحكم بإعدامها. بينما احتشد جمهور غفير لسماع الحكم ورؤية التنفيذ. وأحاط الجنود الانكليز بالجميع في شكل نصف دائرة.

ولم تكد جان تصعد إلى المنصة الثانية حتى بدأ ويليم إيرار بتلاوة التهم الموجهة إليها وهي اثنتا عشرة تهمة، بأسلوب خطابي وعبارات مهينة، والفتاة خائرة القوى منهارة الأعصاب مرهقة بسلاسل الحديد، فكانت تنظر إليه بذهول وكأنها لا تسمع أو تفهم ما يقول، حتى إنه هزها بعنف وهو يقول:

ـ إليك أوجه الكلام يا جان. . . إليك وإلى مليكك الجاحد الزنديق!

وكانت القوانين المعمول بها تقضي بأن المتهم بتهمة دينية لا يحكم بالإعدام إذا هو أذعن للكنيسة ولو في اللحظة الأخيرة، فطلب منها إيرار أن تعلن إذعانها واستنكارها لكل قول قالته أو فعل فعلته واعتبره قضاتها مخالفاً للدين وكان قد أعد ورقة بذلك فطلب منها توقيعها، فأخذت جان تنتفض وتنظر فيما حولها بحيرة وذهول، والجمهور المحتشد في الساحة يصرخ بها:

ـ وقعي. . . وقعي!

والقضاة المحيطون بها يهتفون:

ـ وقعي... وقعي!

ثم يرتفع صوت مجهول من بين الحاضرين صارخاً:

ـ وقعي.. وقعي... انجي بنفسك... لا تلقي بها إلى التهلكة!

فوقعت جان على الأرض من شدة الإعياء، وتمتمت وهي ترتعش:

ـ أعلن خضوعي!

وشرع الحاجب ماسيو في الحال يردد ألفاظ الصيغة المطلوبة وهي ترددها خلفه في غير فهم أو وعي، ثم تقدم أحد القضاة وأمسك بيدها وأجراها بالقلم على الورقة فكتب بها اسمها ضمانة لصحة الإجراءات.

وحينئذ تلا كوشون الحكم وهو يقضي على جان دارك «بأن تأكل خبزالندامة، وتشرب ماء الكرب، في سجن دائم إلى آخر يوم لها على هذه الأرض». على أن يكون جزاؤها الموت إن هي حنثت بوعدها، وعادت إلى اقتراف الآثام التي حوكمت من أجلها.

وغضب القائد الانكليزي اللورد واريك وقال لكوشون متوعداً:

ـ إنك بهذا الحكم تسيء خدمة جلالة الملك، وتمكن الفتاة من الإفلات من الموت!

ويقول أناتول فرانس في كتابه عن جان دارك: «إن هؤلاء الانكليز قد تسرعوا في الحكم على ما فعله كوشون، لأنهم لم يقرروا حق التقدير ما بذله في حمل جان على الاعتراف بأن حياتها كلها كانت خدعة وأكذوبة، وكان ذلك الاعتراف أكبر خدمة يمكن أن تؤدى لإنكلترا في ذلك الزمن!».

والواقع أن المؤامرة كانت أبعد من ذلك، ويبدو أن اللورد واريك لم يطلع على الخطة التي تم الاتفاق عليها بين كوشون وأسقف ونشستر، فقد أعيدت جان إلى سجنها خلافاً لما وعدت بأنها إذا أعلنت خضوعها للكنيسة، تنقل من السجن الانكليزي إلى سجن الكنيسة. وفي زنزانتها بالسجن قدمت لها ثياب نسائية لترتديها دلالة على تراجعها عن آثامها، لا سيما وأن أحد الشروط التي وقعت عليها يحرم عليها العودة إلى ارتداء ثياب الرجال، فارتدت ثوباً نسائياً... ولأمر ما ترك

سجانوها ثوب الرجال الذي نضته في زاوية الزنزانة. وبعد قليل لاحظت أن حراسها خمسة وقد لازم ثلاثة منهم غرفتها من الداخل ووقف اثنان خارج الباب. وقد حاول هؤلاء الحراس التحرش بها والاعتداء عليها، ثم تركوها لشأنها وناموا، فانتهزت فرصة استغراقهم في النوم عقب المعركة التي نشبت بينها وبينهم، وعادت إلى ارتداء ثوب الرجال لتكون أقدر في الدفاع عن نفسها.

وجاء الأسقف منشون في اليوم التالي للتحقيق معها، وسألها لماذا عادت إلى زي الرجال وقد أعلنت عدولها عن ذلك، فأجابت:

ـ عدت إليه لأنني وجدت نفسي بين الرجال، ففضلت أن أكون مثلهم، ولو نقلت إلى سجن مناسب حيث تحرسني النساء، فإني أخضع وأفعل ما تريدون.

وروت جان لمنشون أن حراسها حاولوا الاعتداء عليها، فلم يسجل ذلك في محضر التحقيق، ولم يهتم بآثار المقاومة البادية في وجهها ويديها وثيابها الممزقة. وسيقت في ٣٠ أيار (مايو) سنة ١٤٣١ إلى ساحة السوق القديم في مدينة روان، فجرت محاكمتها من جديد بتهمة «المجرم العائد إلى الإجرام» ثم تلا كوشون نص الحكم عليها وقد جاء فيه:

«حيث أن المدعوة جان دارك قد ألقت بنفسها في أحضان الشيطان، وعادت إلى ارتكاب ما نهتها عنه الكنيسة، وحنثت بيمينها فيما أخذت نفسها بالامتناع عنه، وأتت من الإثم ما سبق لها الاعتراف به والندم عليه، فقد أصبحت بذلك عضواً فاسداً في جسد الكنيسة يجب بتره، وتقرر تسليمها للسلطة الزمنية لتفعل بها ما تشاء...».

وبعدما فرغ كوشون من النطق بالحكم غادر المنصة مع بقية القضاة، وسلم جان لقائد القوة الانكليزية اللورد واريك باعتباره ممثلاً للسلطة الزمنية، فالتفت هذا إلى الجلاد وقال له:

ـ قم بواجبك!

فوضع على رأس جان تاجا من الورق كتب عليه بحروف كبيرة: «ساحرة... مارقة... زنديقة... وثنية». ثم سيقت إلى المنصة وشد وثاقها الى سارية

منصوبة في قلب كومة من الحطب، وأشعل الجلاد النار في كومة الحطب. . فبدأ الدخان يتصاعد، وامتد اللهب إليها، فصرخت للمرة الأخيرة:

ـ لست ضالة ولا كافرة. . وكل ما فعلته كان بوحي من الله!

وسمع الناس صيحة ألم رائعة، أعقبها صمت شامل. .

وشوهد أحد الجنود الانكليز وهو يضرب صدره بقبضته ويردد والدموع تنهمر من عينيه:

ـ الويل لنا. . لقد أحرقنا قديسة!

وتقول الأسطورة إن قلب جان لم يحترق، ولما ألقي مع رمادها في النهر طاف على سطح الماء دون أن يغرق!

* * *

وتطورت نظرة الكنيسة الكاثوليكية إلى جان دارك، فبعدما أحرقتها سنة ١٤٣١ بتهمة الزندقة والسحر، برأت ساحتها وأعادت إليها اعتبارها في سنة ١٤٥٦ إثر محاكمة جديدة ألغت الحكم القديم إلغاء تاماً واعتبرت كأنه لم يكن فلا قيمة له ولا أثر، وهاجم المواطنون المقبرة التي تضم رفات كوشون فنبشوا قبره واستخرجوا جسده ورموا به في المجاري التي تحمل أقذار الناس.

وفي سنة ١٩٠٤ منحتها لقب «مكرمة».

وفي سنة ١٩٠٨ منحتها لقب «مباركة».

وفي سنة ١٩٢٠ طوبتها قديسة، وأقامت لها تمثالاً في الساحة التي أحرقت فيها وفي الكثير من الكنائس والأديرة والمعاهد، وقررت أن تعقد لذكراها صلاة خاصة في كل كنيسة كاثوليكية في الثلاثين من أيار (مايو) من كل عام إلى آخر الزمان.

* * *

أما المواطنون الفرنسيون فقد اعتبروا منذ اللحظة الأولى، أن الوطنية والبطولة قد تجسدتا في امرأة تدعى جان دارك، وفي قلوب هؤلاء المواطنين تحيا عذراء اللورين إلى الأبد.

ولم يطل بقاء الانكليز بعدها في فرنسا، فقد أجلوا عنها كما أجلي كل غـاصب عن الأرض التي يحتلها ظلماً وعدواناً. لقد غيرت الروح التي بثتها جان من روح الشعب وحرضته على النضال والاستشهاد، فكثر الأبطال الذين حاولوا الاقتداء بها واستلهام سيرتها، حتى شارل السابع ذلك الرعديد الجبان، تحول إلى بـطل يقود الجيوش ويكسب الوقائع ويقتحم القلاع والسماء تمـطر من فوقـه حجراً وحـديداً وقطراناً ساخناً، وصار يدعى شارل الفاتح. ويقول الكاتب الإنكليزي جون لاموند في كتابه عن جان دارك: «إن الرعب الذي أوجدته جان في قلوب الإنكليز أثناء حياتها، ازداد قوة بعد موتها، فإن مجرد ذكر اسمها كان كافياً لزعزعة ثقتهم في أنفسهم ولزلزلة يقينهم في الغرض الذي من أجله يحاربون».

طلبوا محاكمته

لأنه قال ان الأرض تدور

في تاريخ الفكر، تؤلف مغامرة غاليليو غاليلي صفحة مؤثرة ولكنها حتمية. فإن عصر الشك والنضال، هو الذي يمهد لعصر العقل، لقد كانت تجربته قاسية ولكنها مثمرة، إذ في الصراع بين التجديد والتقليد، ينشأ التقدم ويتحقق التطور.

لقد كان غاليليو أحد العمالقة الذين حركوا عصورهم، وأرغموا الماضي على إفساح الطريق أمام الفكر الحديث، فمهد لظهور ديكارت وباسكال ولوك، وبشر بطموحات العلم المعاصر، وعلّم الإنسان قراءة كتاب الكون دون أن يخاف وسبر أبعاده دون أن يضيع، وأعطاه الثقة بالوسائل التي يقدمها العلم للباحثين، وكان رائداً في اعتماد الملاحظة والمنهج التجريبي، وهما الطريقان الأكثر أمانة في الوصول إلى الحقيقة ونزع القناع المزيف عن وجه الخرافة.

يقول البروفسور كرين برنتن إن العالم حين يعلن اكتشافاً يخالف المعتقدات السائدة، أو يقلبها رأساً على عقب، لا بد من أن يلاقي مقاومة شديدة، وأن يكافح كثيراً حتى يسمع صوته، والرائع في التاريخ، أن صوت العالم المجدد كان يفرض نفسه في النتيجة، وأن المقاومة التي تعترضه كانت تضعف مع الأيام ثم تزول، مهما لاقى في أول الأمر من عنت واضطهاد. ويعرض برنتن لقضية غاليليو فيقول: «إن هذا العالم الإيطالي بنى اكتشافاته على عمل علماء أسبق منه، حتى رجع في الواقع إلى

العصور الوسطى، ولكنه بناها بصفة خاصة على أعمال ذلك الفلكي البولوني كوبرنيكوس. والقضية معروفة لنا جميعاً. ذلك أن المنظار المقرّب الذي اخترعه غاليليو، هو اختراع جديد مكنه من تسجيل وقائع إضافية مثل وجود توابع للمشتري، مما أوحى إليه بنموذج للنظام الشمسي، وبوجود بقع سوداء على سطح الشمس دلت بتناقضها الظاهر على أن الشمس تدور حول نفسها. وهذه الملاحظات وكثير غيرها، دعمت نظرية كوبرنيكوس التي تقول بأن الأرض تدور حول نفسها كما تدور في الوقت نفسه في فلك حول الشمس التي تدور هي الأخرى وحول نفسها ولكنها ثابتة في مركزها من الفلك. وكانت العقيدة المسيحية تلزم نفسها إلزاماً كاملاً بالنظرية الأخرى التي تقول بأن الأرض ثابتة وأن الشمس هي التي تدور حولها. فهذه العقيدة كانت ترى أن كوكبنا، وهو المكان الذي ضحى فيه المسيح بنفسه، لا بد أن يكون «مركز» كل شيء. وهكذا سيق غاليليو إلى المحاكمة أمام محكمة التفتيش، وآثر الإنكار على أن يتحمل العقاب. ولكن ما كتبه غاليليو لا يمكن أن يلغى أو يمحى. ولم تكن في أوروبا في القرن السابع عشر أي سلطة لها من القوة ما يكفي لكبح هذه الأفكار التي أذاعها غاليليو، فتأكد انتصار نظرية «مركزية الشمس».

* * *

ولد غاليليو غاليلي سنة ١٥٦٤ في مدينة بيزا الشهيرة ببرجها المائل. وهي السنة التي مات فيها ميكيل أنجيلو، وتوفي عام ١٦٤٢ وهو العام الذي ولد فيه نيوتن، فكانت أفكاره الجسر الذي وصل بين عصر النهضة وعصر العلم الحديث.

وكان أبوه فنسانزيو غاليلي عالماً رياضياً وموسيقياً بارعاً، ولكن مواهبه لم تكف لتأمين معيشة عائلته فأنشأ حانوتاً لبيع الكتان.وقد حرص بعقله المتفتح على تثقيف ابنه منذ طفولته المبكرة، ولا سيما بعدما لمس فيه الشوق إلى المعرفة وحدة الذكاء، فأدخله إلى دير فاللومبروزا على مقربة من فلورنسا عاصمة الفن، فتعلم فيه الإغريقية واللاتينية والمنطق، وخلافاً لرغبة أساتذته لم يجد الفتى في نفسه ميلاً إلى دراسة اللاهوت، في حين تجلى ميله إلى الميكانيك والرياضيات.

وفي عام ١٥٨١ نقله والده إلى جامعة بيزا لدراسة الطب. فما لبث حتى خالف

رغبة والده فانتقل من دراسة الطب إلى تعلم الفلك والعلوم الرياضية، مفضلاً مؤلفات إقليدس وأرخميدس على مؤلفات أبقراط وجالينوس. وذهب ذات يوم إلى كاتدرائية بيزا، وفيما المصلون خاشعون كان غاليليو يراقب مصباح الكنيسة وكان الشماس قد جذبه ليملأه بالزيت ثم تركه يتأرجح بسلسلته. فلاحظ الطالب الشاب أن اهتزازات المصباح سواء كانت واسعة أو قصيرة تجري من غير تفاوت أو اختلاف في الزمن، وتأكد من ذلك بقياسها على نبضه بوضع يده على رسغه، وقد أدت هذه الملاحظة إلى اكتشاف قانون «تساوي الزمن» الذي مكن العلماء فيما بعد من قياس أجزاء دقيقة من الزمن، كما أدى الى اختراع رقاص الساعة.

إلا أن دراسته الجامعية لم تبلغ غايتها، إذ اضطر الى التوقف عنها سنة ١٥٨٥ بسبب فقره، بعد وفاة والده دون أن يترك له شيئاً، وانفصل عن الجامعة قبل إحراز شهادتها التي تؤهله للعمل، فرحل إلى فلورنسا وأخذ يلقي دروساً في أكاديميتها، ونشر في العام التالي رسالة يصف بها اختراعه للميزان الهيدروستاتيكي، وأعقبها برسالة عن مركز الجاذبية في الأجسام الجامدة، فاهتمت جامعة بيزا بأبحاثه واستدعته للتعليم فيها، فقام خلال عمله فيها بتجارب ناجحة كانت الأساس في وضع مبادىء الديناميكا وهو علم الأجسام في حالة الحركة.

وكانت أفكار أرسطو سيد المفكرين الأقدمين لا تزال تسود الأوساط العلمية منذ ما يقارب ألفي عام، وهي تعتبر من الحقائق المسلم بها، ومن هذه الأفكار أن سرعة الأجسام خلال سقوطها من الأعلى إلى الأدنى تختلف باختلاف أوزانها، فالثقيل منها أسرع في الهبوط من الخفيف، فصعد غاليليو الى برج بيزا برفقة بعض الشيوخ والأساتذة، وألقى إلى الأرض جسمين يختلفان وزناً، فبلغا الأرض في آن واحد، وقد أقام البرهان بذلك على أن سرعة الأجسام في هبوطها واحدة، ولكن يجب أن نحسب فيها حساب المقاومة التي يظهرها الهواء، فإن هذه المقاومة تزداد كلما كبر حجم الأجسام. ولاحظ غاليليو أن سرعة سقوط الأجسام تزيد بمعدل اثنين وثلاثين قدماً في كل ثانية، ورأى أنه ما دامت هذه السرعة غير متجانسة وإنما تتسارع باطراد فلا بد من أن يكون هناك شيء يتدخل في الحركة الطبيعية للأجسام، وهذا الشيء هو قوة الجاذبية التي تحدثها الأرض.

وتابع غاليليو تجاربه على الأجسام الساقطة وتلك التي تتدحرج على سطح مائل، وبرهن على أن الأجسام لا تسرع في سقوطها مع كل لحظة من الزمن، بل إن الازدياد في السرعة يتم أيضاً بصورة منتظمة. يقول دونالد كيراوس بيتي: «واليوم تبدو أهمية هذه القاعدة في حساب سرعة شهاب مقترب، أو في حالة القذف المضبوط بالقنابل. وربما لم يحلم غاليليو أبداً أن تقذف القنابل من الطائرات، ولكنه فتن بمسألة نيران المدفعية، فقد كان رجال المدفعية يعرفون قبلاً أن عليهم ضبط أجهزة تسديد المرمى ليصيبوا هدفاً بعيداً، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك بالتخمين، فبرهن غاليليو على أن مسار القذيفة قطاع ناقص، وزود رجال المدفعية بطائفة من العمليات الحسابية التي تحدد لهم مقدار الضبط اللازم للمدفع كي يصيب هدفاً على مسافة معينة». وبذلك عزز المبادىء التي وضعها لعلم الديناميكا، وقد أهدى اكتشافه هذا إلى حكام جمهورية البندقية الذين استفادوا منه في حروبهم وكافأوه على ذلك أدبياً ومادياً.

وكانت مخالفة آراء أرسطو شبه المقدسة، تعتبر بدعة لا يمكن قبولها، فهال العلماء التقليديين أن يعارضها ذلك الشاب الغريب الأطوار ذو الشعر الأحمر والعينين الزرقاوين، الذي يرفض أن يرتدي الحلة المخملية الرسمية الخاصة بالأساتذة إلا في ساعات التدريس، لأن ارتداءها في الشارع يعني في رأيه نوعاً من التهريج، واستغربوا أن يقول هذا الشاب الذي لم يبلغ الثلاثين من عمره، ببساطة مذهلة، إن أرسطو يمكن أن يخطىء، وأن علينا ألا نأخذ بأقواله أو أقوال غيره كمسلمات بل يجب ان نخضعها للتجربة، فالمهم ما تكشف عنه التجارب، وليس ما يقوله فلان أو فلان، وكان قول غاليليو هذا بداية العصر العلمي الحديث في أوروبا، ولكنه أثار غضب أولئك العلماء التقليديين واستياءهم، فحرضوا عليه رؤساءه، واضطروه إلى الاستقالة من منصبه في جامعة بيزا، فغادرها الى فلورنسا عام ١٥٩١.

أعضاء مجلس الشيوخ في . . . البرج!!

وفي عام ١٥٩٢ عين بمسعى من صديقه المركيز جويدو بالدو، أستاذاً للرياضيات في جامعة مدينة بادوا بجمهورية البندقية، وهي الجامعة التي اشتهرت بحرية الفكر وقد حرمت كنيسة روما على أتباعها الانتساب إليها. واستمر في منصبه هذا حتى عام ١٦١٠، واستطاع خلال هذه الحقبة من حياته التي تمتع فيها بالقسط الأوفر من

الحرية العقلية، وأفاد من مكتبة الجامعة الضخمة ومختبراتها العلمية، أن يحقق كثيراً من الاكتشافات المهمة، وأن يتصل برجال العلم في أوروبا عن طريق المراسلة.وكان هؤلاء يسمونه «أرخميدس عصره»، ووضع مؤلفات في الميكانيكا وفي الحركة وفي نظام الكون وفي الصوت والكلام وفي الضوء والألوان، فضلاً عن المحاضرات التي كان يدعى إلى إلقائها في معاهد علمية أخرى.

وكان كوبرنيكوس الذي توفي سنة ١٥٤٣ قد أعلن نظريته في النظام الشمسي فتبناها غاليليو ولكنه لم يجرؤ على المجاهرة بذلك مخافة السخرية والاضطهاد وكتب إلى زميله العالم كبلر: «منذ سنوات وأنا مقتنع بنظرية كوبرنيكوس التي تفسر لي أسباب كثيرة من الظواهر الطبيعية التي كانت تبدو لي غير قابلة للتفسير في ظل الفروض الشائعة. ولإثبات خطأ هذه الفروض جمعت عدداً كبيراً من الحجج والأسانيد، ولكني لا أجرؤ على نشرها علناً حتى لا يكون مصيري هو مصير معلمنا كوبرنيكوس، هذا الرجل الذي نعتبره خالد الاسم، وإن كان عند أعداد لا نهاية لها من الناس (هذا هو عدد البلهاء) مصدر التحقير والسخرية».

وشاع أن غاليليو قد اخترع مرصداً يكبر الأشياء ثلاثة أضعاف، فأثار ذلك اهتمام العلماء وتوافد الناس من كل صوب لمشاهدة هذا المرصد. والواقع أنه اخترع بالفعل آلة تكبر الأشياء ٣٣ مرة، أو بتعبير آخر تظهرها أقرب عن بعدها الحقيقي بثلاث وثلاثين مرة (عُرفت هذه النسبة فيما بعد) مستفيداً من ملاحظة هولندي يدعى هانز ليبرهي كان يصنَع النظارات في فينيسيا أن وضع زجاجتين بعضهما فوق بعض إحداهما محدبة والأخرى مقعرة يكبر الأشياء أو يقرّب الأبعاد، وبدأ غاليليو يستخدم آلته في مراقبة النظام الشمسي. وقد دعا أعضاء مجلس الشيوخ إلى برج الجرس العالي لاختباره والتمتع بالمشاهد التي يتيحها لهم، وقد أراد دوق البندقية الحصول على هذا التلسكوب لأهميته الحربية، إذ في وسع الدولة التي تستخدمه أن ترى سفن العدو قبل رؤيتها بالعين المجردة بساعتين أو أكثر، وبمعرفة عدد سفنه ونوعها يمكن معرفة قوته وتحديد طريقة مواجهته، وفي البر يمكن تفقد ميادين العدو ومبانيه وحصونه دون أن يعرف العدو. وهكذا عرف التلسكوب لأول مرة وولد معه علم الفلك الحديث، وكان غاليليو يطلق عليه اسم «المحدق في النجوم» وصنع بنفسه عدداً من

التلسكوبات كما كان يصنع في معمله الخاص نماذج من آلاته ومخترعاته الأخرى ويبيعها لمن يرغب فيها. وقد نشر مشاهداته وملاحظاته الفلكية في كتاب بعنوان «رسول إلى النجوم».

ولعل القارىء يتصور أن غاليليو العالم الغارق في أبحاثه العلمية، والعائش بين الأنابيب والدوائر والزوايا والمسطحات المعدنية والخشبية، والمنهمك بمراقبة النجوم وقراءة كتاب السماء العظيم، كان يعيش حياة تقشف وحرمان وزهد بمتارف الحياة، والواقع أنه كان على الرغم من مشاغله العلمية جذاب الشخصية ساحر الحديث، يجد الوقت الكافي لحضور المآدب السخية والحفلات الموسيقية ومعاشرة الغانيات اللواتي كانت لهن في ذلك العصر منزلة مرموقة وشهرة خاصة، وقد أحب واحدة منهن تدعى مارينا غامبا واتخذها خليلة له فأنجبت له ثلاثة أولاد دون أن يجد ثمة ضرورة الى الزواج منها. وكان الى ذلك كله مرحاً ظريفاً يجيد النكتة ويتذوقها، ويحضر التمثيليات الماجنة وقد يشارك في التمثيل فيها، وينتقل إلى فلورنسا عاصمة توسكانيا كلما واتته فرصة إلى ذلك أو فقد عمله في بيزا أو بادوا، ففي فلورنسا كانت تزهر براعم عصر النهضة، ولم يسبق لأي مدنية أخرى، باستثناء أثينا، أن أنجبت هذا القدر من الفنانين والمفكرين، فقد كان دانتي وميكيل أنجلو وليوناردو دافنشي وبوكاتشيو ورفائيل وميكافيلي وكثيرون غيرهم من أبناء فلورنسا. وكما كانت البندقية مركز البحر الأبيض المتوسط وميناءه الحر ومدينة الطموح والعمل الذي لا يعترضه أي قيد يحتشد في شوارعها التجار والمغامرون والفنانون والحرفيون ، فكانت فلورنسا مهد النهضة الإيطالية ومنجبة المفكرين العظام.

وكانت أفكار أرسطو وبطليموس الفلكية هي السائدة، لأنها تتفق مع آراء الكنيسة التي ترى أن الأرض ثابتة وهي مركز الكون، وأن الكواكب إنما تدور حولها ـ ولكن مراقبة غاليليو للأجرام السماوية جعلته يكتشف أن القمر ليس جسماً أملس كما يبدو لنا وإنما تملأه الفجوات والوهاد والمرتفعات شأنه في ذلك شأن الأرض، وأن المجرة مجموعة نجوم صغيرة، ثم اكتشف ما هو أهم من ذلك وهو أن المشتري تدور حوله عدة كواكب (وهي تسعة وقد عرف غاليليو منها أربعة فقط) وهي تؤلف

معه مجموعة شمسية مستقلة، وأن الشمس تدور حول نفسها وتستغرق دورتها ٢٨ يوماً ولكنها لا تدور في الفلك، وأن كواكب النظام الشمسي، والأرض واحد منها، هي التي تدور حول الشمس وفي الوقت نفسه تدور حول نفسها مرة كل يوم.

وكان ذلك تأكيداً لنظرية كوبرنيكوس ودليلاً علمياً على صحتها، ولكن الكنيسة اعتبرته هرطقة لأنه يخالف تفسيرها لما ورد بهذا الشأن في التوراة في آية من «يوشع» ١٠ :١٣ جاء فيها: «إن الشمس وقفت في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل». وآية من «سفر الجامعة» ١ :٤١ جاء فيها: «إن الشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق».

وكان غاليليو بطبعه لا يحب الصدام، ولا سيما مع علماء اللاهوت الذين يسمون أنفسهم بالأكاديميين الكنائسيين، فحول تفسير الآيات التي ادعوا بأنه يخالفها تفسيراً يتلاءم مع اكتشافه، قائلاً: «لما كان من المستحيل على حقيقتين أن تختلفا، فإن واجب المفسر العاقل للكتاب المقدس أن يحاول إيجاد المعنى الحقيقي لنصوصه بما يتفق مع الحقائق التي تقوم على شواهد محددة أو براهين معينة. فإذا وجد دليل حقيقي على أن الشمس ثابتة ولا تدور حول الأرض، وإنما الأرض هي التي تدور حول الشمس، فمن الضروري إذن أن نبدأ بعناية في تفسير النصوص التي توحي بغير ذلك».

وقد ازداد غضب العلماء المتمسكين بحرفية العقيدة، لأن غاليليو يشكك بفهمهم لآيات التوراة، وصدر عن المجمع الكهنوتي في شباط (فبراير) ١٦١٦ قرار يدمغ بالهرطقة كل من يقول بدوران الشمس، أو تحرك الأرض. واستدعاه ديوان التفتيش الى جلسة مغلقة أدانه فيها ولكنه أطلق سراحه بعدما طلب منه الالتزام بقرار المجمع، فوعد بالطاعة وانسحب إلى منزله بضواحي فلورنسا، وتوارى عن الأنظار سبع سنوات ثم عاد في تشرين الأول (اكتوبر) ١٦٢٣ وقدم لأكاديمية لينشي مخطوطة كتابه «النجوم المذنبة» فرحبت به وعمدت الى نشر الكتاب، وكان صديقه الكاردينال مافيو باربيريني قد ارتقى إلى سدة البابوية باسم البابا أوريان الثامن، فأهداه غاليليو كتابه عن النجوم المذنبة، واعتبرت الأوساط الدينية تلك البادرة برهان توبة ومصالحة.

هاتوه ولو مقيداً بالسلاسل

وفي سنة ١٦٣٢ فاجأ غاليليو مواطنيه بطبع كتابه «حوار حول نظامي الكون الرئيسيين البطليموسي والكوبرنيكي» معتقداً بأن البابا الجديد وهو صديقه القديم الذي يعرفه مثقفاً محبا للفنون والعلوم وطالما أعجب به وشهد له بالعظمة والعبقرية، لا بد من أن يكون مجدداً ذا عقل متحرر يؤيد الأفكار العلمية الجديدة وإن لم يؤيدها فهو يغض النظر عنها ولا يقمعها بالعنف الذي عرف عن أسلافه. وكان المتحاورون في هذا الكتاب ثلاثة: سالفيات وهو يعبر عن آراء غاليليو ويجيب على جميع الأسئلة والاعتراضات، وساغريدو وهو مستقل الرأي موفور الحظ من الذكاء، وسمبليسيو وهو مغفل تافه الشخصية ضعيف الحجة يدافع عن نظرية بطليموس، وقد صوره غاليليو تصويراً كاريكاتورياً ساخراً بأسلوب أدبي بالغ الروعة، فذهب أعداؤه إلى البابا وقالوا له إن غاليليو يقصدك أنت في شخصية سيمبليسيو ويسخر منك. وصدق البابا قولهم لأنه قرأ في الكتاب على لسان سيمبليسيو أقوالاً كانت قد صدرت عنه فعلاً أثناء مناقشاته مع غاليليو حول نظرية كوبرنيكوس.

وإذا كان كتاب غاليليو قد حظي بإعجاب الأوساط العلمية في أوروبا كلها، فإنه قد أثار غضب رجال الكهنوت على رأسهم البابا نفسه غضباً شديداً، فصدر أمر كنائسي بمنع الكتاب وإحالته إلى ديوان التفتيش ليدفع عن نفسه تهمة الهرطقة، وهي تهمة كانت تثير الرعب والهلع في قلوب أشجع الناس، لما يتعرض له الموصومون بها من أهوال التعذيب.

وكان غاليليو قد أشرف على السبعين من عمره، وهو ضعيف متهالك ومصاب بفتق مزدوج وخفقان في القلب، فاحتج بعدم القدرة على الذهاب إلى روما للمثول أمام المحكمة لسوء صحته وكبر سنه، فأعلن مجمع الكرادلة ضرورة مجيئه إلى روما ولو مقيداً بالسلاسل.

ولم يقدر مجمع الكرادلة حالة غاليليو الصحية، وهو الرجل الشيخ الذي شارف على السبعين من عمره، وكان القرار قاطعاً بانتقاله الى روما، للمثول أمام

المحاكمة، ولو اضطر الأمر إلى تقييده بالسلاسل.

وكان الرجل ضعيفاً متهالكاً ومصاباً بفتق مزدوج وخفقان في القلب.. هكذا انتقل إلى روما في كانون الثاني (يناير) سنة ١٦٣٣ في حالة شديدة من الإعياء خاف معها الكثيرون على حياته. وليس من يدري لماذالم يلجأ إلى جمهورية البندقية حيث تزدهر حرية الفكر وليس لكنيسة روما سلطان عليها.

وبعد اعتقاله واستجوابه طوال خمسة أشهر أصدرت محكمة التفتيش قراراً بشأنه جاء فيه بعد تفصيل موضوع الدعوى: «... وبناء عليه يرى اللاهوتيون أصحاب الرأي في التعريف، أن القضيتين المتعلقتين بسكون الشمس وحركة الأرض، مناقضتان للعقل ومغلوطتان في اللاهوت، فالأولى هرطقة صريحة، والثانية على الأقل فيها خطأ من ناحية الإيمان... فنحن نقول ونلفظ ونحكم ونعلن أنك أنت يا غاليليو ابن المرحوم فسنسانزيو غاليلي، أصبحت في نظر المجمع المقدس محل شبهة قوية بالهرطقة باعتقادك وتمسكك بنظرية خاطئة ومناقضة للكتب الإلهية المقدسة، ونحن نأمر بمنع كتاب محاورات غاليلي بموجب مرسوم علني، ونحكم عليك بالسجن المدة التي سنرى تحديدها، كما أننا نطلب منك على سبيل التكفير المحمود، أن تتلو مزامير الندامة السبعة مرة كل أسبوع في السنوات الثلاث القادمة...».

وبعد تدخل أصدقاء غاليليو وعلى رأسهم دوق توسكانيا (كان كوزمو الثاني دوق توسكانيا معجباً بغاليليو وقد منحه مرتباً دائماً ولقب «فيلسوف سموه» ولكن كوزمو الثاني توفي سنة ١٦٢١ ولو كان حياً أثناء المحاكمة لاستطاع إقناع البابا بالعدول عنها وقد دافع خليفة كوزمو الثاني عن غاليليو ولكن كانت تنقصه في ذلك حماسة سلفه)، تقرر أن تعقد محكمة التفتيش جلسة علنية يعلن العالم فيها توبته وتراجعه عن آرائه وإلا فإنه سيتعرض لأهوال التعذيب المعروفة يومذاك، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية في أوج صراعها مع الحركة الإصلاحية البروتستانتية، وقد أعادت محاكم التفتيش عام ١٥٤٢ وبدأت حركة التطهير عام ١٥٥٩، وكانت هذه الإجراءات القمعية هي الأسلحة التي استعملتها البابوية لمقاومة حركة

الإصلاح الديني. ومن هنا كان إصرار كنيسة روما على أن تذل هذا العالِم وتهينه ليكون عبرة لكل خارج على النطاق الذي تعتبره نطاق العقيدة التي تمثلها، دون أن تدري أنها إنما توجه بذلك أكبر الضرر لهذه العقيدة بتصويرها إياها معارضة لكل رأي جديد حتى وأن قام عليه الدليل وأثبتته التجربة.

وفي ٢٢ حزيران (يونيو) سنة ١٦٣٣، التأمت محكمة التفتيش في دير القديسة ماريا سوبرا الامينرفا بمدينة روما، وجيء بغاليليو وقد ألبس ثوب التوبة المصنوع من الخيش، فوقف أمام الكرادلة المجتمعين شاحباً مرتجفاً، وقد هد الاعتقال قواه، ولازمه خلال لياليه الطويلة شبح جوردانو برونو الذي أحرق حياً قبل ستة عشر عاماً لأنه أبدى من الآراء ما لا يزيد تطرُّفاً على آرائه، ودعي إلى التنصل من رأيه والرجوع عن خطئه، بعد أن هدد بالتعذيب إذا لم يرتد عن هرطقته، فركع كما طلب منه، وتلا البيان الذي أعده الديوان وقد جاء فيه:

«أنا الموقع أدناه غاليليو غاليلي ابن المرحوم فنسانزيو غاليلي من فلورنسا، والبالغ من العمر سبعين عاماً، الماثل شخصياً أمام هذه المحكمة، أركع أمامكم يا أصحاب الغبطة والإجلال، السادة الكرادلة أعضاء محكمة التفتيش ضد الانحطاط المرتد في جميع أرجاء الجمهورية المسيحية. وأقسم وأنا أنظر بعيني إلى الكتاب المقدس وألمسه بيدي أنني كنت أؤمن دائماً وأؤمن الآن وسأظل بعون الله مؤمناً في المستقبل بكل تعاليم الكتاب المقدس وما يعظ به ويعلمه وفق مذهب الكنيسة الكاثوليكية المقدسة، والكنيسة الرومانية الحوارية. ولكنني رغم تسلمي أمراً من قداسة البابا مفاده أن أتخلى كلياً عن الرأي الكاذب بأن الشمس مركز الكون وأنها غير متحركة وأن الأرض متحركة وليست مركز الكون، وأن عليّ أن لا أتمسك بهذه العقيدة أو أدافع عنها أو أعلمها بأي طريقة كانت مشافهة أو كتابة، وبعدما علمت أن العقيدة المذكورة مخالفة لما جاء في الكتاب المقدس، قمت بتأليف كتاب وطباعته وفيه بحثت في هذه العقيدة المدانة، وذكرت فيه حججاً قوية لإثباتها دون تقديم أي حل صحيح، ولهذا السبب اتهمني مكتب قداسة البابا بأن هناك اشتباهاً قوياً بأنني مرتد وكافر، وذلك لأنني تبنيت رأياً يقوم على الاعتقاد بأن الشمس ثابتة وهي مركز العالم، وأن الأرض متحركة وليست مركزاً لهذا العالم.

«بناء عليه ولأنني راغب في أن أزيل من تفكيركم يا أصحاب القداسة والغبطة ومن عقول جميع المسيحيين المؤمنين، ذلك الشك القوي الذي تتصورونه بحق ضدي، وبقلب مخلص وإيمان صادق أرفض وألعن وأحتقر الأخطاء والهرطقات السالفة الذكر، وبشكل عام كل خطأ آخر أو أي طائفة أياً كانت إذا كانت مضادة للكنيسة المقدسة، وأقسم بأنني لن أذكر أو أؤكد في المستقبل شفهياً أو تحريرياً أي شيء يمكن أن يؤدي إلى احتمال حصول شبهة مماثلة نحوي، كما أعد بأن أبلّغ مكتب قداسة البابا أو محكمة التفتيش أو المحاكم العادية في مكان إقامتي، عن أي شخص يشتبه في ارتداده وهرطقته.

«وفوق ذلك أقسم وأعد أن أنفذ بشكل كامل ودقيق كل العقوبات الدينية التي فرضها أو سيفرضها مكتب قداسته عليّ وفي حال نكوصي لا سمح الله، عن أي من هذه الوعود والاعترافات وما أقسمت عليه، فإنني أقدم نفسي طواعية لكل الآلام والعقوبات التي فرضتها وأعلنتها التعليمات الكنائسية المقدسة والدساتير الأخرى العامة والخاصة ضد من يقترف مثل هذا الإثم، فليساعدني الله وهذا الإنجيل المقدس الذي ألمسه بيدي.

«أنا المدعو غاليليو غاليلي، قد اعترفت بأخطائي وأقسمت ووعدت وتعهدت كما ورد أعلاه، وشهادة بصدق ذلك كتبت بخط يدي هذه الوثيقة المتعلقة بإعلان تنصلي من تلك الآثام، وتلوتها كلمة كلمة في روما دير مينرفا في هذا اليوم الثاني والعشرين من شهر يونيو (حزيران) عام ١٦٣٣.

«أنا غاليليو غاليلي قد اعترفت بأخطائي علانية كما ورد أعلاه ودونتها بيدي».

وبعد الانتهاء من اعترافه وإعلان توبته، سمعه أصدقاؤه الذين كان يتكىء عليهم وهو يغادر قاعة المحكمة يتمتم بصوت خفيض وكأنه يخاطب نفسه:

ـ ومع ذلك فإنها تدور!

في الإقامة الجبرية

لقد أطلق سراح غاليليو ولكن فرضت عليه الإقامة الجبرية في منزله بضواحي

فلورنسا، ثم سمح له بالانتقال الى منزل ولده فنسانزيو بعدما أمر هذا بألا يسمح له بالاجتماع إلا مع القليل من الزوار أو الحديث عن دورة الأرض، فعاش كهولته وحيداً محطماً رازحاً تحت وطأة الفاقة والمرض، ثم تعاظمت مصائبه بفقد بصره، فأظلمت العينان المضيئتان اللتان اكتشفتا جبال القمر ونجوم البليادیس وتوابع المشتري وهلال الزهراء وحلقة زحل، وكتب له صديقه الأب كاستيللي: «لقد أظلمت أنبل عين صنعتها الطبيعة، وا أسفاه!».

وزاره في هذه الفترة الشاعر الانكليزي الكبير جون ميلتون وكتب بعد عودته الى بلاده: «في وسعي أن أقص شيئاً كثيراً عما رأيت في البلاد الأخرى حيث يسود عسف محاكم التفتيش. لقد جالست بعض العلماء هناك وكانوا يعتبرونني سعيداً لأني أعيش في إنكلترا هذا البلد الذي يعدونه موطن الفلاسفة الأحرار، بينما هم لا عمل لهم إلا النواح على الحالة الذليلة التي وصل إليها العلم بينهم، مما ثبط همة العلماء الإيطاليين وأدى إلى عدم إنتاج شيء في هذه السنين الكثيرة غير الملق والمداهنة. ولقد وجدت هناك غاليليو العظيم وزرته، ورأيته كهلاً سجين محاكم التفتيش، لأنه يخالف فكرياً ما يقوله رجال الكنيسة في المسائل الفلكية، ثم قال: «إذا دبّ الفساد في أمة وانتشرت فيها الرذائل حتى جرّتها إلى ذل الرق، فإن الناس فيها يفضلون العبودية على الحرية، العبودية التي تصحبها الراحة على الحرية التي يلازمها النصب».

وكانت لغاليليو ابنتان هما بالسينا وفرجينيا التحقتا بالدير، وكانت كبراهما وقد صارت تدعى في الدير ماري سيلست، شديدة التعلق به والإعجاب برجاحة عقله ونبل نفسه. وكانت كل راهبة في الدير تحتفظ بصورة قديس تناجيه بأفراحها وأحزانها، أما هي فكانت تحتفظ بصورة والدها فهو شفيعها وقديسها. ومن رسائلها إليه قولها: «أرسل لك حبتين من الكمثري لأيام السهر هذه، ولكن أبهج ما أرسله لك هو هذه الوردة التي ستسر بها للغاية بالنظر إلى ندرتها في مثل هذا الفصل» وقولها في رسالة أخرى: «إذا كانت وطأة حياة الدير تثقل عليّ، فمن ناحية واحدة وحسب وهي انها تحرمني من أن أقوم شخصياً بالعناية بك، وهذا ما كنت أحب القيام به لو كان مسموحاً، أما أفكاري فهي دوماً معك». وقد ساءت صحتها أثناء

سجنه من جراء الحزن الذي انتابها قلقاً عليه لما يعاني من اضطهاد وما يلقى من شقاء. ولما صدر حكم ديوان التفتيش عليه، كتبت له أنها سوف تتلو المزامير السبعة بالنيابة عنه طوال ثلاث سنوات لتعفيه من هذه المهمة. وقد اشتد صراعها بين الولاء لأبيها والولاء للكنيسة التي أدانته، فما لبثت حتى فارقت الحياة وهي في الثانية والثلاثين من عمرها.

نهاية غاليليو

وفي هذه الحالة من البؤس والألم والفجيعة، فارق الحياة ذلك الرسول الى النجوم الذي فتح للإنسان نافذة يطل منها على الكون الواسع، في ٨ كانون الثاني (يناير) سنة ١٦٤٢ وهو في الثامنة والسبعين من عمره، بعدما هرّب إلى البلاد الأوروبيةأبحاثهواكتشافاته في علم الطبيعة التجريبية الذي وضع أسسه وعالج في ضوئه المبادىء الأولى لطفو الأجسام في الماء فضلاً عن المبادىء العلمية لعلم الصوت الذي أعطى الموسيقيين براهين تجريبية كانت الأساس الرياضي لدرجات الصوت وتوافق النغم، بالإضافة الى ما أعطاه للمهندسين من معلومات جديدة حول الضغط والجهد ومقدرة الجسم الكبير على الشد الجاذبي لآخر صغير. وقد طلب دفنه في مقبرة كنيسة سانتا كروتشي فرفض رؤساؤها ذلك بحجة أن هذه الخطوة لا يمكن أن ينعم بها على أحد الهراطقة وسمح بدفنه في ركن متواضع من مقبرة صغيرة، ولكن لم تنقض خمسة وتسعون عاماً حتى حذفت الكنيسة كتبه من قائمة الكتب المحرّمة، بعد ذلك بعامين أقامت له نصباً تذكارياً في ساحة كنيسة سانتا كروتشي ونقلت رفاته إلى هذا النصب، تخليداً لاكتشافاته الفلكية وأعماله الرائدة في الآليات والديناميكيات.

يقول برتراند راسل: «جرت العادة عند مدرسة خاصة من مدارس علم الاجتماع (يقصد المدرسة الماركسية) أن تقلل من أهمية الذكاء، وأن تعزو الحوادث العظيمة جميعاً إلى أسباب غير شخصية، واعتقد أن هذا وهم باطل كل البطلان، وأرى أنه لو قتل مائة من رجال القرن السابع عشر في طفولتهم لما وجد العلم الحديث، وغاليليو عميد هؤلاء المائة!».

ويقول الدكتور م. تيريز: «لقد كان لمحاكم التفتيش القوة الكبيرة التي أجبرت

غاليليو على التراجع العلني عن آرائه، ولكنها لم تكن لديها قوة تغطي بها على تيار الروح الجديدة التي سرت في العالم، روح الاستقصاء التي ظلت سارية في دماء جسد غاليليو الواهن، والتي شغلت بال خلفائه فغيرت نظرية البشرية كلها، وقد قضى غاليليو نحبه عام ١٦٤٢ ومع ذلك فإن عمله لم ينته، ففي تلك السنة نفسها ولد اسحق نيوتن الذي قدر له أن يسير بالعمل الذي بدأه غاليليو إلى نهاية مجيدة». وقال انشتين عن هذين العبقريين: إن نيوتن استوعب نظريات غاليليو، فأضاءت أمامه سبيل المعرفة الخلاقة حتى أصبح ينظر إلى أسرار الطبيعيات وكأنه ينظر إلى كتاب مفتوح.

ونقول: إذا كانت محاكم التفتيش قد نجحت في شيء، فإنها نجحت بعد إحراق جوردانو برونو والحكم على غاليليه، بتوقف النشاط العلمي في إيطاليا وأسبانيا وانتقال الثورة العلمية إلى شمال أوروبا.

حول الكنيسة الى برلمان وحكم فلورنسا باسم الانجيل

يحار المرء أين يضع جيروم سافونا رولا ، هل يضعه مع الطغاة أم المصلحين، ومع الثوار أم القديسين، ومع الأبطال الذين قاوموا الظلم أم مع دعاة الردّة الذين حاولوا إيقاف النهضة وتأخير مسيرة الانسان نحو الحرية والنور.

كان فتى وسيماً نابهاً من أسرة نبيلة في «فيرار» إحدى مدن توسكانيا، تبتسم له الدنيا ابتسام الرضى، ويدعوه المستقبل إلى أرفع المجد، وكانت نفسه الزاخرة بالرقة والشعور تسبغ على كل ما يحيط به غلالة رائعة من السحر والبهاء والفتنة، فكيف به وقد رأى البهاء والسحر والفتنة متجسدة في امرأة تسعى على الأرض!

لقد أحب فالانتينا ستوزي ذلك الحب الصادق العميق الذي لا يعرفه سوى أفراد معدودين في كل جيل، ولا يعرفه هؤلاء سوى مرة واحدة في حياتهم، ووجدت نفسه الشاعرة في هذه المرأة المثلى صديقة له وحبيبة وحياة حافلة بألوان السعادة.

هارب من العالم!

وكما يوحي الحب لكل رجل كبير أسمى المطامح وأنبل المشاعر، أوحى حب فالانتينا لسافونا رولا كل عاطفة كريمة ونزعة رحيمة، وفاض الشعر على لسانه غنائياً حالماً رقيقاً ليغدو بعد قليل طعمة لألسنة النار، حين هبت ريح الموت على هذه الزهرة

التي لم تكد تتفتح للحياة، فأذوتها إلى الأبد.

كان ذلك في أوائل النصف الثاني من القرن الخامس عشر، والضمائر يتنازعها صراع حاد بين العالم القديم والعالم الحديث، بين موجة دينية عارمة فيها الكثير من الزبد وفيها ما ينفع الناس ونهضة فكرية، أدبية وفنية، أشرقت أنوارها في إيطاليا وسوف تمتد منها إلى أوروبا كلها، فكانت تلك المصيبة المباغتة التي حلت بسافونا رولا وفجعته بقلبه وحبه، حافزاً له الى التفكير في عالم الغيب الذي انتقلت فالانتينا إليه. وغرق الشاب في تفكيره وتأمله وقتاً غير قصير، ثم هجر العالم سنة ١٤٧٥ وهو في سن الثانية والعشرين، إلى أحد الأديرة الدومينيكانية، متخلياً عن مسراته التي لا تبقي في النفس غير الفراغ والخيبة، وكتب إلى أبيه الذي أعده ليكون طبيباً مثله أنه قد آثر حياة الرهبنة وعزلة الدير لينقذ نفسه من الآثار التي تسود المجتمع الإيطالي وتكاد تذكر المرء بآثام سدوم وعمورة، «إني أهرب من هذا العالم وأطرق باب الدين!».

وعكف الكاهن الشاب على الدراسة بضع سنوات، لا يجد في غيرها عزاءه ومتعته وسلواه، فاطلع على جميع الكتب العلمية، والمذاهب الفلسفية وخرج منها بآراء نيرة جديدة، وقدّره رؤساؤه فدعوه الى تدريس الفلسفة، فسرّ بهذه الدعوة ولباها بعدما تمرن على الإلقاء والخطابة حتى حذقهما وبرع فيهما، وإذا به داعية من أبلغ الدعاة إلى الإصلاح ورسول من رسل الفضيلة والصلاح.

وعينّ سنة ١٤٨٢ واعظاً في دير سان مارك بفلورنسا عاصمة توسكانيا، فنهد الى هذه المدينة سيراً على قدميه، وما كاد يبلغها ويستقر فيها حتى قام بحملة دائبة على كل ما يعتقد بضلاله ويرى أنه يقود الناس الى الضلال. وبلغ من حماسته أنه توهم الضلال في مؤلفات دانتي وبوكاتشو وبترارك وغيرها من روائع الأدب الإيطالي التي كانت تتداولها أيدي الشبان في ذلك الزمان زاعماً أن ما فيها من قصص الحب إنما يفسد هؤلاء الشبان... فهل نسي سافونا رولا الكاهن أن سافونا رولا الشاب قد أحب، وأن الحب قد أرهف شعوره الفياض وألهمه رفيع الشعر، وأنه لو لم يفقد فالانتينا لسجل اسمه إلى جانب أسماء هؤلاء الشعراء الخالدين، ولظهر كاهن آخر يدعو الى تحريم مؤلفاته لأنها في زعمه تغري بالمجون وتحض على الفساد؟!

وقد رأى أن الأنانية هي السبب الأول للجراح التي تعانيها البشرية، لأنها تستثمر جماعات من الناس لمصلحة جماعة أخرى، وتستخدم من أجل ذلك سلاح الكذب والنفاق بوساطة الحكام والكهان، وقال إن الأساس الذي يجب أن يقوم عليه المجتمع الفاضل هو أن كل إنسان مدين للبشرية بقواه كلها، فيجب أن لا تنفصل مصلحته الشخصية عن مصلحتها العامة، وأنشأ يحمل بقوة وجرأة على أخطاء الكهان ومظالم الحكام.

وامتزجت في ذهنه فكرة الحرية الاجتماعية والحرية الدينية حتى أصبحتا تؤلفان كلاً واحداً. كان يؤمن بالله إيماناً شديداً ويطلق العنان لمخيلته المجنحة حين يتحدث عن السماء ببلاغة شعرية ملهمة، ولكنه كان يناقش ويحاكم كل ما يتعلق بالأرض وأبناء الأرض، دون أن يضع نصب عينيه سوى هدف واحد هو مصلحة البشرية عامة، وقاعدة عامة هي احترام حقوق الناس وحرياتهم جميعاً، فالحرية لم تكن لديه أقل قداسة من الدين، ولكنها الحرية القائمة على الفضيلة والتقى والصلاح.

ومن هنا نشبت الخصومة على أشدها بينه وبين رجال الدين، فقد كان يتهمهم بتقديس الحرف، وإغلاق عيونهم عن الحقائق العامة التي لا تتنافى مع الإيمان بالله ولا تتعارض مع جوهر المسيحية، ولكنها تتنافى مع مصالحهم وتتعارض مع طقوسهم، وكان أشد ما يأخذه عليهم ممالأتهم للأمراء والحكام، والسير في ركابهم، وخدمة مصالحهم، في حين أن الواجب يقضي عليهم بأن يقفوا إلى جانب المظلومين والمستضعفين من أهل الأرض. وكانوا يتهمونه بالخروج على تعاليم الدين والانحراف عن أحكامه وسننه، فيضحك من قولهم هذا ويجيب قائلا:

ـ لكم دينكم ولي ديني!

وكان يحكم توسكانيا يومذاك لوران دوميديتشي، فجعل يحاربه داعياً إلى التحرر من ديكتاتوريته وإعلان حكم الشعب القائم على الانتخاب الشعبي وتحقيق إرادة الشعب. وعبثاً كان رئيس الدولة يدعو الكاهن الثائر إلى مجلسه، محاولاً أن يقرّبه منه، فقد كان يرفض دعوته، ويواصل دعوته الى التحرر منه.

وكان هذان الرجلان يمثلان النقيضين وصراع عقليتين مختلفتين. فقد كان لوران

الذي سمي بالرائع (Laurent Magnifique) يمثل عصر النهضة بكل أنوارها وآدابها وبكل تسامحها الذي يبلغ حد الإباحية. وكان أكبر علماء عصره وفلاسفته إما أساتذة لـه أو أصدقـاء أوفياء. وقـد حول بـلاطـه بفلورنسا إلى متحف للفن ومعـرض للأدب والجمال والذوق الرفيع. وكان ينظم الشعر الرقيق، وما شعره إلا دعوة إلى الحياة وإلى الحب وإلى الفرح، وتمجيد للجمال ولا سيما جمال المرأة، وتقديس لمطامح الانسان.

أما سافونا رولا فكان يمثل تلامذة المسيح ويحيا مثلهم. ويريد العودة بأبناء إيطاليا من عصر النهضة الذي أشرقت أنواره وسطعت أفكاره، إلى تلك الحيـاة البدائيـة الزاهدة المتقشفة التي عاشوا في ظلها رسلاً للمحبة والفضيلة، وكـان يسير حـافي القدمين خاشع الطرف، ويعيش وحيداً مغلقاً على نفســه لا يضحك ولا يبتسم، يقضي أيامه صائماً ويسهر لياليه في غرفته العارية مصلياً باكياً متهجداً. وإذا كان المثل الشائع يقول: «ساعة لقلبك وساعة لربك»، فإن سافونا رولا كانت كل سـاعاتـه مكرسة لله!

وكان لوران الرائع يرسل شعره على كتفيه ليزداد جمالاً، وكان سافونا رولا يرفض أن يقص شعره تقشفاً ويخفيه تحت برنس الراهب الذي يرتديه.

وكان من حق هذا القديس أن يعيش كما يريد، وأن يختار لنفسه الحياة التي يهوى، ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، لأن سافونا رولا كان يريد أن يفرض هذا النموذج من الحياة على جميع الناس، وأن يجعل من الجميع قديسين!

حكومة الأطفال

ويبدو أن لوران دوميديتشي كان يحترم الأخ جيروم لما يرى من نزاهته ويعرف من تقاه ونبله، فأبى حين أشرف على الموت إلا أن يعترف له ويتقبل الغفران منه، فوافاه سافونا رولا وهو يحتضر ودار هذا الحوار بينهما:

- هل تؤمن بالله؟
- إني أشعر بالإيمان يملأ نفسي.

ـ فهل أنت مستعد للتخلي عن أموالك للشعب؟

ـ . . .

ـ وهل تعلن الحكم الشعبي وتعيد للشعب حقه في انتخاب رئيسه؟

ـ ألا تحلّني من آثامي إلا بهذه الشروط؟

ـ كلا . .

ـ إليك عني إذن أيها الكاهن الأرعن!!

وانصرف سافونا رولا عنه دون أن يؤدي واجبه الديني إلا بتلك الشروط. وأورث لوران ابنه بيير دوميديتشي الحكم في توسكانا دون أن يورثه حكمته وكفايته. ولم يكن الشاب على تسامح أبيه فعزل الأخ جيروم من منصبه.

ودخل ملك فرنسا شارل الثامن إيطاليا في أيلول (سبتمبر) سنة ١٤٩٤ بالتواطؤ مع لودفيك لومور حاكم ميلانو. واعتبر سافونا رولا الغزو الفرنسي عقاباً من الله، وأن إيطاليا ستبرأ في نار المحنة من جراحها وتتطهر من آثامها. وتخلى بيير دوميديتشي للفاتح عن القلاع والحصون التي تعتبر مفاتيح توسكانيا، بالإضافة إلى غرامة مالية كان على المواطنين تأديتها، فتمرد هؤلاء وعلى رأسهم سافونا رولا ومساعده الأخ بيير كابوني، ووقف هذا في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) على منبر كنيسة سانتا ماريا وأعلن أن بيير دوميديتشي لم يعد يصلح لإدارة الدولة. وقد حان الوقت للتخلص من حكومة الأطفال، واختار الحاضرون سافونا رولا لوضع أسس الجمهورية المقبلة. وبلغ ذلك مسامع بيير دوميديتشي فهرب سراً. واحتمى بأسرة بانتيفوغليو أسياد بولوني.

وقد استقبل شارل الثامن في فلورنسا في ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) كضيف لا كفاتح، وأنزل في قصر ميديتشي، ولكن ما كادت تبدأ المفاوضات حتى قدم مطالب تعسفية، وهدد «بالنفخ في الأبواق» (أي بإعلان الحرب) فأجاب الأخ كابوني: «ونحن نقرع الأجراس»! ثم أضاف: «وسوف يستجيب الشعب لندائها وهو يعرف كيف يدافع عن مدينته، فتحولت غطرسة شارل الثامن إلى وداعة، وتعهد بمغادرة المدينة مع قواته. ولكن الملك استطاب الحياة في قصر ميديتشي وفي المدينة الجميلة، فاختار الشعب سافونا رولا لزيارته ومطالبته بمغادرتها، فاستطاع إقناعه بذلك مهدداً

إياه بأن بقاءه فيها سيؤدي إلى دمارها، وأن لعنتها ستحل عليه إلى الأبد، فغادرها في الثامن والعشرين من ذلك الشهر، وتعاظم بذلك نفوذ سافونا رولا وغدا صاحب الكلمة الأولى في فلورنسا.

وفي الموعظة التي ألقاها على منبر الكنيسة، في ٢١ كانون الأول (ديسمبر) حدد للمواطنين صورة الدولة الجديدة بقوله: «إن الله يريد أن تجددوا كل شيء، وأن تهدموا الماضي، وأن لا يبقى أي أثر للأخلاق السيئة والقوانين السيئة والحكومات السيئة».

وتحت قناطر الكاتدرائية التي تحولت إلى برلمان وساحة للمناقشات العامة، وأمام جمهور حاشد لا يضم غير الرجال، بدأ الأخ جيروم يشرح بالتفصيل بنود مشروعه الإصلاحي لإقامة حكومة تتألف من «جميع أولئك المواطنين الذين يتمتعون بحق الاشتراك في القضايا العامة حسب الأعراف القديمة للمدينة».

وكان خطيباً بارعاً تنبض كلماته بحرارة الإيمان، ويتحدث ببلاغة محمومة مسيطرة عدوانية، وتشع من عينيه السوداوين أضواء تؤثر في السامعين، ويزداد تأثيرها حين تقترن مع لعناته، ونذره ووعيده، وتفعل فيهم فعل السحر، فتنهمر دموعهم، ويمزقون ثيابهم، ويتخلون عن أموالهم ومجوهراتهم للفقراء.

وكان سافونا رولا وكأنه مرسل من الله منفذ لأوامره، وكان يقول إن قوة إلهية تحرق عظامه وتضطره إلى الكلام وتضع الكلمات على لسانه والمعاني في جنانه: «اسمعي يا فلورنسا ما سأقوله لك هذا الصباح، اسمعي ما ألهمني الله»... «إني أعدكم من قبل الله بالمغفرة عن خطاياكم»... «افرحي يا فلورنسا»، فإن الله يريد أن يعطيك ملكاً يحكمك، وهذا الملك هو المسيح»... «إن يسوع المسيح الذي هو ملك العالم، قد أراد بصورة خاصة أن يكون ملكاً على هذه المدينة، فهل تريدونه ملكاً عليكم؟».

ويهتف الشعب المتحمس.

ـ ليحيا ملكنا يسوع المسيح!

وبما أن سافونا رولا هو الرسول الملهم الذي يتكلم باسم المسيح، فقد كان معنى هذا الهتاف:

ـ ليحيا ملكنا سافونا رولا!

ثورة باسم الإنجيل!

وسادت المدينة طوال أربع سنوات موجة عارمة من التصوف البدائي والتعصب الديني والهستيريا الجماعية، وقبض «الملك» عليها بيد من حديد فأنشأ مصرفاً يمد المحتاجين بالقروض دون فائدة، وطرد جميع الصيارفة والمرابين اليهود، وأغلق الملاهي على اختلاف أنواعها، ومنع الرقص والموسيقى واللوحات الأسطورية والقصص الخيالية والعاب الميسر على اختلاف أشكالها. ولم يعد يسمع في أجواء فلورنسا سوى الأناشيد الدينية، وخلت شوارعها وأسواقها من النساء وإذا ظهرن فيها لغرض طارىء ففي ثياب محتشمة أشبه بثياب الراهبات. وطلب من الزوجات أن يبتعدن عن أزواجهن في المخادع، ومن العرسان أن يقسموا على التبتل والطهارة. وأقيمت في زوايا الشوارع مذابح كنائسية تضاء عليها الشموع أمام تماثيل السيدة العذراء. وكان المارة يحملون في أيديهم الإنجيل أو رسائل الأخ جيروم ليقرأوا فيها وهم ذاهبون إلى أعمالهم أو عائدون إلى منازلهم.

وأعلن سافونا رولا الثورة الثقافية التي أعلنها ماو تسي تونغ بعده بخمسمائة سنة فأحرق في ساحة فلورنسا في ٧ شباط (فبراير) سنة ١٤٩٧ كنوز الفكر العالمي وروائع الأدب وآيات الفن التي احتوتها المتاحف والمكتبات العامة، وألف جماعات من الأطفال والمراهقين يقتحمون المنازل والمعاهد والأسواق لحرق الكتب الفاسدة واللوحات الماجنة، وانتزاع الحلي من صدور النساء، وتحطيم كل وسائل الحياة الرخية المترفة، وكان على هؤلاء الأطفال والمراهقين أن يمنعوا بأنفسهم كل انحراف عن تعاليم الشريعة وكل إخلال بالآداب، وأن يقدموا التقارير إلى السلطات المختصة عن سلوك آبائهم وأقاربهم وأصدقائهم، لأن الله هو أبوهم الأول.

وقد انقسمت المدينة من جراء ذلك إلى فريقين ضم أحدهم أنصار سافونا رولا ومريديه واتباعه وقد سماهم خصومهم «البكائين ـ Les Pleureurs» وضم الفريق الثاني جميع المستائين والمتضررين والمعارضين وعشاق الحياة الحرة الذين ضاقوا بحياة القهر والقمع وإن جاءا تحت اسم الخير والفضيلة وقد أطلق الأولون على هؤلاء اسم

«المسعورين ـ Les Enragés».

وكان البابا اسكندر السادس عميد أسرة بورجيا الشهيرة في التاريخ، يشجع المعارضين على محاربة الكاهن الثائر الذي لا يرى حرجاً في انتقاد سلوك الحبر الأعظم، قائلاً إن هذا السلوك يجب أن يكون قدوة في الفضيلة والعفة ومكارم الأخلاق، زاعماً أن الكنيسة صارت بفضله وفضل أعوانه أبعد ما تكون عن المسيحية الحقيقية، صارخاً: «في الكنيسة البدائية كان ثمة كؤوس من خشب وأحبار من ذهب، أما اليوم ففي الكنائس أمراء من خشب وكؤوس من ذهب»... «إن سيف الرب سيهوي قريباً على الأرض»... «وها أنا أرى الطوفان يجتاح العالم»... «وسوف ترون الطغاة قريباً وهم يقادون إلى نهاياتهم، وإيطاليا الممزقة تدفع إلى عارها وشقائها».

وكان اسكندر السادس قد وجه في ٢٥ تموز (يوليو) ١٤٩٥ دعوة «إلى ابننا العزيز جداً الأخ جيروم سافونا رولا» لزيارة روما، وأيقن هذا بأن هذه الدعوة ستؤدي إلى قتله أثناء الطريق، أو ستنتهي بإلقائه في حصن سان انجيلو حيث يختفي أعداء السلطة، فاعتذر بمرضه ووقف على منبر الكنيسة ليعلن أنه قد أعطى قومه الكثير من حياته وصحته، وأنه إذا سئل عن المكافأة التي يريدها فسيجيب: إنه الاستشهاد هذه هي مكافأتي على ما أعطيت وضحيت!

وتظاهر البابا بأنه قبل عذر «ابنه العزيز جداً» ولكنه ما لبث حتى أصدر في ايلول (سبتمبر) سنة ١٤٩٥ قراراً بمنعه من إلقاء مواعظه، ولكن سافونا رولا استمر في وعظه، وتعالت صرخته أكثر من قبل وأخذ يرجم بنيران غضبه رجال الكهنوت وزعماء الكنيسة والبابا نفسه، لأنهم انحرفوا في رأيه عن طريق المسيح وشوهوا تعاليمه وسلكوا نهجاً لا يرضى عنه.

ولجأ البابا إلى طريقة أخرى إذ منحه قبعة كاردينال، فرفضها باحتقار قائلاً: «لا أريد قبعة، لا أريد تاجاً أسقفياً لا كبيراً ولا صغيراً، لا أريد إلا المنية التي أعطيتها يا إلهي لقديسيك، تلك القبعة الحمراء بلون الدم».... «لقد أريتني نورك يا إلهي، ففعلت ما تفعله الفراشة التي تحرق جناحيها حين تريد أن تلامس النور»... «لقد

أحرقت يا إلهي جناحيّ، ووضعت نفسي في بحر عاصف تهب عليه الرياح من كل صوب، وحين أردت العودة إلى الشاطىء لم أجده، وحين أردت أن أبقى هادئاً وصامتاً لم أعد أستطيع ذلك، لأن كلمة الله في قلبي تحرق عظامي كاللهيب».

في ٣ أيار (مايو) سنة ١٤٩٧ بينما كان يلقي عظاته في كنيسة سانتا ماريا، أثار خصومه الشغب داخل الكنيسة وحاولوا إنزاله عن المنبر، ولكن أنصاره استطاعوا السيطرة على الموقف فحموه بصدورهم، وأفسحوا له طريقاً وهم شاهرو السيوف، ورافقوه إلى دير سان مارك حيث أكمل موعظته.

بيد أن عظمة سافونا رولا كانت قد جرحت، وتبين أنه لا يسيطر تماماً على مدينته، وأن خصومه قادرون على مواجهته في كنيسته فانتهز البابا اسكندر السادس هذه الفرصة وأصدر الحرم بحقه. وقرىء هذا الحرم في اليوم الثامن عشر من حزيران (يونيو) سنة ١٤٩٧ في جميع الكنائس. وقد جاء فيه: «إننا نأمر بأن يعلن في أيام الأعياد على الشعب المحتشد، حرمان المدعو الأخ سافانا رولا وأن يمنع كل إنسان من مساعدته ومعاشرته، بالقول والفعل، بوصفه محروماً ومشتبهاً باقترافه جرم الهرطقة».

ولم ينحن سافونا رولا أو يتراجع، بل أعلن رفضه «هذا الحرمان غير المقبول امام الله وأمام البشر». وفي الوقت نفسه تدخل أنصاره النافذون لدى البابا لإلغاء الحرمان. وحدث أثناء ذلك أن تعرض اسكندر بورجيا إلى مأساة عائلية إذ قتل ابنه الدوق دوكانديا ابنه الآخر فالانتان. ويبدو أن هذه المأساة قد خففت من غضبه، كما أن الكاهن المحروم كتب له تعزية رقيقة فتوقف عن ملاحقته.

ولكن أسرة ميديتشي أرادت انتهاز فرصة حرمان سافونا رولا للعودة الى السلطة في محاولة قمعت من قبل أنصار الأخ جيروم بوحشية فائقة. فتجدد غضب البابا عليه، وأرسل إليه مذكرة مؤرخة في ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٤٩٧ يدعوه فيها للحضور حالاً إلى روما دون أن ترافقه حاشية أو أن يكون مصحوباً بأصدقاء.

وبدلاً من أن يلبي الدعوة، ألقى في دير سان مارك موعظة حمل فيها على البابا بشدة، ثم كتب إلى أمراء أوروبا ورؤساء الكنائس فيها يحرضهم عليه، ويدعوهم إلى عقد مجمع مقدس لإسقاطه، فاضطرت عمدة فلورنسا إلى إبلاغه وجوب التوقف

عن الوعظ، وقد أبلغه ذلك في ١٧ آذار (مارس) ١٤٩٨ ضباط من الجيش، ولكنه أصر في اليوم التالي إلى الصعود على المنبر ومخاطبة المؤمنين بقوله: «في ليل أمس (لأن الذي يصنع الشر يخشى النور) أرسلت عمدة المدينة من يبلغني وجوب التوقف عن الوعظ ولكن عندما يريد الله أن أعظ فإني سأعظ، وسوف ترون ذلك، فبفضله سوف أجتاز كل خوف».

وغادر سافونا رولا المنبر كي لا يعود إليه مرة أخرى، فقد كانت المأساة تدنو من نهايتها، ولم يكن أمام بطلها سوى الاستمرار في الاقتحام: «لا أجد أمامي سوى العاصفة، ومن خلفي اختفى الشاطىء، يا إلهي، إلى أين تقودني، لماذا جعلت مني عنصر نضال وصراع على هذه الأرض؟».

في سنة ١٤٩٧ جرت في فلورنسا حادثة تصور عقلية ذلك العصر، فإن راهباً فرنسيسكانياً يدعى فرنسيسكو دابوغليا تجادل مرة مع الأخ دومينيكو بورلاماشي، وهو أكبر أنصار سافونا رولا، فتحداه أن يدخل معه في محرقة ليرى الناس أياً منهم ينجو من نارها ببركة عقائده وأياً منهما يحرقه لهيبها، وقال ديبوي لأصدقائه إنه واثق من أن النار ستلتهمهما معاً، ولكنه يريد أن يثبت أن الله لا يحمي أولئك المنافقين كما يدعون.

وعين يوم السابع من آذار (مارس) موعداً لتلك التجربة، واحتشد الناس في ذلك اليوم حول كومة من الحطب كدست في ساحة فلورنسا وأضرمت فيها النار، وجاء بورلاماشي وخصمه فرنسيسكو دابوغليا، وإذا بهذا الأخير يتراجع أمام ألسنة اللهب، ويعدل عن القيام بتلك التجربة الخطيرة، فينقذ بذلك نفسه وينقذ خصمه.

وبعد ذلك بسنة، وعلى وجه التحديد في آذار (مارس) سنة ١٤٩٨، جدد الفرنسيسكان تحديهم بتحريض «المسعورين» لهم، وأعلن الراهب فرنسيسكو دابوغليا أنه مستعد للقيام بتلك التجربة ولكنه اشترط أن يدخل معه إلى النار الأخ جيروم نفسه. فقد رأى خصومه أنه إذا امتنع عن قبول التحدي فقد مكانته لدى الجماهير المؤمنة به، وإذا قبله تخلصوا منه.

واهتم الناس بالأمر، وأصبح هذا التحدي حديث جميع الفلورنسيين، واجتمع رأيهم على وجوب القيام بهذه التجربة، تجربة النار، لأنها خير امتحان لحقيقة ما يدعيه سافونا رولا من أنه مرسل من الله وهو يتكلم بوحي منه، واشتد انقسام المدينة بين متحمس لهذا أو متحمس لذاك.

وكان يوم السادس من نيسان (أبريل) موعداً للتجربة، فجاء فرنسيسكو دابوغليا إلى الساحة العامة متحدياً، ووقف على مقربة من كومة الحطب المشتعلة في انتظار الأخ جيروم، وإذا بالراهب دومينيكو بورلاماشي يتقدم للقيام بالتجربة بالنيابة عن سافونا رولا!

وكانت عمدة المدينة قد حشدت حول الساحة ثلة من الجند مخافة أن تتحول التجربة الدينية إلى مذبحة أهلية، لا سيما وأن «البكائين» قد تجمعوا متحمسين حول سافونا رولا وأتباعه من الرهبان الدومينيكان، في حين تجمع «المسعورون» وأنصاره من الرهبان الفرنسيسكان وهم يفوقون خصومهم حماسة. وكان كل فريق منهما يحمل صليباً أحمر ومشعلاً كبيراً ويرتل الأناشيد التي تتغنى بمجد الله.

واشتد الجدل بين الفريقين حول إرسال سافونا رولا، من ينوب عنه في هذه التجربة، فإن التحدي كان موجهاً إليه ولا يحق له أن يقبل بتضحية أحد أتباعه بدلاً منه، فهل هو خائف من الإقدام على التجربة، وهل كانت كل مزاعمه عن صلته الوثيقة بالله باطلة؟!

ولما تقدم دومينيكو من كومة الحطب المشتعلة وركع مصلياً قبل الدخول فيها، انقض عليه «المسعورون» للفتك به، لأنهم يصرون على رؤية النبي المزعوم وهو يتحداهم بالدخول في قلب النار والخروج منها سالماً ببركته تعالى، وليس لرؤية أحد مريديه وهو يستشهد بطيبة خاطر، فأنقذ «البكاؤون» الأخ دومينيكو من أيديهم، واتفق أن هبت عاصفة في تلك اللحظات وانهمر المطر فأخمد النار. وقال سافونا رولا أن الله قد أعلن بذلك عدم رضاه عن التجربة. وكان المساء قد اقترب فتدخلت عمدة المدينة وأوقفت التجربة، وعاد الدومينيكان إلى ديرهم وعلى رأسهم سافونا

رولا بحراسة طائفة مسلحة من البكائين.

إلا أن هذا الحادث قد أجهز عل البقية الباقية من نفوذ سافونا رولا، أولا لأنه رفض الإقدام على التجربة بنفسه، وثانياً لأنه ظل يماطل ويؤخر تنفيذها حتى هبت العاصفة، واستغل «المسعورون» ذلك فأخذوا يثيرون الناس عليه، قائلين إن الجبن الذي أظهره قد فضح كذبه وتدجيله، وادعاءه النبوة والوحي، حتى أن عمدة المدينة التي رأت أنها لم تعد قادرة على المحافظة على حياته، أمرته بمغادرة فلورنسا خلال ١٢ ساعة.

ومرت صبيحة اليوم التالي بسلام، ولكن ما كاد يقبل المساء حتى بدأ «المسعورون» يهاجمون «البكائين» في كل مكان من المدينة، ثم ارتفع الهتاف من كل صوب: «إلى دير سان مارك.. إلى سان مارك».. وإذا بالجمهور يشترك كله في إحدى تلك الحركات الهستيرية المفاجئة التي تسري فيها عدوى الهياج من إنسان إلى آخر، وهي إحدى الظواهر الجماهيرية الغوغائية المعروفة، فهوجم دير سان مارك، ورجم بيت الله بالحجارة، وتحوّل ملجأ السلام والصلاة والتأمل الى ساحة للعربدة والقتال الوحشي.

وبينما كان بعض الرهبان يقاومون المعتدين بأسلحة دفاعية من وراء الأبواب والنوافذ المغلقة بإحكام، وكان آخرون منهم يكتفون بحمل الصلبان الخشبية والحديدية ويطوفون بها في ساحة الدير، كان سافونا رولا وعدد من مريديه يصلون أمام المذبح طالبين من الله أن ينقذ المؤمنين به، وكان جرس الكنيسة يقرع باستمرار داعياً «البكائين» عبثاً إلى إنقاذ قديسهم.

وكان عدد المهاجمين يزداد في كل لحظة، وقد أحاطوا بالدير من جميع جهاته وفي أيديهم الفؤوس والمطارق والبنادق والمشاعل، وحين أوشكت الأبواب تتحطم والأسوار تتهدم، ودنت ساعة الاقتحام الرهيبة، وصل جنود العمدة فأبعدوا المهاجمين، ودخلوا الدير عنوة، واعتقلوا سافونا رولا دون مقاومة، وساقوه مقيد اليدين بين الجمهور المحتشد في ساحة الدير، هذا الجمهور الذي طالما هتف باسمه ويبكى لسماع مواعظه، وهو يحيط به الآن هازئاً ساخراً متشفياً، هذا يقرّب

مشعله من عينيه وهو يصرخ به: «هذا هو النور الحقيقي!»! وهذا يضربه على كتفه وهو يقول له: «أيها النبي إحذر من ضربك!» وهذا يسأله أين الوحي الذي يوحى إليه؟!

اعتقل سافونا رولا ومساعداه دومينيكو بورلاماشي وسيلفسترو مورا في حصن بالازوفيكيو في سجن ألبير غيتينو. وكان خصومه قد استولوا على مقاليد السلطة فقرروا محاكمته في فلورنسا بدلاً من إرساله الى روما تنفيذاً لطلب البابا، إلا أن اسكندر السادس بادر حين علم إصرارهم على ذلك، إلى إرسال عدد من كرادلة روما للانضمام إلى هيئة القضاة التي ترأسها سيرسيكون أشد خصوم الأخ جيروم عداء له. وكانت التهم الموجهة إليه متعددة ومنها ادعاء النبوة وتحريف الشريعة واغتصاب السلطة والتحريض على قداسة البابا ودعوته الى مجمع مقدس لإسقاطه.

وقد حرف سيرسيكون اقوال سافونا رولا أثناء استجوابه المتكرر، وأضاف إليها كلمات يتهم فيها نفسه بالغرور والنفاق، كقوله: «لم يكن الأمر كله إلا نفاقاً. . إن كبريائي هي التي دفعتني إلى ذلك. . لقد فعلت ذلك لإحراز مجد دنيوي ولكي أصبح حديث الناس. . .».

ثلاث محاكمات للكاهن الثائر

وقد بدأت محاكمته في ٩ اذار (مارس) في قاعة قصر بارجيللو حيث يجتمع عادة قضاة محكمة التفتيش، وهي في الوقت نفسه قاعة تعذيب.

وأنكر المتهم ادعاء النبوة، وقال إن الخواطر التي كانت تنهال عليه كانت أشبه بالوحي ولكنها لم تكن وحياً، ثم أضاف ـ وهنا يحار المرء في التمييز بين ما قاله حقاً وما أضافه رئيس القضاة ـ: «وحين رأيت أن هذه الطريقة تلاقي نجاحاً، اندفعت فيها لأكسب المزيد من المريدين وأضاعف من حماسة الشعب، فبدأت أدعي بأني أتلقى الإلهام من الله، مع أني لم أكلم الله وهو لم يكلمني قط».

وكان التناقض يبدو جلياً في محاضر جلسات التحقيق والمحاكمة، فقد جاء في مكان آخر قوله: «لا أعلم إن كنت نبياً أم لا، إن الله هو الذي يعلم ذلك وسوف يظهره، وإذا كان اعتقالي ينفي في نظركم كوني كذلك، فإن أنبياء آخرين تعرضوا

لأسوأ مما تعرضت له، وأمام إلحاح المحقق حول هذه النقطة قال: «إذا قلت لك «نعم» فلن تصدقني، وإذا قلت «لا» فإني أكذب» وقال أيضاً: «أؤكد لكم أن الملاك يكلمني، وهو يكلمني بصوت بشري . . .».

استمر الاستجواب أحد عشر يوماً تعرض سافونا رولا خلالها للتعذيب عدة مرات، وفي ١٩ نيسان (أبريل) وقع المتهم على كل ما قاله أو أرغم على قوله، ولما وقع الشهود على المحضر، سأله واحد منهم وهو يدعى الأخ مالاتيستا: «ولكن هل كانت هذه الأقوال التي وقعت عليها صحيحة أم كاذبة؟» فأدار له ظهره وعاد إلى سجنه.

وفي مساء ذلك اليوم نفسه قرأ كاتب المحكمة في قصر عمدة فلورنسا وفي قاعة المجلس الأعلى التي أنشأها سافونا رولا نفسه، على وجوه المدينة محضر التهم الموجهة إليه وأجوبته عليها، وبات من الواجب حسب الأصول القضائية المتبعة في تلك الأيام، إصدار الحكم بحقه، ولكن «المسعورين» رأوا أن النتائج التي توصل اليها التحقيق غير كافية، وكتبت العمدة إلى البابا: «على الرغم من الاستجواب الذي استمر أياماً عديدة فإننا لم نستطع أن ننتزع منه سوى اعترافات قليلة أخذت بالقوة».

وعلى أثر ذلك تقرر إعادة المحاكمة وسحبت من التداول المحاضر التي طبعت ووزعت على الأهلين. وبدأت المحاكمة الثانية في ٢١ نيسان (أبريل)، وقد انحصر هم القضاة أثناء تدوين المحاضر على انتزاع اعترافات أكثر خطورة من المتهم؛ والتأكيد في الوقت نفسه على أنه لا يتعرض لأي ضغط، وهكذا حمل على الاعتراف بأنه قد قام بكل شيء وفق خطة رسمها بدافع العناد والكبرياء، من أجل أن يحكم فلورنسا وإيطاليا كلها، وأضاف أنه يعترف بذلك تلقائياً ودون أي تعذيب، وأن ذاكرته ضعيفة فإذا فاته شيء فإنه مستعد أن يتذكره حين يطلب منه ذلك ودون تعذيب.

وانتهت استجوابات المحاكمة الثانية في ٢٥ نيسان (أبريل)، وأعيد الأخ جيروم إلى زنزانته في سجن ألبيرغيتينو التي صارت تمثل بالنسبة إليه ملاذاً للراحة والرفاهية، بعدما عاناه أثناء المحاكمة من تعذيب، وما كادت ذراعه تبرأ من الآثار التي تركها

التعذيب في أنحاء مختلفة من جسده، حتى استعاد شجاعته وكتب: «فليظهر العالم كل شراسته ضدي، وليتألب عليّ جميع أعدائي، ولن يعرف الخوف قلبي ولو هاجمتني جميع الجيوش».

ومن المؤسف القول إن الخوف سرعان ما غزا قلبه، فإن هذا الرجل الذي واجه الموت حرقاً بشجاعة نادرة، كان لا يستطيع احتمال الألم الجسدي، وكانت قسوة قضاته لا تزال عازمة على تعريضه لمزيد من التعذيب، فإن اسكندر بورجيا لم يكتف بالنتائج التي توصلت إليها المحاكمة الثانية، وأرسل بعثة قضائية برئاسة الكاردينال رومولينو لإجراء محاكمة ثالثة تحقق العدالة المنشودة.

وبدأت هذه المحاكمة الجديدة في ٢٠ أيار (مايو)، وقام بها أعضاء البعثة البابوية بمساعدة ممثلي القضاء المدني، فسئل المتهم عن المجمع المقدس، الذي دعا إليه أمراء أوروبا ورؤساء الكنائس فيها لإسقاط البابا، فأنكر ذلك، وسئل عن رفضه للحرم الذي أنزله به قداسته، فأجاب بأنه أخطأ ويطلب المغفرة.

ولم ترض هذه الأجوبة الكاردينال رومولينو، فأمر بأن تخلع ثياب الكاهن ويوقف أمامه عارياً، استعداداً لتعذيبه، فثار سافونا رولا، وركع وأخذ يصرخ: «أيها الفلورنسيون اشهدوا عليّ. . . إني سأنكر المسيح، ولكني سأفعل ذلك خوفاً من التعذيب!».

وأسرع المحققون الى خلع ثيابه والبدء بتعذيبه على الدولاب فصرخ: «لا تمزقوني فسوف أقول كل شيء. . أؤكد لكم أني سأقول كل شيء. . .».

وأنزل عن الدولاب وسئل:

ـ لماذا أنكرت سابقاً التهم الموجهة اليك؟

ـ لأني مجنون. . . .

وبلهجة طفل مذنب يخضع للعقاب أخذ يقول:

ـ إن مرأى آلات التعذيب هذه يفقدني صوابي، ولو استجويت بعيداً عنها، وبروح مسالمة، لقلت كل شيء. . كل ما ترغبون!

وسئل من جديد عن التهم الموجهة اليه فاعترف بأنه ادعى النبوة من أجل الشهرة

وحباً بالسيطرة، وقال إن كبرياءه قد جعمته وجرته إلى تلك الطريق، وهو مستعد لأن يكتب للبابا طالباً منه الغفران والعودة اليه كعودة الابن الشاطر في الانجيل، وأضاف أنه لا يذكر متى قال: «يا إلهي إذا كنت أنا كاذباً فأنت كاذب» ولكنه قال ذلك حتماً لأن كبرياءه سيطرت عليه وقادته الى الضلال.

وقال في جلسة ٢١ أيار (مايو) سنة ١٤٩٨ إن كل ما اعترف به في المحاكمتين السابقتين قد قاله طواعية وهو يشكر القضاة لرفقهم به ومعاملتهم الوديعة له، وإذا كان لم يعترف في البدء بكل شيء فذلك لأن رواسب الكبرياء كانت لا تزال مسيطرة عليه، ولكن بما أنهم يعاملونه بهذا اللطف فإنه مستعد لأن يقول كل شيء.

لقد كان لهذه الكلمات معنى مفرط في السخرية، لو كان سافونا رولا لا يزال قادراً على السخرية، ولكنها كانت في الواقع تعبيراً عن الانهيار التام لإنسان منهك حطمه التعذيب.

وأراد القضاة معرفة شركائه في الدعوة إلى مجمع مقدس لإسقاط البابا، وفي مقدمتهم كردينال نابولي، فأنكر أن يكون قد تم بينه وبين هذا الكردينال أي اتصال، ولكنه أخذ يتراجع تحت الضغط فقال إنه كتب له عن ذلك بصورة غامضة، وقد أجاب الكاردينال بأنه يجب الانتظار والتأني قبل الإقدام على أمر من هذا النوع، واعترف بأن كرادلة آخرين قد اهتموا بالموضوع، ولكن المحققين كانوا ينشدون إجابات أكثر دقة فعادوا إلى تهديده بالتعذيب، وقيد بالسلاسل وعلق بآلة رفعته في الهواء، فما لبث حتى أعطى الإجابات الدقيقة التي يطلبون.

وما كاد يعود إلى زنزانته حتى استيقظ ضميره وأخذ يعذبه لأنه أساء في اعترافاته إلى أشخاص آخرين، فلما عقدت الجلسة التالية بدأها بقوله:

ـ إن كل ما قلته صحيح باستثناء ما قلته عن كردينال نابولي وغيره من الكرادلة، فقد فعلت ذلك بدافع الخوف.

ثم عرضت عليه محاضر الجلسات فوقع عليها جميعاً، وأبلغه رئيس المحكمة أن الحكم عليه سيصدر في اليوم التالي.

وأثناء محاكمة سافونا رولا كان الأخ دومينيكو بورلاماشي والأخ سيلفسترو مورا يحاكمان كل منهما على انفراد، ويتعرضان للضغط والتعذيب، وقد كانا شجاعين وصادقين فلم ينكرا تعلقهما بسافونا رولا وإيمانهما بصدقه وفرادته وبأنه رجل الله الصالح المخلص لرسالة الفضيلة والإيمان، ولكن المحققين حرفوا أجوبتهما كما شاؤوا للوصول الى النتائج التي تسمح بإدانتهما وإدانة قائدهما الروحي.

وفي ٢٢ أيار اجتمع قضاة البعثة البابوية لتقرير مصير الرهبان الثلاثة، فأجمع رأيهم على إعدام سافونا رولا والأخ سيلفسترو، وأراد بعض القضاة إنقاذ الأخ دومينيكو من الموت، فقال الكردينال رومولينو: «وماذا يهم.. أخ ناقص أو أخ زائد... أرسلوا به إلى الموت!». وهكذا صدر بالاجماع الحكم بإعدام الرهبان الثلاثة حرقاً.

الإعدام... حرقاً!

وخضعت عمدة مدينة فلورنسا لإرادة البابا في تأكيد حقه بالفصل في القضايا الدينية، ولكنها أرادت أن تثبت في الوقت نفسه سيادتها، فألفت لجنة قضائية درست. معطيات الدعوى، وأصدرت قراراً بالأكثرية بإعدام الرهبان الثلاثة، وطلب أحد القضاة، وهو يدعى أنجلو نيكوليني تخفيض حكم الإعدام إلى السجن المؤبد، ولكن صوته الوحيد ضاع في زحمة بقية الأصوات.

واستقبل الأخ دومينيكو والأخ سيلفسترو حكم الإعدام حين أبلغا إياه في زنزانتهما بروح المؤمن المطمئن والمستعد للاستشهاد، وكذلك استقبل الأخ جيروم الحكم بهدوء لا مثيل له، وطلب أن يتاح له الاجتماع برفيقيه، فسمح له بذلك، وتبين أثناء اجتماعه بهما أنهما لا يزالان على إيمانهما به وثقتهما بقداسته. وطلبا منه أن يباركهما ففعل ذلك، وسيق الثلاثة في صباح اليوم التالي، وهو اليوم الثالث والعشرون من أيار (مايو) سنة ١٤٩٨، إلى ساحة الإعدام، وإذا بأخ دومينيكاني من دير سانت ماري نوفيل، يصل مسرعاً وهو يحمل أمراً يقضي بألا يعدم المتهمون وهم في ثيابهم الكهنوتية فنزعت عنهم هذه الثياب، وألبسوا قمصاناً طويلة من الصوف، وتقدموا حفاة الأرجل مقيدي الأيدي بين الجماهير التي هرعت من كل مكان للاستمتاع

برؤية المأساة، وقد جلس في شرفة قصر العمدة أسقف فازونا الذي كان أحد مريدي سافونا رولا وعلى يمينه أعضاء البعثة البابوية وإلى يساره القضاة الـذين أصدروا الحكم، ورفع في وسط الساحة صليب كبير وتدلت ثلاثة حبال لشنق المحكـومين وثلاثة سلاسل لتثبيت أجسادهم فوق كومة الحطب حين تشتعل فيها النار.

ثم تلا أحد القضاة قرار المحكمة وقد جاء فيه: «بعد التدقيق في وقائع قضيـة الأخوة الثلاثة، والجرائم الخطيرة التي قاموا بها، والاطلاع على الحكم الذي أصدره بحقهم مفوضو صاحب القداسة، نقرر أن يشنق ثم يحرق حتى تفارق الروح الجسد تماماً، كل من المتهمين الثلاثة».

وصعد دومينيكو وسيلفسترو الى المشنقة بوجهين مشرقين وغبطة ظاهـرة لقرب تحررهما من عبودية الجسد وصعودهما إلى عالم الروح، ثم جاء دور سافونا رولا فتقدم إلى المشنقة بهدوء، ثم أجال نظره في وجوه الجمهور الحاشد، وبينما كان «البكاؤون» الصامتون لا يزالون ينتظرون وقوع معجزة، كان «المسعورون» يوجهون إليه الشتائم واللعنات ثم هرعوا إلى كومة الحطب وأشعلوا فيها النار، وكانت كلمات الأخ جيروم الأخيرة:

ـ فلورنسا.. فلورنسا.. ماذا صنعت؟!

وأراد «البكاؤون» الحصول على رماد ستافونا رولا لدفنها، فرفضت السلطة مخافة أن يتحول مدفنه الى مزار فيكتب له الخلود، وأمرت بإلقاء الرماد في نهر أرنو فحملتها أمواجه بعيداً وبددتها إلى الأبد. وقد اعتبر سافونا رولا أحد ضحايا اسكندر بورجيا الكثيرين. ولكن البابا جول الثاني ما لبث أن أعاد له الاعتبار وسمح لرفائيل بأن يضعه بين أقطاب الكنيسة في اللوحات الخالدة التي زين بها كنيسة الفاتيكان.

وكان ميكافيلي معاصراً للوران الرائع وسافونا رولا فكتب عن الأول عند وفاته: «لم يترك أحد بعد موته، لا في فلورنسا ولا في إيطاليا كلها، ما تركه من شهرة في الحكمة ومن لوعة في الحزن». وأطلق على الثاني لقب «النبي غير المسلح».

ترى ماذا كان يحدث لو أن سافونا رولا كان مسلحاً، وقد رأينا السلاح يحول

الأبرار إلى أشـرار والقديسين إلى شياطين؟

لا ريب في أن وجه فلورنسا، بل إن تاريخ إيطاليا كلها، كان سيتغير، ولكن من يدري هل كان سيتغير نحو الأفضل أم نحو الأسوأ؟!

الفهرس

الكاتب

عرفناه وقرأناه منذ كنا على مقاعد الدراسة، وكنا كلما نقرأ له مقالاً أو كتاباً، نحسّ أننا مع واحد من روّاد القمّة، فكراً وأدباً وأسلوباً.

كانت مقالاته ناراً تحرق، وكانت أحرف كلماته نوراً يضيء.. الأولى تحرق الطغاة ومستعبدي الناس، والثانية تنير الدرب للمعذبين في الأرض، وترشدهم إلى طريق الخلاص، طريق التحرر من كل أنواع الظلم والإستثمار والإستعمار. هذا الرجل الأديب والمفكر، ليس في حاجة إلى أن يعرّف به، لأن له في هذا المجال وقفات وأقوالاً تكفي لأن تحمله إلى صفوف الأمام بين النخبة الخيّرة المعطاء.

عزيز المتني

والحقيقة أن قدري قلعجي الكاتب هو قدري قلعجي الإنسان، بينهما مشابه كثيره، على رأسها الوضوح في القصد، والتأني في التفكير، والسلامة في البحث، والدّقة في الإختيار والتمييز.

هكذا بدا لنا أديبنا الكبير في أول ما أخرجه من الكتب، وهكذا يبدو لنا الآن بعد عشراتٍ مما أخرجه منها.

رمضان لاوند

إن مؤلفات قدري قلعجي تشكل مدرسة جيل في الفكر السياسي الحديث، هذه المدرسة التي نشأت مع نشوء شباب قدري قلعجي، والتي ما فتئت منذ ربع قرن، تمد المكتبة العربية بأروع دراسات الأدب السياسي.

إن في شخصية هذا المؤلف من جوانب الغنى ما يضيق عنه مقال، إلى ما يستحق دراسة كاملة في كتاب يؤرخ عصراً سياسياً كاملاً، وربما من خلال هذا القلم الفريد.

جورج رجي